علي دمر

شاعر الحب والغربة والحنين

د. رجا سمرين

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

علي دُمَّر
شاعر الحب والغربة والحنين

دراســـة

تأليف : الدكتور رجا سُمرين

علي دُمَّر

شاعر الحب والغربة والحنين

دراسة

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٩

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail : unecriv@net.sy

الانترنيت : Internet : aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

www.awu-dam.com

تصميم الغلاف: سميرة السبسبي

□□

لماذا هذه الدراسة؟!

تجيءُ هذه الدراسة وفاءً بعهدٍ مشترك كان كل منا -علي دُمّر وأنا- قد قطعه على نفسه. ففي ليلة مقمرة من ليالي القاهرة الساحرة في صيف عام ١٩٥٣ حيثُ كنا نتريّضُ على "كرنيش النيل". بالقرب من فندق سميرا ميس- توقّف علي فجأة ثم التفت إليّ بعد أن توقفت لتوقفه ليفاجئني بسؤالٍ لم أكن أتوقعه.

قال -رحمه الله-: "يارجا، هل ترى من عيبٍ في هذا الجمال الساحر الذي يأخذ بالألباب، ويحيط بنا من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم؟!".

قلت -وقد أخذتني الدهشة من سؤاله- :"أجل ياصديقي، لاشك أنّ هنالك عيباً ما في هذا الجمال الذي نراه، فما من مخلوق يخلو من العيوب لأن الكمال للخالق وحده.

قال: "أصبت ورب الكعبة، ولكن هل يمكنك أن تذكر لي ولو عيباً واحداً في هذه اللوحة الرائعة التي تشاركني متعة تأملها واستلهامها في هذه اللحظات؟".

قلت -وبدون تردد-: "لعل أبرز عيوبها يا عليّ هو أنها غير خالدة، وأنها مهما عُمّرتْ فلابد أنها إلى زوالٍ تصير".

قال: "صدقت والذي برأ هذه الروعة المذهلة. إن هذه الفكرة هي التي راودتني وأنا أتأمل معك هذا الجمال الأخّاذ الذي تفنّن الخالق في صنعه".

قلت: "هل كان لزاماً عليك أن تُعكّر صفونا بذكر عيوب الدنيا ونقائصها؟! إنك تحفظ مثلي -ولاشك- قول أبي البقاء الرندي:

لكل شيءٍ إذا ماتمّ نقصانُ *فلا يُغَرّ بطيب العيش إنسانُ*

قال: "هوّن عليك ياصديقي فإن لي هدفاً من وراء هذا الحوار لن أَلبث أن أفضي به إليك".

قلت: "هكذا أنت دائماً تأبى إلا أن تتفلسف، وما أرى إلا أن دراسة الفلسفة قد أثّرت في تفكيرك أيّما تأثير".

قال: "دعك من هذا، فلست بأقلّ مني تفلسفاً ومحاكمةً للأمور، ولتعلم أن بين الشعر والفلسفة نسباً وصهراً لا ينفصمان".

قلت: "أنا لاأختلف معك في ذلك، ولكن أليس لهذا الحوار السقراطيّ من نهاية؟!".

قال: "لن أطيل عليك أكثر من ذلك، فأنا أعرفك متسرعاً، قليل الصبر، ضيّق العَطَن، تُؤثِرُ الوصول إلى النتائج بأسرع وقت، وأقصر سبيل".

قلت: "وعلى الرغم من علمك بصفاتي هذه، فإنك لازلت ممعناً في اللف والدوران، وفي حوارك هذا الذي لايجلب غير الهم والغمّ".

قال -وقد رسم على شفتيه ظل ابتسامة ساخرة- "قُلْ لي بربك، أيُّ أجزاء هذه اللوحة الربانية أسرع إلى الزوال؟!".

قلت: "لاشك أنها أنا وأنت وهذه الأشباح التي تشاركنا متعة التريُّض على شاطئ النيل الخالد في هذه الأمسية الرائعة.".

قال: "هذا مأأردت الوصول إليه".

قلت: "وهل يستحق الوصول إلى هذه البدهيّة البسيطة كل هذا العناء؟!".

قال: "أعرف أن ذلك من البدهيات، ولكني أردت أن ألفت انتباهك إليها ليقطع كلٌ منا على نفسه عهداً يسأل عن الوفاء به يوم القيامة!".

قلت: "لطفك اللهم، مأأرى إلا أنه عهد عظيم، وقد آن لك أنت تطلعني عليه، ولتعلم قبل كل شيء أنني ما كنت بالذي يخفر لك ذمّة، أو ينقض لك عهداً، أو يخلف وعداً يا أبا أنس".

قال: "ماشككتُ لحظةً واحدة في خصالك هذه، ومن أجل ذلك أريدك أن تعاهدني على أن تكتب دراسة وافية عن شعري إذا لقيت وجه ربي قبلك، وأنا أعاهدك بدوري على أن أفعل مثل ذلك إذا قضيت قبلي -لاسمح الله-"

قلت وقد أحسست بقلبي يغوص بين ركبتي: "ويحك يارجل، إن هذا الأمر لايحتاج إلى عهود ووعود، إذ ليس يخامرني شك في أنك ستتصدى لدراسة شعري إن أنا فارقت هذه الدنيا قبلك، وأنني سأنهض بمثل ذلك إن لحقت بمن سبقك من الشعراء قبلي."

قال: "قد يكسر الحزن قلب من يبقى منا بعد صاحبه، وقد يلجم الأسى لسانه، ويشلّ تفكيره فلا يفعل. ومن أجل ذلك أريدك أن تعاهدني حتى أطمئن إلى وفائك لأنني لا أجد بين أصدقائي من الشعراء والنقاد من يفهمني ويفهم شعري مثلك".

قلت: "أعاهدك على ذلك على الرغم من أنك قد عكّرت صفو ليلتنا هذه بذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات".

قال: "وأنا أعاهدك على مثل ماعاهدتني... الحمد لله.. الآن قد اطمأنت نفسي".

ووقف الحوار حول هذا الموضوع عند هذا الحد، ثم رحنا نخوض في أحاديث شتّى لم تستطع على تنوعها وطرافة معظمها أن تبدد سحابة الكآبة التي ظللتنا نتيجةَ لذلك الحوار المضمّخ برائحة الموت.

وينتقل علي دمر إلى جوار ربه، وأبدأ بالتخطيط لتنفيذ ماعاهدته عليه.

وكان أول مافعلت هو أنني بادرت بإرسال رسائل تعزية إلى نجليه الكبيرين أنس وهاني. وقد طلبت إليهما في تلك الرسائل أن يوافياني بكل مالديهما من آثار فقيدنا العزيز، وأن يرسلا بنسخ مصورة لما يمكن أن يكون في حوزتهما من آثاره المخطوطة، أو آثاره التي نفدت بعد نشرها لتخرج الدراسة عن تراثه الشعري شاملة متكاملة.

وقد بعثت برسالة إلى صديق الشاعر الأستاذ مهدي الجندي أناشده فيها أن يتعاون مع نجلي الفقيد، وكان عليٌّ -رحمه الله -قد حدثني كثيراً عن صلته الحميمة بالأستاذ مهدي. وقد تلقيت ردوداً على رسائلي من ثلاثتهم مشفوعة بصورة لديوان رعشات وبنسخة من ديوان "شعب الله المختار" الذي يحتوي على أربع وثمانين رباعية صاغها الشاعر كلها في اليهود وأساليبهم في السيطرة على العالم وفيما يتصفون به من خبث ودهاء وعنصرية ونذالة، وبديوان "رسائل محرجة إلى نزار قباني". وكنت أحتفظ من قبل ذلك بأربعة من دواوين الشاعر القديمة هي: ديوان "حنين الليالي"، وديوان "المجهولة"، وديوان "غيبوبة الحب"، وديوان "إشراق الغروب". وهكذا تجمع لدي من آثاره الشعرية سبعة دواوين تحتوي على مائة وخمس وخمسين قصيدة وأربع وثمانين رباعية وخمس وثلاثين مقطوعة شعرية أسماها صاحبها أهازيج.

وقد أشار عليٌّ كل من أنس وهاني ومهدي أن أكتب إلى كريمة الشاعر السيدة قمر المتزوجة من الأستاذ سالم المُريّ في المملكة العربية السعودية لأنها -كما ذكروا لي- تحتفظ بكثير من آثار والدها الشعرية التي أبدعها في أعوامه الأخيرة؛ ففعلت. ولكني لم أتلق منها أو من زوجها أيّ رد.

ويبدو أن أنجال الشاعر لم يتمكنوا من العثور على نسخة من ديوان "عواصف على هضاب فلسطين" ولذلك فإنهم لم يرسلوا إليّ بنسخةٍ مصورة منه. وهو على أي حال مجموعة شعرية صغيرة تشتمل على بضع عشرة قصيدة استوحاها الشاعر من مأساة فلسطين، وكنت قد قرأتها منذ بداية علاقتي بالشاعر في مدينة القاهرة.

وقد تفضل هاني -جزاه الله عني وعن والده أفضل الجزاء- بإرسال شريطين مسجلين يشتملان على الكلمات والقصائد التي ألقيت في حفل التأبين الذي أقيم للشاعر في 1985/5/14 في المركز الثقافي العربي في حماة بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته.

وقد كان لهذه الكلمات وتلك القصائد فضلٌ كبير في إلقاء الضوء على حياة الشاعر وشعره.

وقد ذكر لي هاني في رسالته أن النادي الأدبي في جدة كان قد تبنّى طباعة ديوان لوالده عنوانه "في وادي الأحزان والغربة" وأنه قد عهد إلى الأستاذ ياسر الفتوي بالإشراف على طباعته ومتابعة خطوات إصداره.

وقد بادرت بإرسال رسالة إلى الأستاذ ياسر، ولكن حظّي معه لم يكن بأفضل منه مع الذين كتبت إليهم قبله؛ حيث أنني لم أتلق منه أي رد حتى عام 1990 وهو عام خروجنا من الكويت.

لا أريد أن أنحو باللائمة على الذين لم يجيبوا على رسائلي لسببين:

الأول: إيماني بأن حب هؤلاء للشاعر لايقل عن حبي له.

والثاني: احتمال أن يكون لديهم من الأعذار مادفعهم إلى إغفال الرد على رسائلي، أو لعل رسائلي لم تصل إليهم فيكون في توجيه اللوم إليهم لون من التجني الذي لايليق، وقديماً قال الشاعر:

لعلّ له عذراً وأنتَ تلوم.

لقد بذلت ماستطعت من جهد في سبيل الحصول علي جميع آثار علي الشعرية، وليس لي ذنب أو جريرة في أنّ جهودي تلك لم تصل إلى ما أملته لها من نجاح.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن في استطاعتي أن أزعم أن ماتجمّع لدي من تراث صديق العمر المرحوم علي دمّر في مجال الشعر كافٍ للحكم على شاعريته ولتقديمه إلى أبناء هذا الجيل شاعراً مبدعاً له بين شعراء جيله مكانة مرموقة لاينكرها عليه إلا متجنٍّ أو مكابر.

يبقى سؤال لابدّ أنه يتبادر إلى الأذهان وهو: لماذا تأخر إنجاز هذه الدراسة إلى هذا الحد؟!

والحقيقة أن لذلك أسباباً تتمثل في الانشغال بأعباء العمل الروتينيّ، وفي إحساسنا بعدم الاستقرار منذ خروجنا القسريّ من الكويت وحتى عام 1995، ففي خلال هذه السنوات العشر التي أعقبت وفاة صديقي رحمه الله سافرت إلى الولايات المتحدة مرتين، وإلى مصر أكثر من عشرين مرة. وانشغلت بالإعداد لزواج ولدي زياد واثنتين من بناتي، ثم حدث زلزال الخليج الذي أعادنا إلى الأردن محاولين التأقلم من جديد مع بيئة فارقناها أكثر من ربع قرن.

وقد امتحنني الله بوفاة اثنتين من شقيقاتي في يوم واحد عام 1993 وبوفاة شقيقي الأصغر بعدهما فيما لايزيد عن عامين.

وقد أمضيت عاماً كاملاً في الإشراف على تشييد منزل لنا في عمان، وارتبطت بعد عودتي من الكويت وحتى نهاية عام 1994 بالعمل في التدريس في الكلية الوطنية في عمان. وقد أعادني العمل في التدريس إلى الدوران في دوامة العمل الروتيني مُعطّل المواهب، ومغلّ العقل واليدين عن الإبداع.

وقد عكفت في خلال هذه الفترة على كتابة سيرتي الذاتية التي استغرقت كتابتها ثمانية أعوام.

وإذا أضفنا إلى ذلك كله عدم الإحساس بالاستقرار النفسيّ نتيجةً للتفكير المستمر في أحوال الأسرة وأبنائها الموزعين بين الأردن والكويت ومصر والولايات المتحدة وكندا وجدنا أن التأخرّ في إنجاز هذه الدراسة له مايبرره من الأعذار.

□ □

المقدمة

صداقة عُمرٍ

في الخامس عشر من كانون الثاني -يناير- 1952، وفي أعقاب أصبوحة شعرية أقيمت في مدرج العقاد بكلية اللغة العربية برعاية الأستاذ الشاعر الدكتور حسن جاد، وشارك فيها عدد من الطلبة الشعراء في الكلية تعرّفتُ إلى الطالب السوري الحمويّ الشاعر علي دمر.

كان عليٌّ صاحب المبادرة في التعرف إليّ، حيث أقبل -بعد أن فرغتُ من إلقاء قصيدتي- معرباً عن إعجابه بها وبجودة إلقائي لأبياتها. وقد شكرت له تلك المبادرة، وبادلته التهنئة، وأعربت له عن سروري بالتعرف إليه، وعن إعجابي بقصيدته التي فاقت في جودتها جميع ماألقي في تلك الأصبوحة من قصائد.

منذ ذلك الحين توثقت العلاقة بيني وبين علي وصار كلٌّ منا لايرى إلا مع صاحبه. لقد شكّلت مع عليٍّ ثنائياً كان مثار حديث الزملاء وإعجابهم.

وكانت الشاعرية بالإضافة إلى كثير من ألوان التوافق في المشارب والأفكار والهوايات من الأمور التي عملت على تمتين عُرى الصداقة بيننا. ولعل الفقر الذي كان يطحن كلاً منا بكلكله كان من أهم العوامل التي ألّفت بيننا.

لم تمضِ بضعة أيام على تلك الأصبوحة الشعرية حتى دعاني عليّ إلى تناول طعام الغداء في منزله بسوق السلاح في حيّ الغورية، فقد كان -رحمه الله وعلى الرغم من ضيق ذات اليد- كريماً نديّ الكف، لايمقت من الصفات التي تعيب الرجال أكثر من البخل.

وفي طريقنا إلى منزله أعلمني بأنه متزوج من ابنة عم له، وحدّثني عن يتمه المبكر، وطفولته البائسة، وعن ولده البكر كهلان الذي قضى وهو مايزال برعماً يتفتّح، وعن ولده الثاني أنس الذي منّ الله به عليه عوضاً عن أخيه كهلان، وعن حبه لوطنه ومسقط رأسه، وعن هيامه بعاصي حماة ونواعيرها

وحُوْرِها وحَوْرِها وصفصافها، وعن شوقه إلى رفاق صباه من شعراء حماة وأدبائها اللامعين.

وقد قال عليّ فيما قال إن علي دمر هو اسم الشهرة الذي يعرف به ويوقّع به أعماله الأدبية؛ وإن اسمه الحقيقي هو محمد عالي حمراء دُمّر.

وقد حدثت علياً بدوري عن حياتي الخاصة، وحياة أسرتنا ومامرّت به من ظروف وتقلبات قبل النكبة وبعدها. وهكذا لم تكد تمضي بضعة أسابيع حتى أصبح كلٌّ منا بالنسبة إلى صاحبه أشبه مايكون بكتاب مقروء خطّه مؤلفه بأسلوب سهل ممتنع لا يستعصي منه شيء على مَنْ يطالعه.

أحببت علياً حباً صادقاً لم أحسّ بمثله نحو أيّ صديق آخر أحببته من قبل عليّ أو بعده، وأحسب أن علياً قد أحبني مثلما أحببته، وأصفى لي الود كما أصفيته له. وقد وصل بنا الأمر أن أحدنا لم يعد قادراً على مفارقة صاحبه، وصار كل منا يطلق على الآخر لقب "صديق العمر".

كنت أرتاد مع عليّ الأمسيات الشعرية والندوات الأدبية والعلمية والسياسية والمحاضرات المتنوعة التي تقام في جامعات القاهرة ومنتدياتها وروابطها ونواديها وجمعياتها.

وقد رأيت -كما رأى عليّ- أن من غير المعقول أن نظل متباعدين سكناً بعد أن ائتلفت روحانا إلى هذا الحد فاقترحت عليه أن ينتقل بأسرته للعيش في ضاحية الزيتون التي كنت أقطن فيها برفقة شقيقي غالب الذي كان مايزال في المرحلة الثانوية. وكانت الزيتون آنذاك ضاحيةً جميلة هادئة من ضواحي القاهرة الشمالية، والسكن فيها يوفّر للطالب جواً يفضل بكثير مايوفّره له سوق السلاح وسواه من أحياء مصر القديمة ذات العبق التاريخي والتي تشعر قاطنيها بأنهم لايزالون يعيشون في القرون الوسطى.

استجاب عليّ لذلك فاستأجر غرفةً ملاصقة للغرفة التي كنت أعيش فيها مع شقيقي في الدور الثاني من أحد المنازل بحارة حنفي. وكان أمام الغرفتين ساحةٌ واسعة يشكلها سقف الدور الأول مما يوفر لنا مكاناً ملائماً للمذاكرة والمطالعة.

أصبحت وعلياً جارين لايفترق أحدنا عن الآخر إلاّ في ساعات النوم والقيلولة. كنا نقرأ معاً مختارات البارودي والمفضليّات والنقائض والمعلقات وديوان الحماسة وغير ذلك من عيون قديم الشعر وحديثه. وعندما كان يدنو موعد الامتحانات كنا نعطي أنفسنا إجازة من مطالعة الشعر، ونروضها بصعوبة

على مجانبته مؤقتاً، ونقبل بهمّة عالية على الاستعداد للامتحانات. وعندما كان يراودنا شيء من التهاون الذي يعتري النفس البشرية كنا نسارع إلى تذكر مانحن فيه من شظف العيش، وخشونة الحياة، وما نتطلع إليه من الرّغد والبلهنية والنعيم فيشدّ ذلك من عزمنا، ويدفعنا إلى بذل المزيد من الجد والاجتهاد، ويحفزنا إلى الإقبال بنهم على ينابيع العلم والمعرفة كي نحقق لأنفسنا حياةً أفضل.

وقد فرضت علينا رقّة أحوالنا ألاّ نسافر إلى بلادنا في العطل الصيفية الطويلة، كما يسافر غيرنا من الطلاب الميسورين، وكان لنا في ذلك خيرٌ كثير. فقد هيأ لنا بقاؤنا في القاهرة فرصاً ذهبية أقبلنا فيها على إشباع نهمنا للقراءة وشهود الأمسيات والندوات والمحاضرات، والتعرف إلى عدد كبير من شعراء مصر وأدبائها، وممن كان ينزل في مصر من شعراء الوطن العربي وأدبائه وسياسيّيه ممن كانت تغصّ بهم الساحة المصرية آنذاك.

وكان ممن تعرفنا إليهم من شعراء مصر وأدبائها الأساتذة صلاح عبد الصبور، وكمال نشأت، وكامل أمين، ومحمد فوزي العنتيل، وسعد دعبيس، ونجيب سرور، وكيلاني سند، وحسن الصيرفي، وحسن فتح الباب، وأبو السعود الجهني، وعبد الله أبو عيد، وأحمد الشرباصي، وكامل السوافيري، ومصطفى السحرتي، ومحمد ناجي وسواهم.

وعرفنا من شعراء السودان محمد الفيتوري، ومحيي الدين فارس، وتاج السر الحسن، وجيلي عبد الرحمن، وغيرهم.

ومن لبنان عرفنا شاعره الكبير المرحوم محمد علي الحوماني. ومن العربية السعودية عرفنا إبراهيم هاشم الفلالي، وعبد الله عبد الجبار، ومحمد سعيد العامودي.

وكانت القاهرة في ذلك الحين موئلاً للأحرار الفارين من الاستعمار وعملائه الذين كانوا ولايزالون يضيقون بالرأي الآخر. وقد عرفنا من هؤلاء الشيخ البشير الإبراهيمي، وعلال الفاسي، وعبد الله التل وسواهم.

في الخامس من أكتوبر عام 1953 عاد أخي غالب إلى القدس بعد أن أنهى المرحلة الثانوية من تعليمه، وبقيت وحدي في القاهرة أعاني من الوحدة التي لم يخفف من وطأتها عليّ سوى وجود علي دمر بجواري.

كنت أولّي وجهي شطر الكلية مع عليّ، وأعود إلى البيت منها برفقته. وكانت الساعات التي نقضيها معاً حافلةً بالمناقشات والمطارحات الشعرية، وإجازة الأبيات التي كنا نستوحيها من الأحداث الطارئة والمواقف العابرة. وكانت روح الفكاهة تغلب على هذا النوع من الأبيات.

وفي الرابع والعشرين من تموز -يوليو- 1955 ظهرت نتيجة امتحان الشهادة العالية لكلية اللغة العربية. وجاء عليّ ليزفّ إليّ بشرى نجاحه ونجاحي في ذلك الامتحان في العاشرة من مساء ذلك اليوم، ولم ننم ليلتها من الفرح.

لقد كنا واثقين من النجاح، فقد بذلنا من الجهد ما أهّلنا لأن نكون في الصدارة بين الناجحين الفائقين. فقد حصلت على المرتبة الثانية بينما حصل عليٌّ على المرتبة الثالثة. وقد علّق عليٌّ على ذلك بقوله: أرأيت يارجا حتى في النجاح أبينا إلا أن نكون متلازمين؟!

وقد أجبته على ذلك بقولي: أرجو أن نظل هكذا متلازمين يا أبا أنس مدى الحياة، وأن يجمعنا الله معاً بعد البعث في عليّين.

لقد عجزت شاعرية كلٌّ منا عن وصف سعادتنا بهذا النجاح الذي كان مؤذناً ببدء مرحلة جديدة من مراحل حياتنا. شيء واحد كان يعكّر صفو فرحتنا تلك.. ولم يكن ذلك الشيء سوى توجّسنا من الفراق الوشيك.

كنا نعلم أن لحظة الفراق آتيةٌ ولاريب، ولكنّا كنا نحاول أن نطرد عن مخيلتنا شبح تلك اللحظة آملين أن نجد من الوسائل مايكفل لنا بقاءنا معاً في بلد واحد.

وتقدمنا معاً إلى البعثة السعودية التي وفدت إلى القاهرة للتعاقد مع من تحتاج إليه وزارة المعارف في المملكة من المدرسين. وتعاقدت البعثة مع عليّ وأحجمت عن التعاقد معي لسبب بسيط جداً وهو أن عليّاً كان يحمل في جعبته بطاقة توصية للشيخ ناصر المنقور -رئيس البعثة- من الملحق الثقافي في السفارة السورية في القاهرة المرحوم الدكتور زكي المحاسني. أما أنا فلم يكن لديّ مثل هذه التوصية.

عدت إلى الأردن، وسافر عليّ وأسرته إلى المملكة العربية السعودية لتبدأ غربته ومعاناته في تلك البلاد.

وبعد سبع سنوات جاءت اللحظة التي قدّر لي فيها أن أتعاقد للعمل في المملكة العربية السعودية، حيث عيّنت في إحدى مدارس الرياض في الوقت الذي كان فيه عليّ في إحدى مدارس مدينة الهفوف.

كانت الرسائل بيني وبين عليّ في السنوات السبع التي افترق فيها كل منا عن الآخر متصلة لاتكاد تنقطع. وكنا نلتقي في بعض العطل الصيفية في مدينة القاهرة لنتذكر معاً أيامنا الخوالي.التي كنا نتمنى رجوعها على الرغم مما ذُقنا فيها من ألوان الفاقة والحرمان.

ولم يكد عليٌّ يسمع بوصولي إلى مدينة الرياض حتى بادر بإرسال قصيدة يدعوني فيها لزيارته في مدينة الهفوف. وقد لبيت الدعوة في عطلة عيد الفطر وأمضيت في ضيافته أسبوعاً كاملاً لا أحلى منه ولا أجمل.

وقد جاء في قصيدة عليّ التي دعاني فيها لزيارته قوله:

أقبلْ إلى منزلي كالموسم العطر

وانزلْ كغيثٍ على الصحراءِ منهمرِ

شوقي إليكَ رجاً لا زال مُشتعلاً

تُذكي لَظاهُ أفانينٌ من الصورِ

قد صَوَّرتْ حقبةً من عُمرِ صُحبتنا

في أرضِ مِصرَ وفي أيّامِها الغُرَرِ

أيّامَ نَلْهو وكأسُ الصفوِ مترعةٌ

ولَيسَ في صفوها شيءٌ منَ الكَدَرِ

للّهِ أيامُها كم كنتُ منشرحاً

ماعُدْتُ من بعدها أرتاحُ في عُمُري

أطفِئْ لظى الشوقِ ياخِلّي بمقدمِكُمْ

كي نستعيدَ ليالي الأُنسِ والسَّمَرِ

وكنت قد أجبته على دعوته بهذه الأبيات:

كَصَيِّبٍ مِنْ هَتُونِ المُزْنِ مُنْهَمِرِ

وافَى المشوقينَ من بدوٍ ومِنْ حَضَرِ

أحيا بِهِ اللهُ مَيْتَ الأرضِ فَانتفضتْ

عَنْ كُلِّ غُضٍّ مِنَ الأزهارِ والثَّمَرِ

أو مثلَ صَبٍّ براهُ الشوقُ عادَ إلى

حبيبِهِ بعدَ طولِ الصدِّ والسَّهَرِ

وافَتْ قصيدَتُكَ العصماءُ مُشْعِلَةً

فيَّ الحنينَ إلى مامَرَّ مِنْ عُمُرِي

ذكرتني يا عليُّ خيرَ ماشَهِدَتْ

عيناي في مصرَ مِنْ لَهْوٍ ومِنْ سَمَرِ

للهِ تلكَ الليالي إذ تطالِعُنا

بكلِّ عَذْبٍ مِنَ الأحلامِ والصُّوَرِ

أيامَ كُنَّا وكانَ الصفوُ ثالِثَنا

"وليسَ في صَفْونا شَيءٌ مِنَ الكَدَرِ"

واليومَ ليسَ سوى الذكرى ولوعتِها

ولفحةِ الحزنِ والتحديقِ في الصُّوَرِ

ألا ترى كيفَ أنا اليومَ في زَمَنٍ

عَنْ كلِّ حُلْمٍ مِنَ الأحلامِ مُنْبَتِرِ

نحيا غريبينِ في بَيْداءَ موحشةٍ

مابَيْنَ قَوْمٍ همو أقسى من الحَجَرِ

لم ألبث طويلاً في السعودية، حيث صدر أمر من سلطات الأمن فيها يقضي بترحيلي عن تلك البلاد خلال ثلاثة أيام دون أن يشيروا إلى الأسباب التي دفعتهم إلى إصدار ذلك القرار الجائر.

اهتبلت الفرصة فقررت التفرغ للحصول على درجة الماجستير. وقد حصلت عليها فعلاً عام 1967. وبعد حصولي على تلك الدرجة تعاقدت للعمل في دولة الكويت، واستمرت المراسلات بيني وبين عليّ.

وكان رحمه الله قد أعرب في رسائله عن تلهّفه للعمل في الكويت، وقد حاولت بدوري أن أحقق له رغبته تلك، ولكن جميع محاولاتي قد ذهبت أدراج الرياح، فقد كان بين حكومتي السعودية والكويت اتفاق غير مكتوب يقضي بعدم استقطاب أيٍّ منهما لأحد من العاملين في التدريس في البلد الآخر.

في نيسان -إبريل- من عام 1985 أصدرتُ ديواني الثاني. وكنت حريصاً على أن يكون علي دمر أول من يقرؤه من الأصدقاء. وكانت رسائل عليّ في السنوات الأخيرة قد بدأت تقل إلى درجة جعلتني غير متأكد من معرفة عنوانه. ولجأت إلى صديقنا المشترك الأستاذ الشاعر منذر الشعار لأستعين به في معرفة عنوان عليّ فوجدته غير واثقٍ مثلي من ذلك.

ولم أجد مندوحةً من إرسال رسالة إلى عليّ على آخر عنوان أعرفه له، وهو عنوانه في بلدة الطرف في الهفوف. ولكن الرسالة لم تعتم أن عادت إليّ وهي تحمل على ظهرها تلك العبارة المشؤومة "المذكور غير موجود في المدرسة".

انقبضت نفسي، وداخلني الروع والفزع، وقلت في نفسي: "خيرٌ إن شاء الله... ماذا جرى لعليّ؟ أين أنت الآن يا أبا أنس؟!" وانطلقت أضرب أخماساً في أسداس حتى كان ذات يوم أعقب عودة رسالتي إلى عليّ بقليل. اتصل بي في ذلك اليوم الصديق منذر الشعار لينقل إليّ خبر انتقال عليّ إلى جوار ربه إثر نوبة قلبيّة داهمته في مساء يوم الاثنين الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة 1405 هـ الموافق للرابع من آذار عام 1985م.

وقد تمّ تشييع جثمانه الطاهر في اليوم نفسه، حيث ووري التراب في بلدة الطرف من أعمال الهفوف الواقعة في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية. وقع الخبر عليّ وقوع الصاعقة، ولم أجد أمامي سوى أن أقول: لاحول ولا قوّة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

إذن فقد توقف قلب الشاعر، ومات الصديق الصدوق والشاعر المبدع، والإنسان المرهف الإحساس، المفعم بالحب والحنان. مات عليّ دون أن يحقق شيئاً من أحلامه الكبيرة، ودون أن يشهد أمته التي طالما نافح عنها وعن أمجادها منتصفةً من أعدائها الذين تكأكؤوا عليها كما تتكأكأ الأكلة على قصعتها.

مات الشاعر المرهف في ديار الغربة، ولم يترك وراءه سوى اثني عشر من البنين والبنات، ومثل هذا العدد أو مايقاربه من الدواوين والمؤلفات. مات علي دمر دون أن يحقق آماله التي لم تكن شخصيّة ذاتية، بقدر ماكانت إنسانيةً عامةً. ولعل خير مايشير إلى هذه الآمال ماصدّر به بعض دواوينه من إهداءات، فهو في باكورة إنتاجه "رعشات" يهدي رعشاته إلى الطموح المجنّح، وفي "حنين الليالي" يهدي ديوانه إلى حنين الليالي للفجر السعيد، وإلى الأرواح الظامئة للجمال، الهائمة في ليالي الشوق والحرمان وللعوالم المضيئة بالسعادة والأمل، وإلى الشعوب الكادحة في هجير العبودية والتعاسة وسعير الأحقاد والحروب، وإلى الحياة في ظلال الحرية والإخاء ونعيم العدالة والسلام.

هذا هو علي دمر الإنسان الشاعر الذي لم تشغله همومه الخاصة، وطموحاته الذاتية، عن هموم الإنسانية وطموحاتها، فراح يتغنى بها ويغني لها منذ أن أبدعت قريحته الفذّة أول قصيدة وإلى أن لقي وجه ربه وهو يشمخ بقامته بين الكبار من الشعراء الذين عاصروه.

****

الفصل الأول

حياة الشاعر

مولده:

ولد محمد عالي حمراء دمر، وهذا هو الاسم الحقيقي لشاعرنا عليّ دمر في سوق الحاضر بحماة في أسرةٍ حرفيّة متواضعة في نهاية الربع الأول من القرن العشرين. ونشأ في فقر زاد من حدّته اليتم المبكر حيث مات أبوه أولاً ثم لم يعتّم أن لحقت به أمّه وتركته وإخوته يتجرعون مرارة اليتم والفقر والحرمان.

وقد سألته يوماً عن تاريخ ميلاده الدقيق فلم يستطع -رحمه الله- أن يحدده، بل رجّح أن يكون مولده في أحد الأعوام الواقعة مابين عام 1925 وعام 1928، وكان يميل إلى أن عام 1925 هو تاريخ مولده الذي يرجح سواه من التواريخ.

بيئته الأولى:

نشأ علي في رياض العاصي، وتفتحت عيناه على مجاليها البديعة، واكتحلت بمرود جمالها، وسكبت نواعيرها في مسمعيه ألحانها الخالدة، ولقّنته عنادلها أحلى المناغاة وعلمته الانطلاق في أجواء الحرية والنور والجمال. غير أن الأقدار لم تتلطف بهذه الموهبة الغضّة وتلك النفس الشاعرية المرهفة فإذا بها تذيقها منذ الصغر مرارة اليتم وشقاء الحرمان وبؤس الفاقة، مما جعل تلك الموهبة موزعةً بين مايأسرها من مفاتن الطبيعة ومواطن الجمال، ومايطحنها من حياة البؤس وشظف العيش. وهكذا فإنه ليس من المستغرب أن يستغرق حب

الجمال والافتتان به والشكوى من الحرمان معظم تجارب الشاعر علي دمر.

بيئته الثانية:

كأني بالأقدار لم تكتفِ بما امتحنت به الشاعر من ألوان البؤس والشقاء، فقد أضافت إلى ذلك عاملاً آخر حين طوّحت به بعيداً عن عشه الذي درج فيه، ووطنه الذي قضى فيه زهرة صباه، ولكن هذه الغربة التي تنقسم إلى مرحلتين: مرحلة طلب العلم في القاهرة، ومرحلة طلب الرزق في السعودية، لم تزد علياً إلا حباً في وطنه وتعلقاً به.

وليس أدل على ذلك من أنه عمل من أجل العودة إلى وطنه والاستقرار فيه، كي يضع حداً لتلك الغربة، حيث عاد إليه عام 1970 وحصل على الثانوية العامة التي كان حصوله عليها شرطاً للعمل في ملاك وزارة التربية والتعليم السورية، وهو مَنْ هو علماً وأدباً وشاعرية! غير أنه لا مناص من الاعتراف بأنّ هذه الغربة هي التي أرهفت إحساسه، وأنضجت موهبته، وصقلت شاعريته، وسمت بعواطفه إلى آفاق ماكانت لتسمو إليها لو أنه ظل رهينا لرياض العاصي ومغاني حماة.

يقول الشاعر رضا رجب في كلمته التي ألقاها في حفل التأبين الذي أقيم للشاعر بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته: "الشعر بحد ذاته مأساة وغربة، والشاعر غريب دائماً، وفي شخص الشاعر الكبير المرحوم علي دمر اتحد الشاعر المطلق غريباً بالشاعر الذي عاش غريباً ومات في ديار الغربة".

مراحل تعليم الشاعر: في جامع العز الذي يشاهد ماثلاً على الطرف الجنوبي الغربي من جسر الأسد في حيّ باب الجسر بحماه، كان لجمعية أعمال البر الإسلامية التي كان يشرف عليها الشيخ سعيد النعسان قاضي حماة الأسبق مدرسة تُدعى "مدرسة أبي الفداء الأهلية" وهي مدرسة يرتادها أبناء ذلك الحي الثاني وماحوله من الأحياء الفقيرة المحرومة من الخدمات التعليمية.

في هذه المدرسة بدأ علي دمر يتلقى تعليمه الابتدائي بعد أن أشار الشيخ سعيد النعسان على عمه بإلحاقه بها.

تعلم عليٌّ القرآن على يد الشيخ عبد الرزاق الياسين الذي كان يُعنى عنايةً فائقةً بحسن اللفظ، وأحكام التلاوة. ولما تُوفي هذا الشيخ عام 1938 خلفه الشيخ صالح الكرو الذي كان معجباً بصوت التلميذ الصغير عليّ، فكان يكلّفه ترتيل

آيات لقّنه إياها من آخر سورة الفتح كل يوم خميس على زملائه.

وفي آخر كل عام دراسي كانت المدرسة تقيم حفل تكريم للناجحين تدعو إليه رجال الحيّ وأولياء أمور التلاميذ. وكان يشرف على هذا اللون من النشاط المعلم سليمان المصري الذي اكتشف في علي القدرة على التمثيل مما جعله يسند إليه دور عمر بن الخطاب، وهو الدور الرئيس في المسرحية التي قدمها التلاميذ عام 1939م، وقد برزت هذه الموهبة وموهبة إلقاء الشعر لدى عليّ وهو لم يتعدّ الثانية عشرة من عمره. وأذكر أن حبه للتمثيل قد ظل ملازماً له حتى المرحلة الجامعية حيث شاهدته وهو يؤدي دوراً كوميدياً رئيساً في إحدى المسرحيات التي قدمها طلاب فريق التمثيل في كلية اللغة العربية، عام 1953 في قاعة الأزهر الكبرى للمحاضرات.

وكان عليّ يكره اللغة الفرنسية، ويمقت معلمها أشدّ المقت، وينفر منه ومن دروسه التي كان يتعمّد التغيب عن معظمها. وقبل أن يكمل عليّ تعليمه في هذه المدرسة التحق بالمدرسة المحمدية الشرعية في حماه، وكانت قد افتتحت حديثاً. وفي هذه المدرسة برزت البوادر الشعرية الأولى لدى عليّ. وكان الشعر عنده في هذه البداية نوعاً من اللعب. وليس ذلك بالأمر المستغرب أو المستهجن فقد أثبت علماء التربية أن كل إبداع فنيّ إنما يجد بذوره الأولى في اللعب العفوي المبكّر لدى الصغار.

وما أن بلغ عليّ الصف الخامس الابتدائي حتى بدأ ينظم مقطوعات صغيرة يتلوها على رفاقه، ويداعب بها بعضهم أحياناً. وكان الامتحان الشفوي في تلك المدرسة يجري أمام لجنة من الضيوف المميّزين، وكلهم من أعلام المدينة في الأدب والعلم، ومن أصحاب العمائم والطرابيش.

وحين جاء دور عليّ ذكر الشيخ المرحوم محمود الشقفة للحاضرين أن الفتى عليّ يقرض الشعر. وكان بينهم شاعر حماة الكبير المرحوم بدر الدين الحامد فاستنشده.

ومكث عليّ بين أيديهم فترة غير قصيرة وهو ينشدهم من شعره. وقد أعجب به بدر الدين الحامد -رحمه الله- فغمره بعطفه ورعايته وتوجيهه، وهنّأه على موهبته. وحين أصدر عليٌّ مجموعته الشعرية الأولى "رعشات" قدّم لها بدر الدين بقوله:

"ياعليّ؛ قرأت في وجهك آية الشعر، وسمعت من صوتك نغمة الفن، وكنت

كلما مرّت الأيام أتتبّع ماتفيض به قريحتك فأقرأ وأطرب وأعجب وأقول لمن يسألني عنك: إن هذا الفتى شاعرٌ موهوب.

أنت هزار على فنن مورق في حديقةٍ وارفة الظلال، فغرّد ولك من الجمال والجلال والمجد والعظمةُ والبسمةِ والدمعة ألحانٌ تملأ جوّ الحياة شعراً وفناً.

إنك في أول الطريق فسر قدماً، وأرجو أن تبلغ في الشعر ذروة المجد وأنت الراشد الموفّق".

وقد أحبّ بعض الضيوف أن يختبر مهارة الفتى في النظم فطلب إليه أن ينظم على الفور أبياتاً في وصف امتحان الشهادة الابتدائية، فانحنى عليٌّ جانباً ثم عاد بعد قليل وفي يده أبيات مطلعها:

إن شئت أن ترنو ليوم المحشر

فادخل فحوص السبت هيّا وانظر

حشدٌ من الطلاب صفّاباً له

في البهو طول تفاخُر وتبختر

فأعجب الضيوف بسرعة بديهته وسلامة نظمه ولغته.

وفي المدرسة المحمدية اكتشف الشيخ محمود الشقفة موهبة الصوت الجميل عند عليّ، فنصحه أن يشارك في إنشاد المدائح النبوية في حلقات الذكر.

ولم يلبث عليّ أن غادر المدرسة المحمديّة إلى مدرسة المقاصد الإسلامية في بيروت، ثم إلى الكلية الشرعية الثانوية في دمشق، ثم إلى كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر في القاهرة حيث تعرفتُ إليه، وتوطّدت أركان العلاقة بيني وبينه. وفي شهر يوليو -تموز- من عام 1955م تخرج عليٌّ في كلية اللغة العربية ليبدأ رحلته مع الغربة التي لم يستطع التخلص من أغلالها إلا بعد أن لقي وجه ربه عام 1985م. لقد حرمه القدر من أن يدفن في تراب وطنه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

عمله:

لم يعمل رحمه الله في غير مجال التدريس، فقد قضى حياته العملية معلماً يربي الأجيال ويغرس في نفوس أبنائها حُبّ اللغة العربية، ومآثر أمته ومثلها وآدابها، وما آمن به من مبادئ سامية ومثل عالية. وكانت بداياته مع مهنة

المتاعب هذه بعد أن أنهى السنة الثالثة في الكلية الشرعية الثانوية في دمشق، حيث غادر تلك المدرسة بعد أن اكتشف أن شهادتها غير معادلة لشهادة الثانوية العامة، وافتتح مدرسة خاصة في قرية "أورم الجوز" من أعمال أريحا، وظل يعمل فيها ثلاثة أعوام كاملة التحق بعدها بكلية اللغة العربية عملاً بنصيحة صديقه الأستاذ سليم بركات.

وبعد تخرجه في كلية اللغة العربية عام 1955 تعاقد للعمل في المملكة العربية السعودية، ومكث فيها خمسة عشر عاماً دراسياً متصلاً بدا له بعدها أن يعود إلى سوريا ليستقر فيها بقية حياته. ولكي يضع هذه الفكرة موضع التنفيذ حصل على الثانوية العامة السورية وعيّن معلماً في ثانوية السُّقيلبية قرب حماة. ومكث في سوريا أربعة أعوام دراسية متتابعة اضطر بعدها إلى العودة من جديد إلى المملكة العربية السعودية لأن دخله من عمله في بلاده لم يعد كافياً للوفاء بمتطلبات نفقات أسرته التي كان عدد أفرادها ينمو باضطراد. وقد أمضى بعد عودته إلى السعودية أحد عشر عاماً دراسياً متواصلاً انتهت بانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وهكذا يتبين لنا أنه قد سلخ من حياته -يرحمه الله- ثلاثاً وثلاثين سنة وهو يعمل في مجال التدريس، جزاه الله عن لغة الضاد وأبنائها أفضل الجزاء.

صفاته:

كان رحمه الله أبيض البشرة ذا عينين عسليتين مستدير الوجه، جميل القسمات، صبوحاً مشرق الطلعة، يواجه مَنْ يقابله بابتسامة لاتكاد تفارق شفتيه. أما شعره فناعم مسترسل أسود، مشربٌ بشيءٍ من الحمرة الخفيفة.

وقد حباه الله بجسم ممتلئٍ وقامةٍ هي إلى القصر أدنى منها إلى الطول، وأما صوته فجهوريّ ساحرٌ مفعمٌ بمعاني الرجولة والكبرياء يُمكنه من الاستحواذ على إعجاب الجمهور الذي يلقى عليه قصائده في الندوات والمناسبات.

وكان يتّسم بالطفولة والبراءة وخفة الظل وحبه للدعابة والفكاهة.

وفاته:

كانت وفاته -رحمه الله- كما أسلفت في المقدمة في مساء يوم الاثنين الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة 1405هـ الموافق للرابع من آذار سنة

1985م. وكان وزنه رحمه الله قد ازداد زيادةً ملحوظةً حتى بلغ سنة 1398هـ/ 1978م مائة وثلاثة من الكيلوغرامات، وقد اضطره ذلك إلى أن يأخذ نفسه بحميةٍ شديدة ونظام غذائي قاسٍ بلغ من شدته أنه لم يكن يدخل إلى جوفه غير الماء أياماً تتراوح بين الثلاثة والخمسة كما ذكر لي في بعض رسائله.

واستطاع الشاعر ذو الإرادة الحديدية أن ينقص وزنه إلى أن أصبح ثمانين كيلوغراماً هي بالمقاييس الطبية لاتتناسب مع طوله الذي يقضي الطب بألا يزيد وزنه عن سبعين كيلوغراماً في أسوأ الأحوال.

وفي تصوري أن هذا الأسلوب من الأساليب التي تعامل فيها عليّ مع نفسه كان بداية لمتاعبه الصحيّة التي جعلته يحسُّ في الشهر الأخير الذي سبق وفاته بنقصٍ في التروية في أطرافه اليسرى الأمر الذي كان يشير إلى وجود متاعب قلبية يخشى معها أن يصاب الشاعر بشلل نصفيّ. وفي مساء اليوم الذي توفي فيه نقله نجله مؤنس إلى أقرب مستشفى في بلدة الطرف بعد أن داهمته نوبة قلبية مفاجئة. ولكن إرادة الله قد اقتضت أن تصعد روحه الطاهرة إلى بارئها قبل أن يصل به ولده إلى المستشفى.

رحم الله عليّاً شهيد الغربة، وأسكنه فسيح جنانه، مع الأنبياء والصديقين والشهداء، والمؤمنين، وحسن أولئك رفيقاً.

آثاره:

استأثر الشعر باهتمام عليّ أكثر من غيره من الأجناس الأدبية. فقد نذر حياته للشعر مبدعاً ومعنيّاً بدراسة عروضه وموسيقاه وقوافيه، مناقحاً عن مكانته بين الفنون، متصدياً للذين حاولوا تشويه وجهه العربي بدعوى الحداثة والتجديد.

وقد أصدر خلال حياته ثمانية دواوين هي على التوالي:

1-رعشات وقد صدر عام 1946.

2-عواصف على هضاب فلسطين عام 1948.

3-حنين الليالي عام 1954.

4-المجهولة عام 1959.

5-غيبوبة الحب عام 1968.

6-إشراق الغروب عام 1978.

7-رسائل محرجة إلى نزار قباني عام 1981.

8-شعب الله المختار -وقد أغفل الشاعر ذكر تاريخ صدوره.

أما آثاره النثرية فقد ذكر لي في إحدى رسائله وفي الصفحة الحادية والستين من ديوان "شعب الله المختار" أن لديه من الآثار النثرية مايلي:

1-مناقشات ودراسات في العروض والشعر الحديث.

2-مصفاة الشعر. وهو موسوعة في علم العروض وموسيقا الشعر وأوزانه وقوافيه.

3-ملامح عمري -وهو عبارة عن مقدمة نثرية لديوانه المخطوط في خمس وستين صحفة تحوي خلاصة لقصة حياته.

وقد ذكر لي في آخر رسالة بعث بها إليّ أنه قد عكف منذ عام 1975 على تدوين شعره وتبويبه تحت عنوان "علي دمر -حياته وشعره" وأنه قد قسّمه إلى خمسة عشر باباً على النحو التالي:

الباب الأول: ملامح عمري- وهي قصة حياته كما أسلفت.

الباب الثاني: وادي الأحزان. ويتألف من إحدى وعشرين قصيدة من وحي حياته الخاصة وآلامها.

الباب الثالث: غربتي، ويحتوي على ست عشرة قصيدة من وحي عذاب الغربة.

الباب الرابع: جحيم الحب. ويشتمل على أربع وأربعين قصيدة تصور قصة حب عنيف من طرف واحد عاشها الشاعر في مطلع شبابه.

الباب الخامس: شباك فاشلة. ويضم إحدى وعشرين قصيدة في عدد من الملهمات.

الباب السادس: غيبوبة الحب. وفيه سبع عشرة قصيدة من وحي معلمة فلسطينية علقها الشاعر في أثناء وجوده بمدينة الهفوف.

الباب السابع: الحب والطبيعة، ويتألف من عشر قصائد من الغزل الممتزج بالطبيعة.

الباب الثامن: الحب والأسرة: ويتكون من ست قصائد صور فيها عليّ حبّه لزوجته وأبنائه.

الباب التاسع: غناء الفكر. ويجمع بين دفتيه ثلاثاً وعشرين قصيدة في التأمل والفلسفة والحب الإلهي والاجتماع. وماوراء الطبيعة من موضوعات ميتافيزيقيّة.

الباب العاشر: ترنيمات سياسية. وقد سجّل الشاعر منها تحت هذا الباب حتى وصول رسالته إليّ ثلاثاً وعشرين قصيدة.

الباب الحادي عشر: نوح المعذبين. ويضم اثنتي عشرة قصيدة.

الباب الثاني عشر: أغنيات إلى أمتي. ويتألف هذا الباب من عدد كبير من القصائد لم يحدده الشاعر في رسالته.

الباب الثالث عشر: مع إخواني الشعراء. وهو مجموعة من القصائد المتبادلة بين عليّ وبين عدد كبير من إخوانه الشعراء.

الباب الرابع عشر: نقد الشعر. وهو عدد من القصائد التي صاغها الشاعر في نقد الشعر والشعراء والنقاد.

الباب الخامس عشر: كوخي. ويضم هذا الباب مانظمه الشاعر من وحي عزلته التي كان يزمع فرضها على نفسه في كوخ الشعر، بمزرعته الخاصة في حماة بعد أن يتقاعد، ويتفرغ للشعر والأدب.

أما رباعياته فقد بلغت مائتين وتسعين رباعية نشر منها في ديوانه "شعب الله المختار" أربعاً وثمانين صوَّر فيها خسّة اليهود ومروقهم.

وإذا أجرينا عمليةً حسابيةً بسيطةً نجد أن الشاعر قد فرغ من تدوين مائتين وثلاثين من القصائد، عدا تلك التي لم يحدد عددها والتي تشتمل عليها الأبواب الأربعة الأخيرة من ديوانه المخطوط.

وقد تجمّع لديّ من ذلك -كما أسلفت- مائة وخمس وخمسون قصيدة، وأربع وثمانون رباعية، وخمس وثلاثون مقطوعة أحسب أنها كافية لتقديم شاعرنا إلى القراء.

****

الفصل الثاني

الشعر في شعر علي دُمّر

الشعر -كفن- يشكّل في حد ذاته موضوعاً استأثر باهتمام شاعرنا علي دمر. ومن أجل ذلك نجد أنه عندما طلع على الناس بديوانه الأول "رعشات" قد قدّم نفسه إليهم على أنه ليس أكثر من فرخ هزار يتغنى على فنن في روضة من رياض حماة. وعلى الرغم من أن ألحان هذا الهزار مازالت في بداياتها وأنها لم تبلغ بعد مابلغته ألحان الهزار الكبير المتمرّس، فإن النسيم الهيمان في الروض قد ردد شدوه، والعصافير المزقزقة قد توقفت عن زقزقتها لتصغي بكل وقار إلى غنائه، وأنّ مياه النهر قد تمنت أن تتجمّد حتى ترتوي من ألحانه.[1]

إن فرخ الهزارِ في الدوحِ يَشْدو

هل سمعتمْ ألحان فرخِ الهزارِ

النسيمُ اليهمانُ في الروضِ أضحى

يَتَغَنّى بشدوه وهو ساري

والعصافير زقزقت ثم لمّا

سمعته أصغت بكل وقارِ

---

[1] ص5 رعشات

واشتهى النهر لو تجمّد حتى

يتروّى من لحنه وهو جارِ

فالشاعر كما يتراءى لنا من هذه الأبيات مدلٌّ بشاعريته وبما يصدر عنها من ألحان تبشر الناس بمولد شاعر لن يلبث أن يملأ الآفاق بشعره العذب، وألحانه التي تأسر القلوب.

لقد أدرك عليّ منذ نعومة أظفاره أن الموهبة الشعرية نعمةٌ لايمنحها الله إلا إلى فئة قليلة مختارة من خلقه تجعلهم في مقدمة الصفوة التي يتكفل التاريخ بحفظ أخبارها وذكرها بين الناس على مر العصور.

وهو محق في أن يدلّ بموهبته، وأن يباهي بهذه المنحة الإلهية التي ينبغي أن يوظفها في سبيل الحب والخير والجمال وغير ذلك من القيم والمبادئ التي درجت الإنسانية على تقديسها وتبجيل من ينافح عنها ويدعو إليها. وقد نذر عليٌّ نفسه وشعره منذ البداية للدفاع عن المعذبين والمحرومين ومحاربة المفسدين في الأرض الذين أباحوا لأنفسهم استعباد العباد واستباحة البلاد.

وفي قصيدته "شاعر" يرسم لنا علي صورة رومانسية لشاعر مُعَذَّبٍ ساح مغتربا تائهاً في الأرض يحمل شحوب لونه وبؤسه محتسياً مرارة كأس شقائه لأنه لم يجد عند مجيئه إلى هذه الدنيا غير اليتم والعذاب والظلام، مما جعله يتمنى أن يعود لعالم الفناء الذي وفد منه بعد أن سُدّت جميع الأبواب في وجهه باستثناء باب الأحزان الذي وقف أمامه دون أن يغلق مصراعيه في وجهه. وقد طلب هذا الشاعر الموت، غير أن الموت سخر منه وأدبر عنه دون أن يحقق له رغبته"[2].

ساح في الأرض تائهاً باغترابه

شاحبَ اللون يائساً في شبابهْ

في خِضَمِّ الأوهام والحزنِ أمسى

يصفعُ الموجَ غارقاً في عُبابهْ

[2] ص10 رعشات.

أيّ كأسٍ في أنمليهِ مليءٍ

من شقاءٍ يحسو مرارة صابهْ

جاء للكون لم يجد فيه إلاّ

ظلماتٍ من بؤسه وعذابهْ

يشتهي العودَ للفناءِ ولكن

أدبرَ الموتُ هازئاً من خطابهْ

كل شيءٍ لديه أغلق باباً

غير قصر الأحزان فهو ببابهْ

غير أن هذا الشاعر المعذب اليتيم الذي لايزال في عمر الزهرة يحمل بين جنبيه نفساً طموحاً، تهزأ بالبؤس والعذاب، وتقابل الشدائد بابتسامة ساخرة، يحبس صاحبها دموعه التي لاتسمح لها رجولته المبكرة بأن تتحدر من عينيه. وهو يصرُّ على مجابهة المصائب والإبقاء على شمعة أمانيه متقدة في لياليه المضمّخة بالضباب، وهو يسير قدماً للخلود على الرغم من عوادي الزمن وحساد فنه وأعداء فكره ومبادئه.[3]

فيه نفس طموحة لو رأت في

النجم فخراً لخاطرت لاكتسابهْ

يصرعُ البؤسُ جسمه فيناجي

عدل مولاه شارعاً في عتابهْ

هادئاً باسماً لكل مُصابٍ

يحبس الدمع ساخراً بانسكابه

[3] ص11 رعشات.

نـــاظراً شـــمعة المنـــى باتقـــادِ

تحـــت ليـــل مضمّـــخ بضبابيـــةْ

ســـائراً للخلـــود رغـــم العـــوادي

رغـــم حســـاد فنّـــه ولُبابيـــةْ

ويستمر علي في رسم صورة هذا الشاعر الذي صدّ عنه الأحبّة بالرغم من إخلاصه لهم، وتضحياته من أجلهم.[4]

كَـمْ حبيـبٍ ألقـى عليـه الأمـاني

والفتـــداه بكـــل مـــافي يَدَيْـــهِ

يتمنـــى لـــو بـــالجفون يقيـــهِ

نظـــرة النـــاس مُنـــبلاتٍ عليـــهِ

كـــان يخشـــى عليـــه مـــن كـــل شـــيء

بـــل ويخشـــى عليـــه مـــن ناظريـــهِ

صـــدَّ عنـــه فمـــا اســـتطاع سُـــلُوّاً

وبريـــقُ الآمـــال فـــي محجريـــهِ

ويختم الشاعر قصيدته هذه بقوله لنا: إن هذا الشاعر لم يجد بداً في النهاية من اعتزال الناس بعد أن ساء ظنه بهم وبكل مافي الكون، فانزوى بعيداً عن البشر الذين شملهم بسخطه واستعاض عن معاشرتهم بمسامرة الأفلاك والنجوم.

وانـــزوى مفـــرداً كئيبـــاً بليـــلٍ خَبَـــأ النجـــمَ فـــي دُجـــى طيلســـانيةْ

صيّرتـــهُ الآلام نِضـــواً هزيـــلاً فهـو يُكْـوَى بـالجمر مـن أحزانيـةْ

أوحشـــته الأيـــام فاســـتنكر النّـــا سَ وعـاثت يـد الأسـى بجنانيـةْ

[4] ص11-12 المصدر السابق.

ســـاءَ بـــالكونِ ظَنُّـــهُ فســـلاهُ هازئـــاً ســـاخطاً علـــى إنســـانيةْ

***

خَلَّقَتْ روحُـه علـى الأفق خوفـاً من لظـى جوفـه ومـن أشـجانيةْ

واعتلـت تقصـد السـماء لتحيـا بيـن أفلاكـــه وضيْـــنَ أمانيـــةْ

وفي ديوان "حنين الليالي" يتساءل عليّ عن قيمة الحياة إذا هي خَلَتْ من الشعر... إنها في نظره حياة بليدة مثقلة بالأعباء، يسودها التشاؤم القاتل، وتثقلها الهموم السوداء.[5]

إيهِ أُختَاهُ ما الحياة بـلا شـعرٍ أليســت ثقيلــة الأعبــاءِ؟

ماشحوبُ الأيام إن لـم تُغَنّ الـر وح فيها على شُعاع الرجاءِ؟

إن دنيا الخيال تقلب شـؤم الـ ـخَطْبِ جـوّاً مُلَـوَّن الأضـواءِ

وهو يرسم لنا صورة جميلة للشاعر من خلال تصويره للرسالة التي ينهض بأعبائها؛ فهو لحن الظلماء الطائف مع الفجر، وخفق الأكباد من لفحة الهجر، وعطر الخميلة الغنّاء، وعصف اللهيب في المعارك، وحلم الجياع، وطيف الإنصاف الذي يراود مخيلات المحرومين والمستعبدين.[6]

أنا لحن الظلماء طاف مع الفجر فَجُـــنَّ الهـــزارُ للأصـــداءِ

أنـا خفـق الأكبـاد مـن لفحـة الـــ ـهجْـرِ ونفـح الخميلـة الغنّـاءِ

أنا عصف اللهيبِ في حَوْمَـةِ الـ ـهولِ ولمـع الصواعـقِ الحمـراءِ

أنـا طيـفُ الإنصـافِ يصـرخُ فـي الأكـواخِ أوفـي مُهَـدَّمِ الأحيـاءِ

***

إيهِ أختـاه ماالحيـاة بـلا شـعرٍ أليســت بليــدة الأشــياءِ

[5] ص11، حنين الليالي.
[6] ص12-13 المصدر السابق.

ويشهد الشاعر في عام 1953 أمسية شعرية في كلية دار العلوم يستمع فيها إلى مالايتفق مع ما آمن به من قيم شعرية ومبادئ أدبية تتلخص في احترام تقاليد الشعر العربي الأصيل وتقديسها فيطلع علينا بقصيدة "تكبة الشعر" يصور فيها ما آل إليه أمر الشعر من هوان على أيدي فئة من غربان الشعر الذين شوهوا وجهه الجميل بدعوى الحداثة والتجديد، فراحوا يلوكون ثيّب المعاني ويحشون قصائدهم بالأقوال السخيفة والمعمّى من الرموز، مدّعين أنه شعرٌ هامس، أو أنه بصوره الجديدة يدقّ عن أفهام المتمسكين بعمود الشعر الذين يرفضون الإلغاز والإبهام. وهكذا تحوّل ميدان الشعر إلى روض مستباح تصول فيه غربانٌ تدّعي أنها عنادل مغردة بألحان جديدة تشنف الآذان.[7]

أصبح الروضُ للغراب مُباحا — فغدا فيه بالألوف وراحا

صار فيه شدو البلابل تنعا — با، وعاد الغناءُ فيه نُواحا

وادّعى الشعر كل مَيّتِ إحسا — سٍ فحاك القصيد سُخفاً صُراحا

هام مَزْجاً بثَنّيات المعاني — والثنى ينشد المزيج نباحا

وفي هذه القصيدة يشير الشاعر إلى آفة من الآفات التي أصابت الساحة الأدبية في منتصف القرن العشرين، ومازالت تنخر فيها حتى الآن، وهي آفة "الشّلليّة" التي مكّنت الأدعياء من السيطرة على الصحف وغيرها من وسائل الأعلام، ووضعت العراقيل في سبيل الأصلاء من المبدعين:

أتخَمَ الصُحْفَ بالرخيص من الـ — ـقولِ وأعلى في كل نادٍ صياحا

ودعاه أشباهه شاعراً فَرداً — وصاغوا لـه الثناء وشاحا

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف مايصوغه هؤلاء الأدعياء من شعر يسبغون عليه صفة الحداثة التي تتلاءم وروح العصر بأسلوب ينضح بالسخرية والاستهزاء.

وافترى الشعر كل زاعم تجديدٍ — بمحض الهراء غنّى وراحا

رصف اللفظ لايرى هو فيه — أيّ معنى إلاحروفاً صحاحا

---

[7] ص15، حنين الليالي.

قال هذا شعر جديد عميق — ذو معانٍ لاتقبل الإيضاحا

هو رمز للخافيات من الأو — هام أعيا النقاد والشُّراحا

أما جناية هؤلاء الأدعياء على الشعر الذي لطّخوا وجهه الجميل وأخفوا أريجه الفواح، ودنسوا طهره المقدس، فقد وصفها عليٌّ على النحو التالي:

وادّعى الشعر صبيةٌ حسبوه — زنةً سهلةً ونظماً متاحا

هكذا الأدعياءُ قد لطّخوا الشعر — وأخفوا أريجه الفوّاحا

كالظهور الحسناء زاحم فيها — النذلُ كُفْأً وأكثر الإلحاحا

وقد صوّر الشاعر هؤلاء الأدعياء أقبح تصوير، فالدعيُّ منهم يزاحم الكفء في خطب ود الحسناء الطاهرة، وهو عاتٍ يمد يده الظالمة ليحصد الأزهار في قسوة وعنف وهي نديّةٌ متفتحة بدلاً من أن يتركها في مكانها الطبيعي ترسل إريجها الفواح الذي لاينبغي أن يحتكره أحد.

وهو كالقبيحة التي تسرق حليّ الغيد الحسان لتستر به قبحها المكدر للأفراح محاولة منافسة الملاح.

ثم يختتم قصيدته بتوجيه نصحه إلى هؤلاء الأدعياء ليريحوا ويستريحوا.

إنما الأدعياء لاتجهدوا في الشّعْرَ — فكراً تبغون فيه فلاحا

إنما الشعر ماتفجّر بالإحسا — سٍ وَحْياً وأرقص الأرواحا

إنما الشعر كالنبوّة لايزدادُ — فيها الكذوب إلاّ افتضاحا

* * *

قد أقمنا للشعر سهرة خمرٍ — فملأتم من القذى الأقداحا

تعب المُدّعي ونحن تعبنا — ليته قد أراحنا واستراحا

وإن أنس فلن أنسى كيف قام علي دمر -رحمه الله- بطباعة هذه القصيدة وراح بمعونة أصدقائه والمعجبين به يوزع مئات النسخ منها على طلاب كلية اللغة وطلاب كلية دار العلوم وأعضاء هيئتي التدريس في هاتين الكليتين حتى

يشفي غليله من أولئك الأدعياء الذين أثاروا غضبه وأهاجوا شاعريته بشعرهم الهجين المغموز النسب والهويّة.

وقد تطرق الشاعر في قصيدته "بين الشهرة والخلود" إلى قضيّةٍ هامة، هي قضية عدم اعتراف الأمة بنوابغها الحقيقيين من الشعراء وتقصيرها في تسليط الأضواء عليهم، ليتعموا بما هو حق لهم من الشهرة وذيوع الصيت قبل أن يغادروا هذه الحياة، في الوقت الذي ترفع فيه الأدعياء الذين يجيدون فنون التزلف والتسلق، وخفض الرؤوس، وإحناء الهامات وبيع الكرامة ومسح الأحذية في سبيل شهرة عابرة لن تلبث أن تزول، لأن الأمم مفطورة على التمييز بين الخبيث والطيب، وبين الشعراء الأصلاء والمتشاعرين.

وهو مؤمن في قرارة نفسه بأنه وإن يكن قد حُرِمَ ما يستحقه من شهرة في حياته في هذا الزمن العربي الردي، انطلاقاً من أنه لاكرامة لنبيٍ في قومه، فهو لامحالة ظافرٌ بها في المستقبل عندما يتصدّى الدارسون من الأجيال القادمة للبحث عن كنوز شاعريته، فيكتسبون هم أيضاً شهرة لاتقل عن شهرة صاحب هذه الكنوز ومن شابهه من الأبطال والعظماء.[8]

إن لم أُصبْ شهرةً في عصرنا فغدا

كنزي سَيُفْتَحُ بعد القيل والقالِ

ويفقدي كاشف الكنز الثمين لهُ

في الناس شهرةُ حكامٍ وأبطالِ

بعد الألوف من الأعوام يقرؤني

قلب امرئٍ بحفايا الفنّ جوّالِ

فتنتشي روحهُ من خمرتي ويرى

كم ذا حُرِمتُ بعصري الوغد آمالي

ماضرني اليوم أنْ أخفى على زمنٍ

كم شهرةٍ لسخيفٍ أجوفٍ خالِ

---

[8] ص83 المجهولة.

كم من زعانف في أيامهم شُهروا

والدهرُ بعدهم عن ذكرهم سالِ

ومن أعاظم في أيامهم غُمِروا

لكنّ خلودهم كالكوكب العالي

ولعلي دمر من النقّاد موقف خاص لايسرهم، ولا يدخل السعادة إلى نفوسهم، فهو سيّء الظن بهم وبمراميهم وأهدافهم، وهم في نظره ليسوا إلا عصبةً احترفت الإثارة والضجيج، وسخرت أقلامها للإشادة بكل دعيٍّ من أدعياء الفن الذين يعيشون كالطفيليات على سرقة معانيهم وأفكارهم من الشعراء العظماء والأخذ عنهم.

والنقاد في نظره صنفان: الأول مغرضٌ يسعى إلى تحقيق هدفٍ محدد، والثاني جاهلٌ متحذلق يسقم الأذواق، ويزكم الأنوف بما يفوح من نقده من النتن والعفونة.

وهم ليسوا إلا مجموعات من الأنذال تهيم على وجوهها في دروب النقد والأدب وليس لها من همٍ إلا الترويج لشهادات الزور التي ينشرونها في الصحف الصفراء التي احترفت التتويه بالطبالين والدجالين الأدعياء.

وهو ينصح القراء بعدم التأثر بآراء الناقدين سواءٌ كانوا مادحين أو قادحين ويدعوهم إلى تذوق نكهة الفن الحقيقية بالإقبال على قراءته من مصادره قبل أن يتأثروا بآراء هؤلاء النقاد[9].

لاتعرف الفنَّ مما قيلَ عنهُ وذُقْ

منه بلا قول مُدّاحٍ وعُذّالِ

كم ضجةٍ لجموعِ الناقدين لدى

دعيٍّ فنٍّ رخيص الذوق نقّالِ

كم ناقدٍ مغرضٍ أو جاهلٍ نتنٍ

وعصبةٍ في دروب النقد أنذالِ

---

[9] ص85 المجهولة.

آلافُ آراءٍ زورٍ في صحافتهم

تجارة الصحف تهوى كل طبّالِ

ويطّلع الشاعر على بعض القصائد الأمريكية المترجمة والمنشورة في كتابٍ سماه ناشره ظلماً "ديوان الشعر الأمريكي" فيقول ساخراً من هذا الشعر، ومايتضمنه من هذيان وترّهات، مستنكراً أن يكون للأمريكيين شعرٌ يعجب ويطرب، لأنهم في نظره ليسوا إلا رعاة بقرٍ أجلاف، قد احترفوا الإغارة والقتل، وإثارة الفتن والحروب، وصناعة أسلحة الدمار والتخريب، والتآمر على حريات الشعوب، وأن نفوسهم الفظّة غير مؤهلة لصناعة الأحلام الإنسانية التي يصورها الشعراء[10].

وقيل أتاك شعرٌ من أمريكا

رفيعٌ في بديعِ الترجماتِ

فتحتُ كتابه وقرأتُ فيه

أظنُّ به أنيق العاطفاتِ

وإذ بي أقرأ الهذيانَ سُخفاً

يُلفّقُ في وضيع الترّهات

لَعَمْرُكَ ما أمريكا ذاتُ شعرٍ

يُنَبِّهُ فيك أحلى الذكرياتِ

ولكن في أمريكا نارُ حَرْبٍ

معاملُ تصنعُ المتفجّراتِ

تُصَدِّرُ كلَّ يومٍ ألفَ طُنٍّ

قنابل للشعوب مُوَجّهاتِ

لتصرع كل تحريرٍ بأرضٍ

وتنصرَ كل حُكّامٍ طُغاةِ

(10) ص113 غيبوبة الحب.

فهذا شعر أمريكا دمارٌ

وخوفٌ للشعوب الآمناتِ

لعَمْرُكَ مارعاة الثور يوماً

بأهلٍ للنفوس الحالماتِ

ونحن -وإن كنا نشاطر الشاعر كرهه لأمريكا وسياستها- إلاّ أننا لانوافقه على موقفه هذا من الشعر الأمريكي لثلاثة أسباب:

أولها: أن ماقرأه من بعض القصائد الأمريكية المترجمة لايمكن أن تكون كافية للحكم على الشعر الأمريكي كله.

وثانيها: أن الترجمة للشعر خاصة تذهب برونقه، وتفقده كثيراً من خصائصه الجمالية التي لاشك أنها متوافرة فيما لو قُرئ باللغة الأصلية التي وضع بها.

وثالثها: أن كون الأمريكيين رُعاة بقر، وصناع أسلحة، ومحترفي عدوان، لايمنع أن يكون فيهم شعراء عظام، يأتون بالمطرب المعجب من الشعر الرفيع. فقد كان العرب رعاة ابل وشاء، وكانت الحروب بين قبائلهم لا تنطفئ إلا لتشتعل من جديد، وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا من أشعر الأمم وأكثرها احتفالاً بالشعر والشعراء.

ولعل الرسائل المحرجة الثلاث التي بعث بها علي دمر إلى الشاعر الكبير نزار قباني تدخل في هذا الباب الذي يصور فيه عليّ حبه للشعر، وحرصه على خلو شكله ومضمونه من كل ماقد يشوّه جماله، حتى لوكان ذلك التشويه ناجماً عما قد يكون في شعر أي شاعر من تناقض فكريّ، ربما يكون ناشئاً عن اختلافٍ في المواقف، أو تغير في الظروف، أو تطور في المفهوم، وهي الأمور التي نستطيع أن نزعم أنها كانت وراء ماقد يلحظه القارئ من وجود مثل هذا التناقض في شعر نزار قباني الذي قاله في الزعيم الراحل المرحوم جمال عبد الناصر في حياته، والذي صاغه في عدد من مرثياته له بعد وفاته.

وعلي دمر لاينكر المكانة الكبيرة التي يحتلها نزار قباني بين شعراء العصر. وأنه في طليعة الذين أضافوا إلى الشعر العربي كثيراً من أسباب القوة التي حفظت له منزلته في نفوس أبناء الضاد التي عزفت عن الشعر بعد أن أسقمت أذواقها تلك التجارب التافهة التي يطلع عليهم بها المتشاعرون من دعاة

التجديد بين حين وآخر.

وهو يعترف بأن نزاراً شاعر راسخ القدم، وأنه أقام ألف دليل ودليل على روعة لغتنا وطواعيتها واستجابتها لدواعي التطور والتحديث والمعاصرة ولكن علياً -على الرغم من ذلك -ينعي على نزار قباني ماأطلق عليه "بعض شطحاته ومبالغاته وانحرافاته في بعض الأفكار الاجتماعية العربية"[11].

وبالرغم مما أعرفه عن علي دمر من كرهٍ شديد لشعر التفعيلة ونفوره منه، إلا أنه قد لجأ إلى استخدام هذا اللون من ألوان الشعر في رسالتين من رسائله الثلاث التي وجهها إلى نزار قباني.

وقد بدأ رسالته الأولى بتصوير إعجابه الشديد بنزار وشاعريته حيث قال:[12]

إلى أخي نزار
تحيّة الإعجاب والوقار
لشاعر الجمال
والحب والقتال
مفجّراً من كل حرف طاقة انفعال
في الروح والخيال.

وبعد أن طلب إليه أن يتحلى بالصبر ساعة تسلمه رسائله حتى يتمكن من قراءتها ينتقل إلى تصوير إعجابه بشعره:

ياصاحبي
قرأت كل شعرك الجميل
فكان إعجابي بلا مثيل
بأنضر العباره
وأرشق الإشاره
بالفن، بالغزاره
يا صاحب المدرسة الجديدة

ثم لايلبث بعد هذا أن ينتقل إلى توضيح مايأخذه على شعر نزار من بعض

[11] ص7 مقدمة رسائل محرجة إلى نزار قباني.
[12] ص11رسائل محرجة إلى نزار قباني.

الشوائب التي تتمثل أكثر ما تتمثل فيما يحتوي من تناقض في الفكر والشعور.

لكنني ياصاحبي
فكرت في أمور
في شعركم تدور
تناقض خطير
في الفكر، في الشعور

ويبدأ علي في ضرب الأمثلة لهذا التناقض الذي لايرضى عنه، ولا يستسيغ وجوده في شعر نزار مبيناً موقف القباني من المرحوم جمال عبد الناصر وهو على قيد الحياة عند حدوث النكسة عام 1967م.[13]

فمثلاً موقفكم
من شخص عبد الناصر
تقول في -هوامش النكسة- "ياسلطان
ياسيدي السلطان
لقد خسرت الحرب مرتين
لأن نصف شعبنا ليس له لسان
ماقيمة الشعب الذي ليس له لسان"

وبعد أن يثني عليّ على هذا الموقف من مواقف نزار من مسألة حرمان الشعب من حرية التعبير يقول:

ياشاعر الإنسان
هذا كلام رائع البيان
لكن هنا سؤال
من ذلك السلطان؟
من قادنا للحرب مرتين؟
من خسر الحروب مرتين؟
من جعل الشعب بلا لسان؟
محاصراً كالنمل كالجرذان
.....
من صانع المجازر؟!

[13] ص15 رسائل محرجة إلى نزار قباني.

أليس عبد الناصر؟!

ويمضي الشاعر في ضرب الأمثلة على ذلك التناقض الفكري الذي يملأ شعر نزار قباني السياسي، فمن هجوم نزار على الفكر الذي قاد العرب إلى الهزائم، إلى حملته على الخطب العنترية التي لاتصلح حتى لقتل الذباب، إلى تزييف الحقائق المتمثل في إطلاق مصطلحات غير دقيقة على مايحدث للعرب من هزائم، إلى فضح الخداع الذي يمارسه الحاكم العربي البهلوان الذي دأب على احتراف البلف والتهويش.

والملاحظ أن كل مرة كان يلحظ فيها علي دمر شيئاً من التناقض الفكري والشعوري في شعر نزار نراه يلجأ إلى تصويره ثم يتبع ذلك بسؤال يخرج به مع معناه الأصلي إلى معنى التقرير. كقوله:

مَنْ صاحب الفكر الذي قاد إلى الهزيمة؟!
مَنْ الذي كان كلامه المثقوب كالأحذية القديمة؟!
من مبدعُ التهاتر؟!
أليس عبد الناصر؟!

وكقوله:

مَنْ الذي حارب بالخطابة؟
بمنطق الطبلة والربابة؟

.....

فمن تراه صاحب الخطاب؟
من الذي سمَّيْته هزءاً أمير المؤمنين؟

.....

من الذي تاجر بالمشاعر؟
أليس عبد الناصر؟!

هذا الهجوم الشعري العنيف من نزار على عبد الناصر في حياته تحوّل – في رأي علي دمر – إلى حب عارم عنيف بعد وفاته، المأساوية المفاجئة. لقد أصبح جمال في رأي نزار والد الأمة العربية، ومعلمها الكبير، ونبيها الشهيد الذي لاتستحق أن يُبْعَثَ فيها مثله، فهو كثير على الأمة العربية التي أدمنت قتل الصحابة والأولياء.

وحين يبدأ فصل جديد من فصول المأساة التي تعيشها الأمة العربية ينبري

عليّ إلى توجيه تهمة أخرى إلى نزار تتلخص في أنه يمثل دوراً جديداً فوق خشبة المسرح الذي تعرض عليه فصول هذه المأساة.[14]

وبعد هذا كله انسدل الستارْ
ورفع الستار
وجُدِّدَ المكياج
ولبس الشاعر وجهاً آخراً
في حَلْبة التمثيل
واستُبدِلَت مناظر المسرح من جديدْ
فقلت: ياوالدنا
جمال عبد الناصر
عندي خطاب عاجل إليك
من الملايين التي قد أدمنت هواك

.....

يا أيها المعلم الكبير
كم حزننا كبير
وعندما يسألنا أولادنا
من أنتم في أي عصر عشتمْ
في عصر أيّ ملهم
في عصر أيّ ساحر
نجيبهم في عصر عبد الناصر.

.....

قتلناك يا آخر الأنبياء
قتلناك، ليس جديداً علينا
اغتيال الصحابة والأولياء
وأيامنا كلها كربلاء
لماذا قبلت المجيء إلينا

---

[14] رسائل محرجة إلى نزار قباني.

فمثلك كان كثيراً علينا
فليتك في أرضنا ماظهرت
وليتك كنت نبّي سوانا

ثم يوجه علي دمّر عتبه الشديد إلى نزار عبر هذه الأمثلة المفعمة بالاستنكار والتعجب.

ما ذلك التناقض العجيب يانزار
من الذي قد كان بهلوان؟
من يلبس الطرطور؟
ويخدع الجمهور؟
هل كان حاوي الشعر أم
مدجّل الخطاب

وفي ختام هذه الرسالة يقذف الشاعر في وجه نزار بتهمة متاجرته بالشعر قائلاً:

لكنه لابأس يانزار
فالتاجر الخبير يكتشف
يعرف كيف تُؤكلُ الكتف
وهذه تجارة الأشعار والآراء
كأنها تجارة البناء
تبيع للراغب مايشاء

*****

وفي الرسالة الثانية ينعي عليّ على نزار تهجمه على تراث العرب وتاريخهم وحضارتهم، ورفضه لكل ذلك ونصيحته لأمته بالأخذ عن بلاد الثلج والضباب إن هم أرادوا أن يصلحوا من شأنهم ليصبحوا كما قال عنهم القرآن الكريم "خير أمة قد أُخرجت للناس"[15]

فمرةً تَسُبُّ تاريخ العَرَبْ
تسخر من كل حضارات العربْ
تقول من:

[15] رسائل محرجة إلى نزار قباني.

"خمسة آلاف من السنين
ذقوننا طويلة
نقودنا مجهولة
عيوننا موانئ الذبابْ
يا أصدقائي جرّبوا أن تكسروا الأبواب
ياأصدقائي جرّبوا أن تقرؤوا كتاب
أن تكتبوا كتاب
أن تبحروا إلى بلاد الثلج والضبابْ"
.....
وقلتَ في قصيدة رافضةٍ
"أرفضكم جميعاً
وأختم الحوار
لم يبق عندي لغةٌ
أضرمت في معاجمي
وفي ثيابي النار
.....
أرفض ميراث أبي
وأرفض الثوب الذي ألبسني
وأرفض العلم الذي علّمني
وكلّ ما أورثني
أرفضُ سيف الدولة المغرور
.....
وأقتل المعلقات العشر والألفيّة
وأهدم الشرق على أصحابه
تكيَّةً تكيَّة

وعلى الرغم من هذا الرفض الصارخ من نزار لتاريخ العرب وتراثهم وحضارتهم فإنه -كما يرى عليّ- يقع في تناقض فكري فاضح آخر عندما نراه في قصائد أخرى يستلهم آثار معاوية، وأمجاد بني أمية وبني حمدان والمتنبي وصلاح الدين الأيوبيّ وحطين وحضارة العرب في الأندلس، وطارق بين زياد

وقرطبة وغرناطة.[16]

وبعد هذا الرفض يانزار
تستلهم الآثار
تشحذُ من معاويةٌ
مجداً ونصراً من بني أميّة
ومن بني حمدان، من خيولهم
ومن سيوف خالد تشحذ نصل السيف
فكل أسياف العرب
في عصرنا من الخشب

تقول في دمشق:

يا شام أين همـا عينا معاويةٍ
وأين من زحموا بالمنكب الشُّهبا
فلا خيول بني حمدان راقصةٌ
زهواً، ولا المتنبي مالئٌ حلبا
يا ابن الوليد ألا سيف تؤجّرُهُ
فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا

ومن ذُرا حطّين
تدعو صلاح الدين
غنّيْتَ في قرطبةٍ حضارةَ العرب
بكيتَ في الأندلس
ورحتَ ترثي ذلك المجدَ الذي لم يَدْرُس
ثم يتساءل عليّ بعد أن يجبه نزاراً بكل ذلك:
فأين ذاك الرفضُ يانزار
لكل ميراث العرب
وأين ذاك السَّبُّ يانزار

[16] رسائل محرجة إلى نزار قباني.

للشرق، للعربْ
.....
هل نحن كنا يا أخي لانعرف الكتاب؟!
لم نكتب الكتاب؟!
هل نحن يا....
نوع من الذباب؟!

****

وفي الرسالة الثالثة لم يأتِ عليٌّ بجديد، فقد أعاد صياغة ماسبق أنه وجّه إلى نزار من تهم في رسالتيه السابقتين عائداً في هذه الرسالة إلى رحاب الشعر الأصيل الذي يعتمد فيه الشاعر على وحدة البيت والقافية.

وقد زعم عليٌّ في رسالته هذه أنه كان في استطاعته أن يفعل مثلما فعل نزار، وأن يصل إلى ماوصل إليه نزار من ثراء لو أنه تاجر بشعر الإثارة الجنسية، غير أن حرصه على أن يظل رائداً من رواد الفكر المخلصين لعروبتهم وأمجادهم وتراثهم حال بينه وبين ذلك.[17]

بإمكاني أتاجرُ بالإثارةْ *وحسبُ السوق أدفع بالتجاره*
ويُثريني به قبّان شعري *كما أثرت تجارتُه "نزاره"*
أناقض كل يومٍ رأي أمسٍ *وخلف تناقضي تخفى "سفاره"*
ولكني خُلِقْتُ برغم أنفي *عشيقَ الحقِّ لا أعدو قرارَهْ*
سأبقى رغم إحساسي وإنْ لم *أصبْ في عالم الشعر اشتهارَهْ*

ونحن نقول لعلي: إنه ماكان بإمكانه أن يفعل ذلك، لأنه لم يخلق لمثله، وإن نزار قباني ليس من الذين يتاجرون بشعرهم، أو من الذين يسخرونه في خدمة الطغاة والمستبدين. وإننا لانعرف شاعراً نال من الذين تسببوا في هزيمة هذه الأمة كنزار وأن ماظنه صديقي علي -غفر الله له- من تهجم نزار على العرب وتاريخهم وحضارتهم، ليس إلا من قبيل جلد الذات أو النقد الذاتي الذي يلجأ إليه الشاعر عندما يفيض به الحزن، ويجرفه تيار اليأس ويغرقه في لجة انعدام

[17] رسائل محرجة إلى نزار قباني.

الوزن الذي قد يفقد معه منطقيته واتزانه. وأن ماحسبه عليّ تناقضاً فكرياً ليس إلا لوناً من ألوان الشعر الذي ينمُّ عن مواقف مختلفة للشاعر.

وقد قدّر لنا أن نعاصر الفترة التي أعقبت النكسة، وحملت نزار قباني على كتابة قصيدته "هوامش على دفتر النكسة" وهي القصيدة التي جعلت منه هدفاً لعدد من الكتاب المأجورين من أمثال أنيس منصور وصالح جودت الذين سددوا إليه سهامهم المسمومة ونجحوا في منعه ومنع قصيدته من دخول مصر، وقد استمر ذلك إلى أن بعث نزار قباني برسالته إلى الرئيس جمال عبد الناصر ومعها قصيدته المذكورة فما كان من ذلك الزئيس الملهم -رحمه الله- إلا أن أصدر أوامره برفع الحصار عن نزار وشعره والسماح له بدخول مصر معززاً مكرّماً، كما أمر الإذاعة والتلفاز بالعودة إلى التعامل مع نزار وإذاعة أغانيه. لقد اتسع صدر عبد الناصر لنقد نزار، ولم تأخذه العزة بالإثم، ولم يضق ذرعاً بالرأي الآخر كما يفعل غيره من الحكام والمتنفذين.

أما رثاء نزار لعبد الناصر، وتفجعه عليه وتصوير حب الملايين له بعد أن صدمها فقده في وقت كانت تتوقع فيه أن يبقى حتى يثأر لنفسه ولأمته من أعدائها الخبثاء، كما كانت توحي بذلك إرهاصات حرب الاستنزاف فإن ذلك إن دلّ على شيء فإنما يدل على الحزن المبرّح الذي أحس به نزار، كما أحس به كل عربي أُشرِبَ حُبّ عبد الناصر.

من أجل ذلك تمنيت لو أن تراث صديقي عليّ الشعريّ قد خلا من هذه القصائد الثلاث التي لم تضف إلى رصيده الفنيّ شيئاً يستحق الذكر. فهي عند مَنْ يتأملها من أقل قصائده شأناً ومكانةً.

لقد صنعت تلك القصائد بأسلوب هو أقرب مايكون إلى التقريرية والمباشرة، كما أرغمت صاحبها على استخدام شعر التفعيلة في كتابتها وهو الذي ظل طوال أيام حياته يحاربُه ويحارب المتحمسين له من الشعراء والنقاد.

****

الفصل الثالث

الأسـرة فـي شـعر علـي دُمّـر

كان ضيق الاتجاه الأسري، وندرة قصائده في الشعر العربي القديم من العيوب التي وُصِمَ بها هذا الشعر.

ولكن الشعراء العرب بعد عصر النهضة -وبخاصة شعراء المهجر- قد تداركوا ذلك فأقبلوا على محيط الأسرة يستوحون منه أعذب القصائد التي صوروا فيها عواطفهم تجاه أبناء أسرهم.

ولم يلبث شعراء الوطن العربي أن تابعوا إخوانهم شعراء المهجر في العناية بهذا الغرض من أغراض الشعر المستحدثة والاحتفال به. وقد حظيت الأمهات بالنصيب الأوفى من حب الشعراء، ثم تلاهن في ذلك الأبناء والبنات والأزواج والزوجات والأحفاد والحفيدات. وكان الآباء والأجداد والجدات أقل أفراد الأسرة ذكراً في قصائد الاتجاه الأسري.

أقبل الشعراء على صياغة القصائد التي أودعوها حبهم لهؤلاء جميعاً وصوروا برّهم وعطفهم عليهم، وتعلقهم بأشخاصهم، وحرصهم على ما ينفعهم، وإشفاقهم مما يتهددهم من مكاره، وما يحيق بهم من أخطار. وقد صوروا بالإضافة إلى هذه المشاعر أشواقهم وحنينهم إليهم عندما تطوح بهم النوى خارج الوطن الذي درجوا فيه وقضوا فيه أجمل سنوات العمر.

وكان على دُمّر -رحمه الله- واحداً من هؤلاء الشعراء الذين صوروا شدة تعلقهم بأسرهم. وقد ذكر لي في إحدى رسائله أنه قد استوحى من محيط أسرته ست قصائد ولكن لم يتوافر لديّ من هذه القصائد الست سوى ثلاث أحسب أنها

كافية لتصوير ما يعمر قلب علي من حب لزوجته وأبنائه. هذا فضلاً عن كثير من الأبيات التي لا يفتأ يصور فيها عواطفه نحوهم في كثير من قصائده التي تناولت شتّى الموضوعات والأغراض.

ولعل أول قصيدة تطالعنا في هذا المجال هي قصيدة "زوجتي" التي بعث بها إلى أم أنس في 1951/12/20 بعد وصوله إلى القاهرة من أجل الالتحاق بكلية اللغة العربية. يقول عليّ في مطلع قصيدته مصوراً حالته النفسية في غربته، شاكياً طول المسافة التي تفصل بينه وبين أسرته(1):

إذا جنّ ليلي يا ابنة العم لم أنَم

وطيفُك في نفسي ملاكٌ مُصَوَّرُ

لقد فصلت يا أم كهلان بيننا

بحارٌ عِراضٌ لا تُخَدُّ وتُحْصَرُ

وعينيكِ ما ذقت الهناء بغربتي

لبعدك لو أهدانيَ الملكُ قَيْصَرُ

وهو يخشى عليها من الذكرى، ولهذا فهو يوصيها ألا تستسلم للحزن عندما تتذكره:

إذا كنتِ في الصّفاتِ يا أمَّ صبيّتي

وفي جنة العاصي النسيمُ المُعَطَّرُ

فلا تتركي ذكراي تُشْجيكِ إنني

أخاف من الذكرى عليك وأحذرُ

وضفاف النيل بما حباها الله من جمال، وما يميس فيها من الغواني والحسان لا يمكن أن تخمد شوقه إلى العاصي وزوجته التي تعيش على ضفافه:

وما موقفي والنيل حول ضفافه

تتيه الغواني بالجمال وتَخْطُرُ

بمثلِ لو عاتي إليك وصبوتي

ودمعاً لمشبوب الأسى يتحدّرُ

وهو يترحم على تلك الليالي الجميلة التي قضاها مع زوجته في انسجام روحيّ وإحساس صادق بالسعادة والحب

سلامٌ على تلك الليالي التي مضت

بقربك يجلوها بهاك المنوّر

أناديك يا روحي وأنت مجيبةٌ

بمثل نداتي والهوى يتسعّرُ

ونمزج روحينا التناساً وفرحةً

ونشهق من برد السرور ونَزْفُرُ

ثم يستحلفها لتخبره عن حال وليدهما الثاني أنس الذي لم يكن قد مضى على ولادته أكثر من سبعين يوماً بقوله:

بربك قولي كيف يحيا وليدُنا

فقلبي إليه بالنوى يَتَقَطَّرُ

إذا مرَّ بي طفلٌ يُهَيِّجُ لوعتي

إلى أنسٍ، وجدٌ يَحُزُّ ويأسِرُ

أيسألُ عن بابا وأين مقرُّهُ

ويَبْغُمُ في ذاك السرير ويسهر؟!

ولكي يدفع الشاعر ما قد يتبادر إلى ذهن شريكة حياته من أفكار غير صائبة عن سبب رحيله فإنه يُبَرِّرُ ذلك لها بقوله الذي يستخدم فيه أسلوب الالتفات مخاطباً صغيره بقوله:

وما باختياري يا بنيَّ مجرتكم

إلى مصر إن المرءَ في الكون مُجْتَبَرْ

وما سفري إلا لنيل هنائكم

بمستقبل أشهى لديكم وأنضَرْ

ثم يختم قصيدته بهذا البيت المؤثر الذي يحمل شحنةً عاطفية تكفي لأن تجعل منه وحدهُ قصيدة خالدة:

فإن كتب الله اللقا فهو حلمنا

وإن لم ترونـي راجعاً فتصبَّروا

حقاً إنه الإيجاز الذي يدخل في باب جوامع الكلم، حيث يُلَخِّصُ الشاعر فيه أعظم حلم يداعب مخيّلةَ المغترب، وهو اللقاء بأحبابه، وفي الوقت نفسه فإنه يعزي ذويه ويطالبهم بالتصبر وليس الصبر إن لم تكن الأقدار قد كتبت له العودة إليهم بعد أن يكون قد حقق أحلامه التي تغرّب في سبيلها.

****

أما رائعة الشاعر "ولدي أنس" والتي تُعَدُّ وبحق عروس ديوانه "حنين الليالي" فَحَدِّثْ ولا حرج عما اشتملت عليه من عواطف جيّاشةٍ صادقة، وَصُورٍ حيّةٍ متناسقه، وأسلوب سهل مُمْتَنِع، وخيالٍ مُجَنَّحٍ مُحَلِّق يأخذ بالألباب ومجامع القلوب.

نظم الشاعر هذه القصيدة بمناسبة العيد الأول لميلاد ولده أنس، فجاءت على خير ما تَجيء عليه القصائد. فقد توافرت فيها الوحدة العضوية التي تعانقت فيها وحدة الموضوع مع وحدة المشاعر التي يثيرها ويستدعيها، وما يستتبع ذلك من ترتيب للصور والأفكار يجعل القصيدة تتقدم وتتنامى شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى الخاتمة التي يتطلبها ترتيب الأفكار والصور.

ومن هنا نجد أن أجزاء هذه القصيدة قد شكلت بنيةً حيَّةً لكل جزء فيها وظيفته، إذ يقود كل جزء منها إلى ما بعده عن طريق التسلسل المنطقي في التفكير والمشاعر. وهكذا تقف هذه القصيدة أمامنا شامخةً تامة الخلق والتكوين مباهية ببنيتها الحسية المتألقة.

بدأ عليّ قصيدته بوصف تلك المشاعر المتضاربة التي يمتزج فيها الفرح والخوف اللذين أثارهما في نفسه قدوم ولده أنس بالحزن الذي خلّفهُ رحيل شقيقه كهلان الذي فجعته به الأقدار وهو في شهوره الأولى من رحلة الحياة.(1).

أبكي لديك وأنت في أحضاني

فرحاً وخوفاً بالمُنى اعتريـاني

فرحاً بأنسكِ إذ أضاء حوالكي

والخوف من غدر الزمان الجاني

أبنيَّ يا جزءاً تفرّع من دمي

وحشاشتي وعواطفي وحناني

أنسٌ وما أحلاه من نغم إذا

نوديت هَزَّ صدى النداءِ كياني

وإذا ذكرتُ أخاك كهلان اكتوى

جنباي من حُزنٍ على كهلان

قمرٌ بدا في ليل دهري وامّحى

في أشهر من عمره كثوانِ

فجعتني الأيامُ فيه وغادرت

جُرحاً يسيل على المدى بجناني

وطلعت أنتَ فخالط الفرحُ الأسى

وبدا الرجا والخوفُ يمتزجانِ

هذا الصراع بين المشاعر المتناقضة، والأحاسيس المتباينة، يقود الشاعر إلى التأمل في هذه الحياة وما يصيب فيها الإنسان من طوارق الحدثان التي تنتهي بالموت وتجعل الشاعر يُحسُّ بالندم لجنايته على أنس جناية تشبه تلك التي

جناها والد المعريّ على ولده:

وإذا نظرتُ لكُنْهِ سرِّ حياتنا

ولهولِ ما بطوارق الحدثانِ

ولجَوْبنا قفر الحياة شقاوة

والموت آخر مورد الظمآنِ

ولمرعبات فواجئ الدنيا التي

بالطيش تحكُمنا وبالهذيانِ

أجد الندامة أن قذفتك مُزْغماً .

في الكونِ بين مجاهل الأزمانِ

وسمعتُ تأنيب المَعَرّي ساخراً

مني ومن حُمقي ومِنْ عُدواني

والشاعر الذي أدرك بعد فوات الأوان جنايته على ولده، يرى أن من أضعف الإيمان أن يبرر له فعلته تلك في هذه الأبيات:

فإذا دهتكَ بُنَيَّ بعدي كربةٌ

وشكوت ليل الهم والحرمانِ

ورأيتَ أبناء الدُّنا كوحوشها

لكنها في صورة الإنسانِ

صنفان بعض في الحضيض مسخَّرٌ

والبعض في الترف اللذيذ الهاني

فاعلم بأني قد ظلمتك يا مُنى

روحي بدافع رغبةٍ وأماني

غادرتُ بحر اللاوجود بشطِّهِ

فرأيتني وحدي لدى أشجاني

فأردتُ أن تحيا بجنبي مؤنساً

ومكافحاً عني خطوب زماني

فامنحْ أباك العذر يا ولدي فمّا

غير اشتياقي أن أراك دعاني

ولكي يزيد ولده اقتناعاً بحسن نيته، ونبل مقصده نراه يلجأ إلى تصوير ما طرأ على حياته البائسة من تبدل إيجابي بعد ولادته.

لما ظهرت رأيت دهري باسماً

ومشتَ مُدام الأُنسِ في أحزاني

وغدت حياتي في جوارك حلوةً

مِنْ بعد يأسٍ هدَّ مِنْ أركاني

قد كنت أهوى الموت لكن عندما

أقبلت صرتُ أخاف أن يغشاني

فتعيش مثلي لا أبَ يرعاك في

يُتمٍ مريرٍ مرعبٍ وهوانِ

ويستمر الشاعر في تصوير ما يحمله في نفسه لولده من حبّ، وما يحتفظ له في قلبه من مكانة، وما يستعذبه وأمه من أجله من سهد وعذاب، وما يحس به من تشابه قائم بينه وبين ولده.

أبني يا أكُلَّ الوجود مُصَوَّراً

في بسمةٍ من ثغرك الفتّانِ

في كلّ حرفٍ من صدى بابا على
شفتيك تبدو للسرور معاني
كم من خديـنٍ لي تَقَلَّصَ وُدُّهُ
فوجدتُك السلوانَ عن أحداني
أَلْقَى عليكَ ملامحي وطبائعي
فأقول: هل هذا عليَّ الثاني؟!
أحببتُ بما مَزَّقت من كتبي.وما
كسَّرْتَ من كأسٍ لنا وأواني
وبطول ما أشغلتنا وحرمتنا
نوماً يداعبُ حالِمَ الأجفانِ

ولا يفوت عليّ الشاعر الحساس أن يصور أثر تلك الحركات الصغيرة البدائية التي يأتي بها الطفل في عامه الأول، فتدخل إلى نَفْسَيّ والديه ما تدخل من الغبطة والحبور والاستحسان.

تحبو وتخطو صاخباً ومُغَمْغِماً
فأقولُ: هذا أعذبُ الألحانِ
وأصيحُ يا أنسَ التي فتجيئني
خطواً بدانياً بكل توانِ
حتى إذا ألقيت نفسك ضاحكاً
فوقي ضَمَمْتُكَ للفؤاد الحاني
فشعرت أني كلّ ما أملتُهُ
في الكون صار لديَّ طوع بناني

فشممتُ جسمكَ قدرما أستطيعُهُ
وعضضتُه عضَّ امرئٍ نشوانِ
عطفَ الأبوةِ نفحةٌ علويّةٌ
ولذاذةٌ كلذاذةِ الإيمانِ

وينظر الشاعر بعينيّ خياله إلى المستقبل فيتصوّر ولده وقد أصبح يباهي أترابه ويفاخرهم برجولته المكتملة، ويقف إلى جانب أبيه الشيخ العاجز ليشدّ من عضده ويفاخر بشعره مقابل ما أولاه من حب في صغره وبرّاً به ورعايةً لحقه، ووفاءً لما له في عنقه من ديون.

وإذا نظرت أرى الذكاء مجسَّداً
ومخايل العظماءِ والشجعانِ
فإخال أنك صرت في عهد الصبا
بشبابك الزاهي على الفتيانِ
تبدى لهم فخراً بشعر أبيك أو
تسبي عقولهمو بسحر بيانِ
حتى إذا اكتملت علومك كلها
وغدوت في الدنيا رفيع الشانِ
وغدا أبوك يدب شيخاً عاجزاً
ذا هيبةٍ في شيبه النوراني
أوليته العطف الذي أولاكه
في المهد إذ كنت الضعيف الواني

***

أبنـــيّ تملؤنـــي أمـــان جمّـــةٌ

لمـــا أراك تَـــدبُّ عـــن تبيـــاني

أعـــددت منـــك مســـاعداً ســـنداً إذا

عصفـــتْ ريـــاح العمـــر فـــي بســـتاني

تضنـــي علـــيَّ مـــن احـــترامك هالـــةً

عنـــد المشـــيب بقدســـها ترعـــاني

وأخيراً ينهي الشاعر رائعته بهذه الوصية الغالية التي يوجهها إلى ولده أنس مستشرفاً بها المستقبل:

أأبـــا علـــيٍّ والبنـــوة نشـــوةٌ — قلمـــي ينـــوء بوصفهـــا ولســـاني

إمـا طوانـــي المـــوت فـــي أعماقـــه — ورثـــاني الشـــعراء مـــن إخوانـــي

وكتبتَ ما منك ارتجاه بنـو الـورى — عنّـي وعن فنـي وعـن ألحـاني

أخـــبرهمو أن الســـعادة كلّهـــا — طفـل يضـمّ أبـاه فـي تحنـانِ

وفي قصيدته "جسر المجد" نجد شاعرنا يعلن للدنيا بأسرها أنه قد أصبح أباً لطفلين، وذلك بعد أن منّ الله عليه بولده الثاني "هاني" وأن أبوّته هذه تحتم عليه أن يهجر اللهو واللعب وأن يلزم نفسه بالجد والكسب والعناء من أجل أن يوفر لطفليه ما يليق بهما من الحياة الكريمة اللائقة[18]

قـــد غـــدوتُ الآن فـــي الدنيـــا أبـــا

وبرغمـــي قـــد هجـــرت اللعبـــا

أنـــتَ جـــاء وهـــاني فـــاصنعي

لهمـــا يـــا نفـــس مـــا قـــد وجبـــا

[18] ص73 حنين الليالي

جـــاء طـــورُ الجِـــدّ والكســـب ومِـــن

أجـــل أولادي عشـــقتُ النَّصَبـــا

وقد أدرك الشاعر أن ولديه يواجهان عالماً مفعماً بالرعب، مكتظاً بالذئاب الغادرة، فوجد أن من حقهما عليه أن يوصيهما بالتحلي بالجد والاجتهاد للوصول إلى الرتب العالية التي لا يصل إليها غير المغامرين الشجعان والمخاطرون الأشداء:

يـــا بنـــي قلبـــي وروحـــي أشـــتهي

أن أراكـــم تعتلـــون الرُّتبـــا

غـــير أنّ الجســـر للمجـــد علـــى

نهـــر الهـــول تَمطَّـــى مُرعبـــا

□□

الفصل الرابع

الرثاء في شعر علي دمّر

ليس لعلي دمر في هذا الباب سوى قصيدتين صاغهما في رثاء والدته التي مُني بفقدها قبل أن يُتمّ العقد الثاني من عمره.

وبفقد عليٍّ أُمّه تضاعف إحساسه بالوحدة ومرارة اليتم، لأن والده كان قد انتقل إلى جوار ربه قبل أن يستهلّ صارخاً بشهور قليلة.

وقد حُقّ لعليٍّ أن يبكي والدته بكاءً صادقاً صوّر فيه حزنه الشديد، وآلامه النفسية، ومعاناته من قِلّة النصير، وحرمانه من الحنان، ووحدته التي لم يعد يؤنس وحشته فيها أيُّ جليس.

والملاحظ أن علياً في رثائه قد ترسم خُطا الشعراء القدامى فهو يبدأ قصيدته الأولى "إلى الخلد يا أماه" بالدعاء على مَنْ نعى إليه والدته، بالرغم من أن الناعي لا ذنب له. لأنه ليس أكثر من ناقل خبر لم يتسبب في موت من نعاه، غير أن علياً لم يرَ في النعي إلا سهماً قد سدّده الناعي إلى صدره فأدماه:[19]:

ألا أيّها الناعي نعتكَ النوادبُ

وولولَ بيكيك الثّكالى النواحبُ

رشقت إليّ اليوم سهماً مسدّداً

فأدمى فؤادي وهو بالطعن ثاقبُ

[19] ص 21 رعشك

لقد وضع الناعي الشاعر في حالة اضطراب نفسي جعلته يظن أن نعيَ أمه ليس إلا مزحة ثقيلة من صديق يداعبه، ولكنه لم يلبث أن يثوب إلى رشده بعد أن يعاوده اتزانه النفسي فيعلم أن موت أمه ليس إلا حقيقة واقعة جعلته يجهش بالبكاء، وجعلت شبابه ولونه يحولان إلى صفرة شاحبة تشي بما يعتمل في صدر صاحبها من ألمٍ مبَرِّحٍ وحزن عميق.

أفي الحقِّ يا أُمّاهُ ما جيء لي بهِ

بأنك تحت الترب والموت حاجبُ

بسمتُ له لما أتاني كأنني

حسبتُ مزاحاً من صديقٍ يداعبُ

فلما علمتُ الصدق أجشهتُ باكياً

وحال شبابي صفرةٌ وهو شاحبُ

ويأتي رفاق الشاعر لتعزيته، ولكن هول الفاجعة يجعله عاجزاً عن الرد عليهم بغير الدموع التي ذَرَفَتْها عيناه:

وجاء رفاقي للعزاء بجمعهم

يقولون لا تحزن عدتك النوائبُ

فلم أستطع ردَّ الجوابِ وإنما

تصدَّع رأسي والدموع سواكبُ

وقد استنكر عليَّ رحيل أمه السريع، وهو ما يزال فتىً غضَّ الإهاب لم تصقله الأيام، ولم تُحَنِّكْهُ التجربة، فراح يناشدها أن ترفق بوحدته لأنها كانت أنيسه الوحيد الذي يعينه على مجابهة عبوس الزمن ومرارة الحياة.

وكيف رحلت اليوم؟ لم أبلغ المُنى

وسني إلى العشرين كادت تُقاربُ

حنانَك يا أماه، رفقاً بوحدتي

فما لي في ذا الكون بعدك صاحبُ

وكنتِ أنيساً لي إذا الهم زارني

وعبَّسَ دهري وجهه وهو قاطبُ

وبعد أن يُذكِّرَ أمَّه بحدبها عليه فيْ طفولته ينتقل إلى تصوير إحساسه المرير باليتم المضاعف الذي لا يهوّن من قسوته عليه سوى إيمانه بأن الموت كأسٌ مترعة لا بُدّ أن يشرب منها جميع الناس.

حنانَك يا أُمّاهُ أنت أنيستي

بدنياي. مات الأُنسُ والدمعُ جالبُ

فيا دمعُ أنجدني ولاكَ ناضباً

وكيف أرجي الدمع والدمعُ ناضبُ

كفى أنني إذ جئت للكون لم أجد

بهِ من أبٍ واليتمُ للطفل ناكبُ

وما الموت إلا الكأس للناس مُتْرَعٌ

وكل امرئ من ذلك الكأس شاربُ

ومع استيعاب الشاعر للصدمة نراه ينتقل إلى تصوير صبره وصموده في وجه العوادي والأهوال وعزمه على مواجهة الرزايا التي عقدت معه حلفاً حتى ألفها وألفته.

وكلُّ رزايا الدهر طُرّاً عرفتُها

وسيفي ماضٍ في النوازلِ ضاربُ

لئن كانت الأيام تبغي مَذَلَّتي

فإني شديدٌ علمتني التجاربُ

أنـــا الجبـــل المرفـــوع فـــي كـــل قـــوّةٍ

وكـــل عـــوادي الدهـــر وَبْـــلٌ تَنـــاوَبُ

وفي ختام القصدية يدعو الشاعر لأمه بأن تكون ممـن تشملهم رحمة الله لما امتازت به من تقوى وصلاح، ثم لا يلبث أن يذكرنا بأبي الطيب المتنبي في رثائه لأمه وفخره بها حين قال:

ولـــو لـــم تكونـــي بنـــت أكـــرم والـــدٍ

لكـــان أبـــاك الضخـــمَ كونُـــك لـــي أمّـــا

ويقول على بعد الدعاء لوالدته قولاً هو أقرب ما يكون إلى قول المتنبي.

إلـــى الخلـــدِ يـــا أمـــاهُ والخلـــد مســـكنٌ

لمثلـــك إذ فيـــكِ التُّقَـــى والمواهـــبُ

وإن كنـــتِ لـــم تُبقـــي مفـــاخر جمّـــةً

ســـواي فـــإن الفخـــر فيـــك لواجـــبُ

ولـــدتِ عليـــاً للبرايـــا حميـــدةً

فكنـــتُ كمـــا تجلـــو الظـــلام الكواكـــبُ

ســـأصعد فـــي الدنيـــا إلـــى ذروةِ العُـــلا

وإنـــي علـــى متـــن الســـحاب لراكـــب

أنـــا الشـــعر والدنيـــا خيـــالٌ لشـــاعرٍ

ســـتبلغُ منـــي مـــا تشـــاءُ الرغـــائبُ

ولما كان تأثير الحزن كتأثير الخمر المعتّقة يزداد كلما تقدّم به العهد وطال عليه الأمد نجد أن علياً قد أجاد في رثائيته الثانية "أشباح" أكثر من رثائيته الأولى، حيث صور مأساة يتمه تصويراً توارت فيه "الأنا" التي رأيناها مُتَضَخِّمةً في مرثاته الأولى لأمه.

لقد غطّت سحائب الحزن الكثيفة التي غلّفت حياة عليّ على "الأنا" عنده مما جعل هذه القصيدة تخلو من افتخاره بنفسه ومن تقمّصه لشخصية أبي الطيب. فقد بدأ قصيدته بتصوير نفسه وهو يسير بين القبور في ظلمة الليل باحثاً عن رسم قبر –هو قبر أمه– في إحدى الليالي العاصفة الهوجاء"[20]

ســـارَ بيـــنَ القبـــورِ واللّيـــلُ داجٍ

والريـــاحُ الهوجـــاءُ تعصـــفُ خَوّانـــةْ

يســـحب الســـاق باتئـــادٍ ويهـــوي

خارقـــاً رهبـــةَ الظـــلام وهَوّانـــةْ

ثـــم لمـــا اهتـــدى إلـــى رســـم قـــبرٍ

خـــرَّ فـــوق الـــثرى يتمتـــمُ قولـــةْ

وينكبُّ الشاعر باكياً على قبر أمه شاكياً افتقاره إلى حنانها، سائلاً عن حالها تحت التراب، وعن إمكان رؤيتها بعد أن برّح به الألم، وأضناه العذاب.

آه أمّـــاه والحنـــان دفينـــٌ

هـــا هنـــا يـــا رؤوم تحـــت الـــترابِ

كيـــف يـــا رب ترقـــد الآن أمـــي

جـــفّ دمعـــي وغـــاض مـــاء شـــبابي

هـــل أراهـــا؟ وكيـــف غـــابت؟ فـــإني

بعدهـــا الآن فـــي أمـــر العـــذاب

ويستمر الشاعر في شكواه إلى أمه مصوراً افتقاره إلى مَنْ يرحمه ويعطف عليه بين الناس، ورهبته من الظلام المخيف، وكيف أنه لم يعد بين المخلوقات من يشفق عليه غير النجوم والرياح:

[20] ص29– رعشة

لـم أجـد لـي بيـنَ الأنـام رحيمـاً

بعدَمـا غبـتِ فـي الـثرى عَـنْ عيونـي

آه يـــا أمَّ والظـــلام كثيـــف

زاد فيـــه تـــألمي وشـــجوني

أنجـم الليـل أشـفقت مـن زفـيري

أصغـت الريـح فـي الدُجـى لأنيـني

ووالدة الشاعر التي كانت مصدر سلوانه وعزائه في حياتها، قد أصبحت منبع حيرته وشقائه بعد وفاتها. كيف لا وهي لم تعد تصغي إلى شيء من توسلاته، ولا تعلم شيئاً عن تنكر أقرب أقربائه وخيانتهم له:

كنـت بـالأمسِ سـلوتي وعزائـي

ثـم أمسـيت خـنزيرتي وشـقالي

تحـت هـذا الـثرى تقيمـين مـا إنْ

تسـمعين الوجيـب حيـن ندائـي

خـانني النـاس بعـد موتـك حتـى

إخوتـي منهمـو لقيـتُ بلائـي

وفي رقّةٍ بالغة يوجه الشاعر عتبه إلى أمه التي تركته قبل أن يشتد عوده، وتُكْتَشَفُ مواهبه وخصاله:

ضعـتُ يـا أمَّ فـي الحيـاة كـأني

لؤلـؤٌ تحـت هـذه الأوحـالِ

مـا درى الكـون مـن ذكـائي ونُبلـي

غـير أنـي مشـرَّدٌ سـاء حـالي

لـم أزل بعـد فـي بدايـة عمـري

كيـف أسـرعت للفنـا والـزوالِ؟!

ويبلغ الحزن واليأس بالشاعر حداً يجعله يتمنى الموت، بل يتمنى لو أنه لو لم يجئ إلى هذه الحياة.

آه أمّـاهُ قـد مَلَلْـتُ حيـاتي.

قـرَّ يأسـي وضـاع منـي رجـالي

أتخطَـى بيـن الأنـام نحيـلاً

أشـتهي المـوت هازئـاً بالبقـاءِ

ليتنـي لـم أكـن ولـدت فخـيرٌ

مـن شـقاء الحيـاة دنيـا الفنـاءِ

وتثور في الشاعر رغبة التحدي فيوجه خطابه إلى الرياح طالباً منها أن تعصف بشدة كي تثير الرعب في أعماقه، وإلى القبور أن تُغني لأشباح الجن التي تتراقص بينها، وأن تشارك الرياح في نسف بردته التي يتلفع بها، وإلى السحب أن تغمره بالثلج لعله يختفي عن عيون دهره ويستريح:

اعصفـي يـا ريـاحُ فـي الليـل عَصفـا

وابعثـي فـي الدُجـى بنفسـي خوفـا

واهزجـي يـا قبـور بـالجن رقصـا

وانسـفي بردتـي مـع الريـح نَسْـفَا

واغمرينـي يـا سُـحْبُ بـالثلج يهمـي

علّنـي عـن عيـون دهـري أخْفـى

ويستمر الشاعر في التعبير عن عدم رغبته في الحياة في صور مختلفة إلى أن يوجه خطابه إلى الأشباح الحمقاء التي تهيم بين القبور، طالباً منها أن تمزقه

إرباً، وأن تحمله إلى دار الفناء لعله يلتقي فيها روح أمه التي لا يجد السرور إلا بوجودها.

آه حمقى الأشباح بين القبور

مزّقيني ثم احملينـي وسيري

نحو دار الفناء علّي ألقى

روح أمي فأغتدي في حبور

إيهِ حمقى الأشباح نحو خيالي .

قرّبي واصحبي وضجّي وثوري

ويظل الشاعر على هذه الحال من اليأس وكره الحياة حتى يخر منكباً على قبر أمه مبللاً ترابه بدموعه، إلى أن تأتي أخته التي بحثت عنه طويلاً حتى وجدته عند الفجر على هذا الوضع المُحزن.

ثم أغفى على يديه صريعاً

راجفاً بلل التراب بدمعة

فتّشت أخته عليه طويلاً

وديوك الصباح رنّت بسمعة

ثم جاءت نحو المقابر حيرى

فرأته بين القبور بوضعة

****

الفصل الخامس

المجتمع في شعر علي دُمّر

انطلق علي دمر في تصوير المجتمع وموقفه منه ومن الناس الذين يتألف منهم من إحساسه المبكر بالظلم. فقد ولد شاعرنا يتيماً لم يُقدَّر له أن يرى أباه، ثم لم يلبث أن أصبح لطيماً وهو فتى يافعٌ غضُّ الإهاب، لم تنضجه الخبرة، ولم تحنكهُ التجربة، ولم تَشتدّ من ساعده الأيام.

وقد كان يُتمُهُ المضاعفُ هذا شهادةً كافيةً أهّلته للالتحاق بحزب البؤساء الذين يجثم فوقهم الفقر بكلكله، ويطحنهم الشقاءُ برحاه.

يقول شاعرنا مصوراً هذه الحقيقة:[21]

جاء للكون لم يجد فيه إلا

ظُلُماتٍ من بُؤسه وعذابه

كل شيءٍ لديه أغلق بابا

غيرُ قصر الأحزان فهو ببابه

أمُّهُ غالها اقتحام المنايا

وأبوه من قبلها في ترابه

[21] ص10 رعشات

وقد كان من البدهي في هذه الحالة أن يقف علي إلى جانب المعذبين والمستضعفين، وأن يوجه سهام سخطه إلى طبقة الموسرين من أصحاب رؤوس المال والإقطاعيين الذين استغلوا الفقراء أسوأ استغلال، ولم يجودوا عليهم بغير الفتات الذي يقيم الأوَدَ حتى يتمكنوا من الاستمرار في القيام على خدمتهم وتنمية ثرواتهم. وقد رأى عليّ قبل أن يشنّ حملته على المستغلين أن يحدد للناس ولهزلاء خاصة موقفه الاجتماعي وانتماءَه الطبقي مفاخراً بانتسابه إلى طبقة المسحوقين من العمال والفلاحين والأجراء الذين تبنى الأركان بجهودهم في وقت السلم، وتصان الأرض بارواحهم في زمن الحرب، وعلى الرغم من هذا الدور العظيم الذي ينهضون بتأديته فإنهم لا يجنون إلا القليل، وهم الذين على أكتافهم يصعد القادة، ويرتقي الزعماء[22]

قال المباهي أمامي ... أجدادي العظماءُ
أنا سليل المعالي ... وقومي الأتقياءُ
والناس من حول قومي ... همُ العبيدُ الإماءُ
فأنت، من أنت؟ قُلْ لي ... ما نسبةٌ؟ ما انتماءُ؟!
فقلت: يا ابن المعالي ... ليُخسِئنَ الإصغاءُ!
أنا فقيرٌ وأهلي ... جميعهم فقراءُ
أنا تعيسٌ وأهلي ... جميعهم تُعساءُ
فإخوتي وجدودي ... جميعهم أجراءُ
عمالُ صُنْعٍ وزَرْعٍ ... تُظِلُّنا الرمضاءُ
أنا ابن قومٍ بجهدٍ ... غذاؤهم والكساءُ
هم البُناةُ وما للحياة ... عنهم غَناءُ
هم الجسورُ لبرقى ... القوّادُ والزعماءُ
وقود سِلْمٍ وحربٍ ... ومنهمُ الشهداءُ

[22] ص 119 غيوبة الحب

من هؤلاء أصولي ... ومنهمُ الأقربـاءُ
هذا انتسابي وفخري ... فقُلْ بهِ ما تشاءُ

وقد صوّر لنا الشاعر صراعه مع المجتمع ونتيجة هذا الصراع وموقفه منه في قصيدته "حياتي" التي بدأها مخاطباً حبيبته[23]:

هكذا يا مُنى الفؤاد حياتي
شبحٌ في غياهب الحادثاتِ
من أنينٍ لما مضى، وحنينٍ
لشعاع المُنى بدنيا الآتي
لم أزل سائراً على الشوك عمري
ومرادي الوصول للجناتِ
غير أني لم ألقَ إلا حطاماً
أحرقته مطامعُ الشهواتِ

وقد ذكر الشاعر سبباً آخر يبرر فيه فشله وخسارته، وهو اتصافه بالنبوغ الذي يثير حفيظة الناس ويدعوهم إلى محاربة أصحابه:

هكذا كل نابغٍ من بني الشعب
ذليلٌ والعز ملك الطغاةِ

وعلى الرغم من فشله فإن شاعرنا لا ييأس ولا يستسلم ولا يفقد أمله في النصر.

كلما شُدّدت قناةُ مصابٍ
لفؤادي تحطمت بقناتي
مصرع اليأس في لهيب رجائي
وذبول الخذلان في لفتاتي

[23] ص 19 حنين الليالي

ثم يصور لنا رأيه في الناس الذين لم يقدروا نُبْلَهُ وطهارته، بل رموه بكثير من النواقص، وراحوا يكيدون له بشتى الوسائل والأساليب، غير أن ذلك لم يمنع شاعرنا من مقابلة إساءاتهم بالإحسان، على الرغم من إيمانه بأن السعادة ستظل وقفاً على الأغنياء، وأن الشقاء سيظل من نصيب الفقراء:

عِشْتُ في الظهر والخيال وعند النا

س لاحت كثيرةٌ هفواتي

رشقتني سهامُهم وتَمَنَّوْا

أن أستجِبَ بهوة العثراتِ

غير أني أراهمو تحت سفحي

من صغارٍ كالنمل في الفلواتِ

وأذيب العمر الحبيب لأبني

لهمو عالم الهنا والحياةِ

غير أن الحياة فينا هناءٌ

لغنيّ ومِحْنَةٌ لعفاةِ

ولم يكن سخط الشاعر ونقمته على الظالمين الذين لا يفتؤون يحرمون الناس من أبسط حقوقهم وقفاً على ظُلاّم بلده، بل نراه يتعدى ذلك ليشمل الظالمين من جميع الشعوب، سواءً كانوا معاصرين أو سابقين.

استمعوا إليه وهو يأسى في قصيدته "بنت البلد"، لاضطرار سمراوات مصر إلى العيش في مهاوي البؤس والشقاء، ويتمنى أن يتمكّنَ شعبُهن من القضاء على مظاهر البؤس والتخلف والقهر حتى تبدو بنت البلد المصرية السمراء في أبهى صورة من صور الأناقة والجمال[24]

[24] ص23 حنين الليالي.

سمراءُ يا بنتَ الأساطير التي

رقصت بثورة نشوة الفنّانِ

لو لم تعيشي في مهاوي البؤس في

مهد الشقاء وعالم الحرمانِ

لو كان شعبك قد نفى عنه الكرى

وأباد أصلَ الفقرِ والإذعانِ

وتفهّمَ الدنيا ولم يخدعه ما

بيديه أهل الخبث والعدوانِ

لو سار شعبك في ظلال العد

لِ في ركب الحضارة في دنا العمرانِ

لظهرت في مجلى الأناقة والهنا

وخلقتِ دنيا من رضىً وحنانِ

وفي قصيدة أخرى نراه يخاطب النيل مذكراً إياه بما شهد في الماضي من مظاهر البؤس والنعيم واستباحة الأقوياء للضعفاء، وبما رأى من ملاحين أفنوا أعمارهم في الكدح دون أن يحصلوا على ما يكفل لهم الكرامة في هذه الحياة، بينما أسيادُهم الظلمةُ يرتعون في النعيم على ضفتيه[25]

ولكم شهدت البؤس جانب نعمةٍ

وعزيز قومٍ يستبيح ذليلاً

كم فيك ملاّحون حرمانا قضوا

كل الحياة متاعباً ورحيلا

[25] ص32 حنين الليالي

والظـــالمون ثـــووا بظـــل قصورهـــم

بـــــالضّفتين لذالـــــذاً وخمـــــولا

وقد آلم نفس الشاعر طغيان ظاهرة الانتحار التي تَفَشّتْ في بعض المدن السورية في ربيع سنة من سنوات الخمسينيات بسبب استفحال ظاهرتي الفقر والبطالة، فصور لنا موقفه من ذلك في قصيدته "ربيع الفقير" التي بدأها بقوله[26]

تجلّـــى الربيـــع بأزهـــارهِ نضيرَ الخمائلِ خُلْقَ السَّنا

وأشرقت الأرض في روعةٍ تقول لها العين ما أحسنا!

فمن ياسمين على غُصنيهِ ومن وردةٍ تعشقُ السوسنا

ثم انتقل إلى بيان أثر ذلك على كلٍ من الغني والفقير:

وآب الغنـــيُّ إلـــى نعمـــةٍ وآب الفقـــير كثـــير الضّنـــى

يعيـش التعيس بقـبر الأسـى ويحيا الرئيس بقصـر الهنا

يجيءُ الربيع ويمضي الخريف وليس لنا غير فصل العنا

لقد شـرب المـترفون السـرور ولم يبق في الكأس شـيءَ لنا

وهو يسائل المسؤولين الذين لا يفتؤون يتبجحون في تصريحاتهم الخادعة التي يزعمون فيها أنهم بعد أن حرروا البلاد من الاحتلال الأجنبي، قد تمكنوا من إرساء دعائم الاستقلال، وإحياء تراث بني أمية، وإشادة صروح العدالة والرخاء، ويقول لهم إن كان الأمر كذلك فلماذا استشرت ظاهرة الانتحار بين الفقراء؟

يقولـون نحـن بعهـد الرخـاء وعهد الجلاء وعهد المُنى

دحضنا العدوّ الذي عـاث في حمانا وعربد فـي أرضنا

وعُدْنا إلى عزّنا في الورى نعيـش بأوطاننـا وحدنـا

بعثنـا الـتراث الـذي شـاده أميّـةُ ثـم طـواه الفنـا

[26] ص70 المصدر نفسه

فمـا ذلـك الانتحـار الـذي نـراه يصـولُ علـى بعضنـا

ويمضي الشاعر في قصيدته شارحاً للمسؤولين كذب مزاعمهم التي يفندها استفحال البؤس بين فئات الموظفين الذين أصبحت رواتبهم عاجزة عن الوفاء بالحدود الدنيا من التزاماتهم نحو أسرهم مما يدفع بهم إلى الانتحار، ناهيك عن العاطلين الذين لا يجدون ما ينفقون:

لقـد ضـرب البـؤسُ أطنابـهُ وجـاع الفقـير ومـا أعلنـا

ولـم يستطع أن يـرى حولـه صغاراً تَصـارَخُ يـا جوعنـا

فخـارت قـواه وسـارت بـهِ إلى الموت في صمتـه مذعنا

"معاش" الموظـف فـي لحظـةٍ يطير فيصرخ "يـا شـهرنا"!

فكيـف الـذي لـم يجـد مهنـةً ولا من "معاشٍ" لـه يُقْتنـى؟!

ثم يهيب بالمسؤولين قبل أن يختتم قصيدته فيدعوهم إلى الإسراع في معالجة هذه المعضلة مذكراً لهم بأن بلادهم تفيض بالخيرات في الوقت الذي يجأر فيه المواطنون بالشكوى من الفاقه في مختلف أنحاء البلاد:

فيا مَنْ قبضتـم عنـان البلاد ويـا سـاهرين علـى أمرنـا

نعيش بأرضٍ تفيض الغنى ونشـكو بأرجائهـا بؤسـنا!

أينتحـر النـاس مـن فاقـةٍ وأنتم تصيحون مَنْ مـن مثلنـا؟!

ألا تنظرون شـؤون العبـادِ لقـد صرعتكـم كـؤوس الغنـى

وقد صور لنا شاعرنا في قصيدته "جسر المحبة" أساليب الإقطاعيين الظالمة في التعامل مع الفقراء[27]

يصرعُ الإقطاع مَنْ مرّ بهِ من الشعب عزيزاً مُجْتَبى

وإذا ما رضي الذلّ امروٌ قرّبـوه خادمـاً أو ذنبـا

[27] ص73 حنين الليالي.

وفي هذه القصيدة يوصي الشاعر أبناءه باتقاء الناس، والتعامل معهم في حذر شديد بعد أن ساء بهم ظنه، ولم يعد يثق بأحدٍ منهم:

فاتقوا الناس جميعاً مثلما ... يتقي الحافي بليلٍ عقربا

ثم يستأنف حملته على الطغاة والمستبدين مصوراً أساليبهم البشعة في الحفاظ على مصالحهم، والإبقاء على مظاهر السلطان في أيديهم:

ملك الأمر أولو الطغيان في ... هذه الدنيا وحازوا الذهبا

وأقام المالُ في أيديهمو ... دونَ حقّ الشعبِ حصناً أصلبا

وهبوا الحكم لمن شاؤوا على ... كلّ شعبٍ بالغباءِ انتكبا

بالدعايات أقاموا عرشهم ... جعلوا الصدق لدينا كذبا

قلّصوا العلم ليغفوا الشعب ... في هُوّة الجهل ذليلاً متعبا

والجهالات تنادي أنهم ... أوصلونا في المسير الشهبا

وعلي دمر لا يُعفي الفقراء والمسحوقين من المسؤولية، إذ إن خضوعهم واستسلامهم وتمجيدهم للطغاة هو الذي مكّن لهؤلاء من الاستمرار في التسلط والظلم ونهب الثروات.

ليس بدعاً عيشة النمرود في ... أمّةٍ تدعوه أماً وأبا

بيلغ السفّاحُ ما يرجوه في ... بيئةٍ سمّتهُ شهماً طيباً

تفرح الشاة إذا جزّارُها ... قدّم الماء لها والعُشبا

وقد حمل على دمّر حملة شعواء في قصيدته "الإنسانية المخدوعة" على أولئك الذين يتخذون من الأديان وسيلة للتفريق بين الشعوب من أجل تحقيق أهداف دنيوية رخيصة[28]

تباركتِ أديان السماء إلى متى ... يُلَفّقُ منك الأدعياء سلالما

ليرقوا لغايات الحياة ويرأسوا ... على اسمك شعباً بالجهالة حالما

[28] ص58- حنين الليالي.

وكم من عصاباتٍ لأسفه بغيةٍ ... تحلل باسم الله فينا الجرائما

تحذلق فيها كل أخرق حاسدٍ ... لئيم غدا للأكرمين مخاصماً

فمن لا يداريه يسميه كافراً ... ومن لا يداجيه يسميه ظالما

ولم ينس أن يُذكّر الناس بما نجم من مآسٍ عبر التاريخ نتيجة لاستغلال الأديان من قبل ذوي الأغراض المشبوهة:

وكم باسم طه والمسيح وغيره ... تفانت شعوب واستفاضت مآتما

وقامت زعاماتٌ وغيّبتْ ممالكٌ ... وشبّت حروبٌ تستبيح المحارما

وقد دفع ذلك الشاعر إلى أن يتساءل عن الغاية الحقيقية التي من أجلها نزلت الأديان:

فهل قصد الرحمن نشر عداوةٍ ... بأديانه؟ أم كان بالخلق راحما؟!

ثم لا يلبث أن يجيب على هذا التساؤل مبيّناً الغاية الحقيقية التي أنزل الله من أجلها الأديان على الناس:

معاذ إلهُ الناسِ يبغي شقاءَهم ... ويختص شعباً دون شعبٍ مُكارما

ويأمُرُهُ بالفتك والعسف جاهداً ... ليغدو سواهُ بالمذلة راغما

أراد إله الكون بالدين ألفةً ... فحوّله الإنسان جهلاً تخاصما

وقد كره علي دمر ظاهرة التحزب والأحزاب، فعاش حياته مستقلاً لا ينتمي إلى جماعة أو تنظيم حزبيّ، مؤثراً الحفاظ على حريته الفكرية التي لا تُقيّدها الشعارات والمبادئ الحزبية، نابذاً التعصب لأيّة فئة من الفئات التي تدّعي احتكار الصواب وتخطئة الآخرين، لا يتعصّبُ إلا عندما تتعرّضُ أماني الشعب ومكاسبه للعدوان. ولا يستمدُّ أفكاره إلا من مباديء دينه الحنيف، ولا يعترف بغير زعامة الرسول الأعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه[29]

قالوا ادخل الأحزابَ فهي مفيدةٌ ... قلتُ انفرادي في حياتي أفيدُ

[29] ص105- حنين الليالي.

أنـا راهـبٌ أحيـا بغـير تنـاحُرٍ قلبي الوديـعُ عن التناحر موصدُ
حزبـي هـو الدنيـا بكـلّ فروعهـا أنـا كل هذا الكـون مـا أنـا مفـردُ
دينـي الـذي شـقّ الإلـهُ صباحَـهُ وزعيمـي الأعلـى الأجـلُّ محمّـدُ
أنا لا تعصُّبَ بي لحزبٍ في الورى إنَّ التعصُّـبَ خصلـةٌ لا تُحمـد
إلا إذا ديسَـتْ أمـاني الشـعب إذْ يطغـى عليـه ظـالمٌ مسـتعبدُ
فأنـا لهيـب حينـذاك مُؤجَّـجٌ يُصلى به الباغي ويُكوى المفسِدُ

وقد هاجم عليٌّ بعض التقاليد الاجتماعية التي تجعل من الفتاة الشرقية سلعة تباع بالمزاد في سوق الزواج، حيث يجبرها الأهل –غير آبهين برأيها– على الارتباط برجل لا تريده ما دام قادراً على شرائها بالثمن الذي يطلبون. يقول عليّ ناعياً على المجتمع هذا المسلك المشين:[30]

أين مَنْ يعرفُ الحقائق في الحبّ وبدري في الشرق كُنْهَ الأمورِ
التقـاليدُ كـلُّ شـيءٍ لَدَيْنـا وابتزازُ الأموالِ أصلُ الشرورِ
سلعةُ البيعِ في الـزواج فتـاةٌ فهي تُشترَى كأيّ شـيءٍ حقيرِ
ليسَ في بيعها بـأثمنِ مهـرٍ أيُّ فكرٍ عـن نفسـها والمصيرِ

****

(30) ص58– إشراق الغروب

الفصل السادس

السياسة في شعر علي دمر

ليس من السهل أن نفصل شعر الوطنية والقومية عن السياسة، لأن التجارب الوطنية والقومية في الشعر ليست إلا وليدة السياسة التي ينتهجها الحكام وَمَنْ وراءهم من الدول الكبرى المتنفذة التي تسيرهم وتحركهم وتجبرهم بشتى الأساليب على الدوران في فلكها إلى أن يقيض الله لهذه الدول الصغيرة من القادة الأحرار مَنْ ينقذها من هوّة التبعية والخضوع لإرادة الأجنبي وعملائه.

وهكذا نجد أن للشعر السياسي ثلاثة أبعاد.

البعد الأول هو البعد الوطني، وهو وليد انتماء الشاعر لوطنه الصغير واهتمامه بمشكلاته وقضاياه.

والبعد الثاني هو البعد القومي، وهو وليد انتماء الشاعر إلى أمته الكبرى ووطنه العربي الكبير وما يجمع بينه وبين أبناء الأمة والوطن الكبير من آمال وآلام مشتركة وغيرهما من أسباب الوحدة والاندماج.

والبعد الثالث هو البعد الإنساني أو العالمي، وهو وليد القضايا والمشكلات التي تهم أبناء الإنسانية في مختلف الأقطار بغض النظر عن اختلافهم في الجنس أو اللون أو الدين.

***

أحب علي دمر وطنه الصغير سوريا حباً عنيفاً صادقاً ضاعف منه وعمل على تعميقه إحساسه بالغربة التي أكلت معظم أيام حياته. لقد أحب عليّ وطنه

لشاعر الجمال
والحب والقتال
مفجّراً من كل حرف طاقة انفعال
في الروح والخيال.

وبعد أن طلب إليه أن يتحلى بالصبر ساعة تسلمه رسائله حتى يتمكن من قراءتها ينتقل إلى تصوير إعجابه بشعره:

ياصاحبي
قرأت كل شعرك الجميل
فكان إعجابي بلا مثيل
بأنضر العباره
وأرشق الإشاره
بالفن، بالغزاره
يا صاحب المدرسة الـ...

ثم لايلبث بعد هذا أن ينتقل إلى ترسيم مايأخذه على شعر نزار من بعض الشوائب التي تتمثل أكثر ما تتمثل فيما يحتوي من تناقض في الفكر والشعور.

لكنني ياصاحبي
فكرت في أمور
في شعركم تدور
تناقض خطير
في الفكر، في الشعور

ويبدأ علي في ضرب الأمثلة لهذا التناقض الذي لايرضى عنه، ولا يستسيغ وجوده في شعر نزار مبيناً موقف القباني من المرحوم جمال عبد الناصر وهو على قيد الحياة عند حدوث النكسة عام 1967م.[13]

فمثلاً موقفكم
من شخص عبد الناصر
تقول في –هوامش النكسة– "ياسلطان
ياسيدي السلطان
لقد خسرت الحرب مرتين
لأن نصف شعبنا ليس له لسان

على الرغم من أن هذا الوطن لم يعطه حقه في الحياةالحرة الكريمة فوق ثراه. بل اضطره إلى أن يقضي معظم أيام حياته غريبا مشردا باحثا عما يوفر لأسرته التي كانت تتنامى عاما بعد عام ما يكفل لها تهيئة الحد الأدنى من متطلبات الحياة الكريمة.

لم يتح لعلي أن يتمتع برؤية مجالي الحسن في بلاده إلا لماما، وفي فترات قصيرة متباعدة. وفي الوقت نفسه فإن هذا الوطن الذي حكم على شاعره بالاغتراب قد أغدق الرعاية على من لا يستحقها من التافهين الذين يحسنون فنون التزلف، ويجيدون اللون كالحرباء، معتمدين على ما يحظون به من رضا الظالمين المتقوين بسلطة الدولار وأهله، والذين استمرأوا أكل حقوق المعسرين البائسين متناسين ما يكمن في وجدان الشعب من حقد لن يلبث أن يعصف بهم ويطيح بما يتمتعون به من بطش وجبروت. (1)

وطني المحبب سوريا وعشيرتي
أهواه مهما عقّني وقلاني
إن كان فيه الشعب حيا ثائرا
متأصل الأحقاد والشنآن
والظالمون به أقاموا عرشهم
وبغوا على الحكام والسلطان
وأعين بالدولار عسفهمو ولم
يرعوا حقوق المعشر الحيران
فيه لمعدوم الشعور كرامة
وبه لرب الشعر كل هوان
يذوى به فن الأديب كما ذوى
في الروض من ظمأ جنى الأفنان
وتموت فيه العبقرية والحجا
ويعيش أهل الطيش والعدوان

ولكن روح الشاعر – على الرغم من كل هذه السلبيات التي تشوه وجه الوطن الجميل – لا تزال تهفوا إليه، وإلى ما فيه من أحباب وخلان، ولا زالت تتخيل أنها –برغم البعد– تحلق في أجوائه، وتتفيأ ظلال خمائله.

(1) صفحة 67 حنين الليالي.

وله هفت روحي على علاته
تشتاق للأحباب والخلان
وتعيش في وهم الخيال بجوه
برؤى الخمائل أو صدى الغدران

وإيمان الشاعر بوعي شبابه وقدرته على النهوض بالوطن يجعله واثقا من أنه لا بد محقق ما يصبو إليه من أمجاد في مجال الحضارة والرقي، ومن قدرته على الإسهام في تحقيق السلم العالمي الشامل الذي لا بد أن تنعم الإنسانية كافة بالعيش في ظلاله.

ويتخذ الشاعر من الإنجاز الكبير الذي حققه شباب وطنه في معركة الاستقلال وإصرارهم على رفض الأحلاف والمعاهدات دليلا على صدق ما يتنبأ به. (1)

ولقد يسير على طريق المجد في
ظل الحضارة ثابت الأركان
بشبابه الراني لآفاق السعلا
بالعلم والخلق الأصيل الباني
هم قاوموا فيه الطغاة وجففوا
سبل الفساد بيقظة الشجعان
لم يبق فيه لطامع متسلط
أمل ولا لمغرر شيطان
خدعت شعوب الأرض إلا شعبنا
بعهود حرب أو عهود أمان
فلتعلم الدنيا بأنا أمة
خلعت قيود الذل والإذعان
نبغي خلاص الكون من نار الوغى
ليعيش في السلم الهنيء الحاني

وكما رأى علي دمر نفسه ناطقا بلسان شعبه ووطنه الصغير سوريه، فقد عد نفسه معبرا عن مطامح أمته العربية ووطنة العربي الكبير،

(1) صفحة 68 حنين الليالي.

فراح يصور لنا موقفه من مشكلات أمته وقضاياها، ويعبر عن طموحاتها وآمالها مستنهضاهم أبنائها، منحيا باللائمة على طغاتها المستبدين الذين تاجروا بمأسي أمتهم وبلادهم.

إن أول ما يطالعنا في شعر على السياسي من شعره المصطبغ بالصبغة القومية هو افتخاره بالانتساب إلى هذه الأمة العظيمة التي لم تلن يوما لقوي، ولم ترض بالخضوع لظالم: [1]

قومي ذوو عزة ما لان عودهمو
لظلم باغ ولا ذلوا لذي غلب

وهو يقيم الدليل على صدق ادعائه هذا مستشهدا بالوقائع التاريخية:

سل جند فارس في ذي قار ما فعلوا
والقادسية ما لاقت من الحرب
لما مشت لجهاد الظلم خيلهمو
داست حوافرها الدنيا ولم تهب
يا يوم يرموك والتاريخ في عجب
وخالد يقذف الرومان باللهب

وهو عندما يفتخر بتاريخ أمته إنما يتخذ من ذلك وسيلة لحفز همم أبنائها المعاصرين، حتى يرفضوا الظلم والخنوع ، كما فعل أسلافهم، وحتى لا تتحول بلادهم ومقدراتها إلى أسلاب.

أبعد فتح وملك لا نظير له
تغدو متاعا لسلاب ومغتصب

(1) صفحة ٧٨ رعشات.

ما أقبح العيش في ذل وفي ضعة
من بعد عز وسلطان بناه أبي

وهو يعاهد خالد بن الوليد نيابةً عن أحفاده الأشبال بإعادة أمجاد اليرموك إلى الحياة، وبحتمية نهوض هذه الأمة من سباتها واستردادها عزتها وكرامتها.

لَبَّيْكَ يا خالدَ الغازين إنَّ هنا
أشبالَ صدقٍ يرون العيشَ بالنَّصَبِ
لا بد من وقعةِ اليرموك ثانيةً
يمشي بها النصرُ في أثوابه القُشُبِ
ونخسف الأرضَ أو نطوي السماءَ إلى
أن نَسْتَرِدَّ جميعُ العِزَّ لِلْعَرَبِ

وفي قصيدته "ويحُ اليهود" نراه يهدد شذاذ الآفاق ويتوعدهم بالويل والثبور، وعظائم الأمور [34]

سنلتقي لدى الهياج الأكبرِ
ونجعلُ الدماءَ مِثْلَ الأبحُرِ
ونخطفُ الهاماتِ خطفَ الأنسُرِ
بجحفل ضخم كيوم المَحْشَرِ
من كلِّ ليثٍ كاسرٍ غضنفرِ
نخوضُ في بحرِ النجيعِ الأحمَرِ
إن لا يحمحمْ في الطرادِ يَهْدِرِ

ويستمر في وصف أبناء العروبةِ وشجاعتهم واستبسالهم إلى أن يقول:

ويح اليهود من ردىً مُزَمْجِرِ
لمَا نوافي كالوباءِ الأصفَرِ

(34) ص81 رعشات

وعليٌّ لا يجد لإقناع العالم بأن ما حققه اليهود من نصر إنما هو نصر مؤقت حققوه في غفلةٍ من الزمن، وبأنه لن يلبث أن يزول ويتحطم على صخرة إصرار أبناء الأمة العربية على تحرير ما سلبوه من أرضهم، لا يجد لهذا الإقناع أفضل من أن يُضَمِّن ختام قصيدته تلك الأبيات التي تغنّى بها طرفة بن العبد التغلبي مُعْبِّراً بها عمّا ينتظر قبرةَ مَعْمَر من مصير حتمي لا مفرّ منه:

يا عَادَةَ اليهود لا تستتسري
"يا لك من قُبَرةٍ بمَعْمَرِ
خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري
ونقّري ما شئتِ أنْ تُنقّري
قد ذهب الصيَّادُ عنك فابشري
ورفع الفخُّ فماذا تحذري
لا بُدَّ يوماً أنْ تُصادي فاحذري"

وقد صدق علي رحمه الله –إذ ما كان للقبرة اليهودية أن تستتسر لو لم تغب عن أجوائها النسور العربية، ولو لم يرفع الصياد العربي ما ينبغي أن ينصبه لها من فخاخٍ وشراك.

وفي قصيدة "ضغط" يقول علي دُمِّر لأعداء الأمة الذين تكأكؤوا عليها كما تتكأكأ الأكلةُ على قصعتها إنّ شدةَ الضغط على هذه الأمة لا بد وأن يؤدي إلى انفجار غضبها الذي سيحوّل هؤلاء الأعداء إلى مزقٍ وأشلاء:[35]

دم العروبةِ يغلي في جوانحنا
يوماً ستَبدي أمانيه الميادينُ
والحَصْرُ بعد طويلِ الحصر يعقبه
تفجُّرٌ يحرق الأكوانَ مجنونُ
وكيف يحيا امرؤٌ فيه عروبتُه
إذا غدت في يد الأعدا فلسطينُ

[35] ص84- رعشات

يا مَنْ يحاول سلْبَ النّاسِ ملكهمو
العسْفُ والظلمُ يأتي بَعْدَهُ الهونُ
حانت لنا وقعةٌ حمراء طائشةٌ
للخصم من نارها ذلٌّ وتوهينُ

وفي قصيدة (وعود) يتخذ عليّ من الفخر بأمته والتّغني بأمجادها أسلوباً يحث به المعاصرين من أبنائها على النهوض وذلك عن طريق تذكيرهم بالرسالة الحضارية التي حملها أبناء الأمة العربية إلى شعوب الأرض:[36]

كَمْ ركزنا في الشرقِ منا بنودا
وقذفنا للْغَرْبِ منا جنودا
وأمامَ القضاةِ بالعدل منا
وقف الظلمُ خاشعاً رِعديدا
أمةٌ أنشأت صروح الحضارا
ت، وسارت في العز شأواً بعيدا
نحنُ قومٌ لنا الفخارُ إذا ما
قد ذكرنا مع الفخار جدودا
يومَ هَدُّوا هياكل الجهل والبغي
وشادوا للنور صرحاً مشيدا
وجَرَوْا فوقَ هذهِ الأرض كالأ
مواجِ زحفاً وكالرمالِ عديدا
طَهّرُوها من المظالم عَذْلاً
بعد أن كان تابعوها عبيدا

[36] ص86-رعشات

وتَستَفزُ مأساة اللاجئين شاعرية عليّ كما استفزّت وأثارت شاعرية غيره من شعراء الخمسينيات، فيصور ما يعانونه في خيامهم من بؤس وحرمان، وما يتهددهم من الجوع والذل، وما يحسُّون به من شوق إلى الأرض ومن فيها من الأحبّة والأهل والخلاّن.

يقول من قصيدته "اللاجئون"[37]

وخيـــام للاجئيـــن كســـاها الثلـــجُ
فـــي الليـــل بُـــرزدَةٌ كـــالقبراءِ
تتضـــاغى أطفـــالهم مـــن أذى الجـــوع
نيامـــاً علـــى ثـــرى الغـــبراءِ
إن عَـــوَتْ فـــي الصقيـــع والدجـــن ريـــحٌ
اتّقوهـــا بـــالعُزْيِ وســـط العـــراءِ
خلّفـــوا فـــي ديـــارهم كســـوةَ العـــزّ
وبـــاتوا فـــي كســـوة الغربـــاءِ
يـــتراءى لهـــم خيـــالُ قصـــورٍ
غادروهـــا فـــي الجنـــة الفيحـــاءِ
أيـــنَ جـــيرانُهم؟ وأيـــن ذووهـــم؟
واجتمـــاع الأحبـــابِ والأقربـــاءِ
فرقتهـــم أيـــدي الزمـــان ونـــار الـــ
خصـــم فـــي تيـــهِ ذلّـــةٍ وبـــلاءِ

[37] ص76- حنين الليالي.

ولا ينسى عليّ أن يصور ما أُلصِقَ باللاجئين من تهم باطلة، وما بذل لهم تجار السياسة الذين صنعوا مأساتهم من وعود كاذبة، مبيناً لهؤلاء التجار أن الشجب والاحتجاج لا يعيدان شيئاً من الحقوق، ولا يُحرران شبراً واحداً من الأرض، لأن ما سُلبَ بالقوة لا يمكنُ أن يُستَرَدَّ إلاّ بالقوّة:

إنْ أتَـــوْا بَلْـــدَةً لِيُلْقَـــةِ عيـــشٍ
قيـــل عنهـــمْ أســـبابُ نشـــر الغـــلاءِ
شـــردوهم عـــن مـــالهم ثـــم قـــالوا
لكمـــوا عندنـــا جزيـــل العطـــاءِ
أيهـــا الســـالب الجـــواد تفضّلْـــتَ
وأمنـــــبَغْتَ وافِـــــرَ الآلاءِ!!
هـــذه حجـــةُ القـــويّ وهـــذي
ســـنةُ الكـــون محنـــةُ الضعفـــاءِ
لا يـــردُّ الحقـــوق مـــن غاصبيهـــا
غـــير نـــيران ثـــورةٍ حمـــراءِ
كـــم دفعنـــا بالاحتجـــاجِ اعتـــداءً
لـــمْ يُفِـــدْ غـــير نكبـــةٍ واعتـــداءِ

وعلى دمر مؤمن أشد الإيمان بأن عودة هؤلاء اللاجئين الذين أُخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً لا بد متحققة، وقد صور لنا هذا الإيمان في قصيدته "النازحون" التي أهداها إلى صديقه كاتب هذه السطور بمناسبة صدور ديوانه الأول "الضائعون"[38]

[38] ص144- غيوبة الحب

زأر الشـــاعر الرهيـــف: كفـــاكم

ليـــس شـــعبي بيـــانس أو ضعيـــفِ

الشـــريدون والطريـــدون يومـــاً

ســـيهزون عـــالم الـــتزييفِ

إن يـــكُ العصـــر عصـــرَ نـــور وعلـــم

فـــأراه كتائـــبٍ مكفـــوفِ

وحطـام الأخـلاق فـي عصرنـا البـا

غـي شـظايا ضميـره المنسـوفِ

هـؤلاء الضعـاف يومـاً سـيبدو

منهمـو كـل مـارد وعنيـف

إن يكونـوا قـد شُـرِّدوا فـي شـتاءٍ

سـيعودون عنـد عـود الخريـفِ

لـن يضيعـوا فـالدهر يخجـل إمـا

كلفـوه بمثـل ذا التكليـفِ

لـن يذلـوا فـالذل أحقـر مـن أن

يتلاقـى بـالعرب بيـن الصفـوفِ

وقد صدقت نبوءة الشاعر، إذ لم تلبث جموع هؤلاء اللاجئين أن تحولت إلى كتائب من الفدائيين الذين أجبروا العالم على أن يعترف لهم بحق العودة وتقرير المصير.

وقد صُعق علي دمر عندما سمع بسقوط مدينة حيفا في أيدي العصابات اليهودية عام 1948 فراح يتساءل باستنكار .!"

مـا وراء الأصـداء يـا ليـلُ؟ هـل مـا

جـت بحيفـا كتـائبُ الأوغـاد؟!

أم يُلاقـون عنـد حيفـا حتوفـاً

كامنـات للغـدر بالمرصـاد؟!

وبعد أن صوّر لنا ما ارتكبته العصابات اليهودية من فظائع في تلك المدينة بدأ يَصُبُّ جام غضبه على جميع العرب والمسلمين الذين وقفوا يتفرجون على ما يحدث في حيفا وفي غيرها من المدن الفلسطينية، مطالباً بقطع ألسنتهم إنْ هُمْ همُّوا بالتغني بأمجادهم السالفة ومفاخرهم البائدة:

لهـف نفسـي للطفـل يذبـح فـي المهـد

فتسـري دمـاؤه فـي الوسـادِ

لهـف نفسـي للغانيـات الصبايـا

رائحـات مـع العلـوج غـوادي

يتصـارخن أيـن آباؤنـا العُـزبُ

وإخوانُنـا ذوو الإمجـادِ

أخـرسِ المسـلمين والعَـرَبَ طـراً

إن تغنـوا بسـالف الأمجـاد

ولا يجد الشاعر مناصاً من تذكير شباب أمته بكفاح أبنائها ومن إبداء استغرابه واستهجانه لقعودهم عن القتال:

كيـف ليلـي وكيـف ألقـى نهـاري

والعـدو اليقظـان مـلءُ البـوادي

يـا رفـاق الجهـاد كـم قـد رمينـا

زهـرة العمـر فـي وطيـس الجهـادِ

كـم سـبحنا علـى اللهيـب شـداداً

وامتطينـا فـي الهـول ظهـر الشـداد

قعـد الغُـربُ بعدنـا واسـتراحوا

عـن توالـي الأمـداد بـالأمداد

ولا ينهي الشاعر قصيدته قبل أن يحمل حملةً شعواء على المتحكمين في مقدرات هذه الأمة وغفلتهم وانغماسهم في الملذات.

والكبـار الكبـارُ فينـا رؤوسٌ

خـائراتٌ بـالجُبن والإفسـاد

خدعتهـم مـن العُـداة صنـوفٌ

مـن دعايـات لاذعٍ قـوّاد

وهمـو فـي النعيـم مـا دام فيهـم

لا يُبـالون بيغنـا للأعـادي

ثم يقارن بينهم وبين الأعداء الذين لم يتقاعس حتى نساؤهم عن حمل السلاح.

لهـف نفسـي علـى نسـاء الأعـادي

حـاملات فـي الحـرب ثُقـل العتـاد

وهنـا المـترفون هـاموا سـكارى

بالأغـاني والسـينما والرقـاد

يـا لَـذُلّ المُصـاب كـم بعـد هـذا

مـن دخـان يسـد أفـق البـلاد؟!

لم تصل أيدينا إلى أكثر من قصيدة واحدة من شعر علي دمر الذي صاغه من وحي السياسة العالمية وهي قصيدة "ابنة المال" التي حمل بها حملة شعواء على الولايات المتحدة الأمريكية التي عدّها أصلاً للشرور في هذا العالم

المضطرب المشحون بالمآسي والحروب، والمسكون بالرعب والخوف من جرّاء السياسة التي انتهجتها الحكومات الأمريكية المتعاقبة رغبةً منها في السيطرة على العالم والتحكم بمقدرات شعوبه التي عانت من أمريكا ما لم تعانِ مثلَهُ من أيةّ قُوّة كبرى عبر تاريخ الإنسانية الطويل.

وقد بدأ علي قصيدته هذه في تصوير الأساليب التي يتخذها الأمريكيون من أجل السيطرة على الشعوب[39]

كـم تُعـانين فـي الشـعوب اصطيـادا

وتواليـن حنكـةً واجتهـادا

بالصداقـات والتحـالف أضحـى

كـل مـا فـي الوجـوه منـك فسـادا

بـالدُلارات والمواعيـد صـار الـ

ـكـون سـوقاً تشـرين فيـه العبـادا

ثم يحمل الشاعر على حكام الشعوب المتخلّفة الذين يتهاوون راكعين أمام السيد الأمريكي متظاهرين في الوقت نفسه بمعاداة أمريكا وسياستها، بينما هم في الواقع ليسوا إلا أُجراء أذلاء يستخدمهم الأمريكيون في تشديد قبضتهم على شعوبهم ونهب ما يستطيعون من الخيرات، وتنفيذ ما يطمحون إلى تنفيذه من مخططات

كـم مليـك وكـم رئيـس وطـاغ

يتهـاوى علـى يديـك انقيـادا

خـدّر الشـعب بالأكـاذيب حتـى

نفـذت كلهـا غـدا جـلّادا

لـك يُـدى العِـداء وهـو أجـيرٌ

كـل مـا قـد أردتـه قـد أرادا

[39] ص51- حنين الليثي

راح باسم الشعوب يقضي ويمضي

والشعوب الغفلى تغطُّ جمادا

أشبعتها الأسياد عُرياً وجوعاً

وهي في الجهل تعبد الأسيادا

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى أمريكا مباشرة، واضعاً أمام أعين سياسيّيها ما جرّتْهُ سياسة بلادهم على شعوب العالم الثالث من مآسٍ ونكبات:

يا ابنة المال كم لمالك في الشعـ

ـرق مآسٍ تُقطِّعُ الأكبادا

في الأقاصي مجازرٌ وبحارٌ

من دماءٍ فجّرْتِها أحقادا

التلال الكبار قتلى وجرحى

أنت ضرّجتِها أذىً وعِنادا

هي تبغي الخلاص منك نضالاً

سوف لا يعرف الونى والنفادا

ولم يغب عن وعي الشاعر أن يكشف للأمريكيين أن الشعوب المكافحة قد عرفت الهدف الأكبر الذي تسعى السياسة الأمريكية إلى تحقيقه من وراء سعيها إلى تفجير الصراعات وإشعال نيران الحروب في شتى بقاع الأرض.

كلما شمت بارقاً لطغاة

رحتِ تعطينهم لسَفْكِ عتادا

أليبيع السلاح تصلين في الـ

ـنيا حروباً تزلزل الآبادا؟!

تغمرين الأكوان بالقتل كيلا

يلقى سوق الإنتاج فيك كسادا

وتذلين كل قطرٍ ليغدو

لرؤوس الأموال عندك زادا

ولم ينس عليّ أن يشير إلى حصّة العرب التي نالوها من جرّاء هذه السياسة الأمريكية البغيضة .

ولتهديدنا لتدخل حربا

قد أقمت اليهود تورى الزنادا

أجل لقد أدرك الشاعر أن السياسة الأمريكية التي عملت على زرع "إسرائيل" في قلب العالم العربي لم تهدف إلا إلى إبقاء هذه البقعة من العالم بما لها من قدرات شرائية هائلة على شراء السلاح في حالة توتر دائم وصراع مستمر.

ولم يفُتْ شاعرنا أن يسخر من إدعاء الأمريكيين من أن بلادهم ليست إلا سيدة العالم الحر بقوله:

أنتِ أمٌّ للعالم الحرِّ إما

كان معنى الحرية استعبادا

وقد اشتعل قلب الشاعر غيظاً من استغلال أمريكا لبعض رجال الدين الذين لا يتمتعون بأي وَعْي سياسي، فراحوا يمجدون أساليبها، ويدعون إلى الوقوف بجانبها، وقد أغاظه كذلك تظاهرها بالمحافظة على القيم المسيحية وهي أبعد ما تكون عن ذلك، وإصرارها على خلق زعماء تنصبهم على كرسي الحكم في مختلف بقاع الأرض دون أن يكون لأيّ منهم شيء من صفات الزعامة الحقيقية.

كم شيوخٍ أفتوا بأنك دينٌ

سيعيد الإسلام صرحاً مشادا

كـــم صليـــب رفعتـــه ليظنـــوا

فيـــك تقـــوىً وعفّـــةً ورشـــادا

كـــم زعيـــم خلقتـــه ليقـــود الشـــعب

نحـــو المـــراد منـــه اقتيـــادا

وأخيراً يبشر الشاعر أمريكا بقرب زوال هيمنتها على العالم، لأن الشعوب قد اكتشفت حقيقتها من جهة، ولأن سنة اضمحلال الامبراطوريات التي تسود ثم لا تلبث أن تبيد لا بُدّ جاريةٌ عليها كما جرت على غيرها عبر تاريخ الإنسانية الطويل.

يـــا ابنـــة المـــال لا يقيـــدك مـــال

يـــوم تصحـــو الشـــعوب يغـــدو رمـــادا

صـــاح بـــوق الجهـــاد فـــي الشـــرق مهمـــا

صغـــتِ حلفـــاً، غـــداً يلبـــي الجهـــادا

إن هـــذي الأحـــلاف ليســـت شـــعوباً

بـــل عيونـــاً فـــي قومهـــم أفـــرادا

أنـــت فـــي حالـــة احتضـــار فطيشـــي

واملئـــي الكـــون ضَجّـــةً وحـــدادا

أجل لقد أعلن المؤمنون بحقوقهم وحقوق بلادهم في الحرية والاستقلال نفير الجهاد، بل ونقل هؤلاء المجاهدون المعركة إلى عقر دار السيد الأمريكي الأحمق الذي لا يريد أن يتعظ بغيره أو يعتبر بسواه.

وتأتي رباعيات علي دمر التي تضمنها ديوانه "شعب الله المختار" في سياق الشعر الذي يصور فيه رأيه في السياسة العالمية. وقد اشتمل هذا الديوان -والذي يشكل الفصل التاسع من رباعيات علي دمر التي لم تُطْبَعْ فصولها الأخرى بعد -اشتمل على أربع وثمانين رباعية صاغها الشاعر في وصف اليهود وأساليبهم

الخبيثة في السيطرة على العالم، وما يزعمونه لأنفسهم من تَمَيُّزٍ على سائر البشر.

وقد اشتملت رباعيتان منها على تذكير اليهود بمعايشتهم العرب والمسلمين عبر التاريخ، وتضمنت ثمان منها تفنيد المزاعم التي تتلخص في ادعائهم أنهم شعب الله المختار، وخصّ الشاعر إحدى وأربعين رباعية بوصف أساليبهم الخبيثة في السيطرة على العالم، وضمّن ثماني رباعيات وصفه لأخلاق اليهود وما يتسمون به من وضاعة ودناءة ونذالة وانحطاط أخلاقي وحقد ودهاء.

وذكّرهم في إحدى رباعياته بما تعرضوا إليه من نكبات لم يتعظوا بها، ولم يستفيدوا شيئاً من دروسها، بل زادتهم سوءاً إلى سوئهم الذي جُبلوا عليه.

وفي خمس رباعيات صوّر الشاعر اتحاد اليهود -على باطلهم- وتفرق العرب على الرغم من أنهم أصحاب حق. وذكر في رباعيتين صلة القربى التي تجمع بيننا وبينهم، تلك الصلة التي لم تحل بينهم وبين أن يصبحوا أشد عداوة للعرب والمسلمين من غيرهم من البشر.

ثم كشف عليّ في إحدى رباعياته زيف ما يدّعون من أن الله قد وعدهم بالعودة إلى فلسطين، والتي يسمونها أرض كنعان أو أرض الميعاد، كما بين في رباعية أخرى أن يهود هذا العصر لا يشكلون أمة واحدة، لأنهم خليط متنافر من أعراق شتى لا رابط يجمع بينها غير الدين الذي يحاولون جاهدين صبغه بالصبغة القومية بوسائل مختلفة في طليعتها إحياء لغتهم الميتة.

وقد بدأ عليّ رباعياته تلك بتذكير اليهود بمعايشتهم لنا في بلادنا معايشة كفلت لهم أن يعيشوا معنا في بلهنية ورغد، ولكن ذلك لم يمنعهم من التحول إلى ذئاب مسعورة تنهش بلادنا وأجسادنا[40]

بكـــل بلادنـــا عـــاش اليهـــود *لهـــم تَـــرَفٌ ومـــالٌ لا يبيـــدُ*

فمنْذ حملوا السلاح عَدَوْا علينا *ذئاباً ليس توقفهم حـــدودُ*

ثم يذكرهم بعدم اتعاظهم بما أصابهم من نكبات على أيدي الشعوب الأخرى التي فاقوها في الإجرام والإرهاب[41]

---

[40] ص33- شعب الله المختار

[41] ص33- المصدر السابق

ويشكو يهود الأرض مما أصابهم — من الظلم في شتّى بلادٍ وأعصُرِ

وقد أحزنوا الدنيا بإرهاب هتلرٍ — فلما تولّوا جاوزوا عسف هتلرِ

ثم يُذكّرُ العرب باتحاد اليهود -على ما هم عليه من باطل- وإصرار العرب على التشبث بالفرقة والشتات دون تفكير في العواقب -على الرغم من أنهم أصحاب حق[42]

برغم الباطل اتحد اليهودُ — ورغم الحق تَقْصِمُنا الحدودُ

فباطلهم بوحدته انتصارٌ — وحق العرب بالفوضى شريدُ

ويتساءل الشاعر مستغرباً إن كان اغتصاب اليهود لديارنا تنفيذاً لوصية أبيهم الذي يزعم بأنه عمٌّ للعرب!![43]

وقالوا إننا أبناءُ عمٍّ — أيسحقُ عمنا دنيا أخيهِ

ويطردنا من الدار اغتصاباً — أهذا ما توارث عن أبيهِ

وينفي عليّ وجود رابطة نسب حقيقية تجمع بين اليهود الأمر الذي لايؤهلهم أن يكونوا أبناء عمومتنا، لأنهم ليسوا إلا خليطاً من حثالات شتى متنافرة لا يجمع بينها سوى الطمع في بلادنا وخيراتها[44]

همو من شعوبٍ عِدَّةٍ قد تهوَّدت

وليس بهم صدق انتسابٍ لأصلنا

حثالاتُ أقوامٍ بدون ضمائر

أتوا غرباءً طامعين بأرضنا

---

[42] ص34- المصدر نفسه.
[43] ص35- المصدر نفسه
[44] ص36- شعب الله المختار

وسحنُ اليهود اللئيمة لا تخفي ما تكن نفوسهم الوضيعة من الحقد الدفين والشر المزمن المتأصّل؟

خُلتْ سِحَنٌ لهم من كل خيرٍ — فليس بها سوى الحقد الدفينِ

فلا تُنمى لسامٍ أو لِحامٍ — ولا توحي سوى الشر الزمينِ

وفي كفر اليهود بالمبادئ السامية والمثل العليا التي تدعو إليها جميع الأديان السماوية، وإصرارهم على عدم الانصياع لتوجيهات المصلحين والحكماء وعبثهم بالقيم الإنسانية يقول الشاعر:[45]

لقد عبث اليهود بدين موسى — وحادوا عن هدى العهد القديمِ

وخانوا روح داود الكريم — وتوجيهات "سلمان" الحكيمِ

ثم يصور عداوتهم لكل ما ينزل من السماء من ديانات[46]

لقد حادوا عن الأديان طُرّاً — وقد قتلوا هداة الأنبياءِ

وقد عبدو إله الأرض مالاً — ومالوا عن تعاليم السماءِ

وفي تصوير جرائمهم البشعة في حق البشرية يشير الشاعر إلى جريمة أصحاب الأخدود التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والتي اقترفها الملك اليهودي ذو نواس في حق نصارى نجران. وقد قدر للشاعر أن يرى آثار تلك المحرقة بعينيه في إحدى زياراته للمنطقة التي حدثت فيها.

يقول الشاعر:

شاهدت محرقة الأخدود مبيّنةً — في جنب نجران تحكي قصة الرّعُبِ

قضى اليهود عليها في جرائمهم — واحرقوا أهلها في النار كالحطبِ

---

[45] ص38- المصدر نفسه.
[46] ص40 المصدر نفسه
ص41 شعب الله المختار

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى ربّه متسائلاً عن حقيقة ما يدّعيه اليهود السفهاء من أنهم "شعب الله المختار" وعما إذا كانت رسالة الشعب المختار تتمثل في سفك دماء غيره من الشعوب.[47]

يقولون يا رباه عنك سفاهةً قد اخترت شعباً واحتقرت سواهُ
فهل شعبك المختار جاءَ لغايةٍ ليَسفكَ من هذا الوجود دماه

وعلي دمر لا يصدق أن الله المنزّه عن الظلم يمكن أن يقطع وعداً لشعب حقير كاليهود بمنحه أرض فلسطين المقدسة كما يزعم حكماء صهيون، وأن يعبث بالشعوب ومصائرها كما يدّعون[48]

وهل أنت واعدت اليهود بعودةٍ إلى أرضنا غصباً ليسبوا ويسلبوا
وفيها خلقت العُرْب ثم أزلتهم معاذ إلهي بالخليقة يَلْعَبُ

وشاعرنا لا يعتقد أن شعب الله المختار يمكن أن يكون على هذا القدر من السفالة والانحطاط والوحشية[49]

أتختار أوباش الخلائق كلهم ومَنْ ملؤوا الدنيا فساداً مُدَبَّرا
ومَنْ عَبَدَ العجلَ النُّضار وأسرفوا بكل الخطايا واستباحوا دمَ الورى

ثم يخلص الشاعر إلى النتيجة التي يطمئن إليها قلبه فيقول موجّهاً خطابه إلى الله.[50]

فحاشاكَ مِنْ هذا ومِنْ كل خِسَّةٍ
فأنت إلهٌ الكلِّ والعدلُ واحدُ

---

[47] ص43 المصدر السابق
[48] ص44- المصدر نفسه
[49] ص45- شعب الله المختار
[50] ص46- المصدر السابق.

وكم زيّفوا عنك الكثير وأودعوا
شرائعهم ما شاء باغٍ وحاقِدُ

وأخيراً يتطرق إلى تصوير أساليب اليهود في السيطرة على العالم [51]

لنا في كل قُطرٍ خافياتٌ وكُتّابٌ، مجّلاتٌ، مدارسُ
نبلبل كل تفكير ونُغطي بها فوضى المباديء والدسائس

ويذكر الشاعر أن من تلك الأساليب سيطرتهم على المؤسسات الصحفية الكبرى التي ينفثون بواسطتها سمومهم وأفكارهم.[52]

كبار الصحف في الدنيا إلينا يعود الختل فيها والسمومُ
تُغذّي الناس بالتزييف منها ومنها يصدر الفكرُ اللئيمُ

ومنها سيطرتهم على دور النشر التي ينشرون فيما يصدر عنها من كُتب كل ما يريدون أن ينشروا من آراء فاسدة، ومبادئ هدّامة[53]

ودور النشر في الدنيا أذاعت كما نهوى من الفِكَرِ الأجيرَهْ
نُهَدِّمُ ما نشاء بها ونبني من الآراءِ في الكتب الوقيرَهْ

ومن أساليبهم التي وضعوها موضع التنفيذ تغيير النظم وقلب الحكومات، كما فعلوا بالقيصرية الروسية والخلافة العثمانية[54]

هدمنا القيصرية واتخذنا إلى هدم الخلافة ألف دَرْبِ
وساد الدونما في جيش تركٍ لعزل خليفةٍ ولشنق عُرْبِ

ومنها إجبار الفاتيكان على تبرئة اليهود من دم المسيح[55]

أمرنا مَنْ أردناه فلبّى وبَرّأ جُرْمَنا في أمر عيسى

---

[51] ص47- المصدر نفسه
[52] ص47- المصدر نفسه
[53] ص47- المصدر نفسه.
[54] ص48- شعب الله المختار
[55] ص48- المصدر السابق

وخالفَ دينهُ ولَرَبِّ يـوم يقول بأنني من دين موسى

ولم يكن إنشاء "هيئة الأمم المتحدة" سوى أسلوب من أساليبهم الجهنمية في السيطرة والتحكم في سياسات الدول[56]

في هيئة الأمم استطعنا أننا نُملي على الدنيا إرادة شعبنا

نلهيهمو بتجادلٍ وتنازعٍ وننفذ الخطط الرهيبة وَحدنا

ومن تلك الأساليب سيطرتهم على صناعة السينما في "هوليود" وغيرها[57]

فمن هوليود آلاف البغايا ذوات الحسن والفن البديعِ

لَهُنَّ بكل قلبٍ ألف جُرْحٍ وسحرٍ جاذبٍ مُهَجَ الجميعِ

ومنها دخول بعض اليهود في الإسلام لنسفه من الداخل[58]

كم من يهودٍ خفاءٍ قد أسلموا من دهورِ

وبعد وقتٍ طويلٍ قادوا خطير الأمورِ

ومنها الجاسوسية التي مكّنت جواسيسهم المتمرسين من التغلغل في أوساط العرب بأساليب ماكرة لا تخطر ببال أحد[59]

"كوهين" قاد طويلاً أمورنا بالخفاءِ

مهاجراً عربياً مبرقعاً بالوفاءِ

ومنها إنشاء الجمعيات العالمية كالماسونية التي تضم كثيراً من الشخصيات الحاكمة ونجوم الفكر والأدب والفن في كثير من البلدان والتي كان هدفها الرئيس هو القضاء على الأديان.[60]

[56] ص50 المصدر نفسه
[57] ص50 المصدر نفسه
[58] ص52 المصدر نفسه
[59] ص52- شعب الله المختار
[60] ص53- المصدر السابق

بجمعيات ماسونٍ كَنَّسَتْنا ديانات الجميع بكل دربِ

لنسرى وحدنا في كل نفسٍ ونغسل غيرنا من كل قَلْبِ

ومنها الهجوم على اللغة العربية الفصحى والتهجم عليها ووصمها بالتخلف وعدم ملاءمتها للتعبير عن روح المعاصرة، والدعوة إلى إحلال اللهجات العامية محلها للتفرقة بين العرب والتي تُعَدُّ لغة القرآن في مقدمة عوامل الوحدة التي يمكن أن تجمع بينهم. وإذا حدث ذلك فإن كل قطر عربي سيصبح مضطراً إلى أن يترجم ما يصدر في الأقطار العربية الأخرى من كتب حتى يفهمها بنوه بعد أن تكون قد كتبت بإحدى اللهجات العامية العرجاء[61]

على لغةِ العروبةِ كلَّ يومٍ هجومٌ قاصدٌ شَلَّ البيانِ

ليُصبح كلُّ قطرٍ في حمانا غريبَ الفكر مختلف اللسانِ

ومنها محاولة تحطيم الشعر العربي الأصيل، واحلال أنماط أخرى هجينة محلّه، على الرغم من عدم توافقها مع الذوق العربيي وما ألفه من تقاليد شعرية صقلتها القرون، ورسّخت دعائمها المنابر والمجالس عبر الأجيال[62]

وشعرُ الغُرْبِ أصّلوْهُ حُروباً بلا سببٍ سوى قتل المشاعرْ

صحيح الشعر سمَّوْهُ عمودا وسمَّوْا هاذراً بالسخفِ شاعرْ

ومنها إيجاد كُتّاب يدعون إلى ترسيخ دعائم الكيانات القطرية للحيلولة بينها وبين الوحدة أو الاتحاد، ولو عن طريق إشعال الفتن والحروب

كيانات هنا وهناك قامت تحارب بعضها حرب الإبادةْ

وكُتّاب لنا مِنْ كلِّ لَوْنٍ تفكّكُ أو تُذيب بنا الإرادةْ

وفي آخر رباعية من رباعياته يحذر عليّ أُمّته مما يخبئه لها المستقبل من أخطار تزحف عليها كالجراد:

[61] ص52 شعب الله المختار.
[62] ص53 المصدر السابق.

ونحن بغفلةٍ عمّا سيأتي ونسبحُ في شعاراتِ الأعادي

فيا ويحَ الغدِ المرقوبِ إنّي أرى الأخطارَ تزحفُ كالجرادِ

رحم الله أبا أنس الذي شهد في حياته كثيراً من الأخطار التي زحفت على أمته وديارها، ولكن الله رحمه فلم يشهد ما يتهددها من أخطار، وما يزحف عليها من مصائب تفوق ما شهده هو آلاف المرات.

****

الفصل السابع

الحب والغزل في شعر علي دُمّر

لا يختلف اثنان على أن علي دمر شاعر رومانسي غنائي، ولعل طبيعته وظروف نشأته واغترابه قد دفعته إلى هذا الاتجاه دفعاً حتى لم يعد في استطاعته أن يتحول عنه إلى سواه من الاتجاهات الفنية التي صبغت الشعر العربي في العقود التي عاشها عليّ.

وقد يجد الباحث في شعر عليّ ظلالاً لبعض المذاهب الفنيّة الأخرى كالكلاسيكية والواقعية، ولكن الرومانسية تظل هي الغالبة عليه. وقد ساعد على دفع الشاعر إلى هذا الاتجاه ما امتاز به من طبيعة شديدة الشفافية وحساسية مفرطة ونفس عظيمة كثيرة المطالب، وروح طموح توّاقة إلى ارتقاء مراتب لم تساعده ظروفه إلى الوصول إليها وتَسَنّم ذراها. وينبغي أن نضع في حسباننا انكباب الشاعر على قراءة الشعر المهجري، ونتاج شعراء مدرسة أبولو بعد أن فرغ من قراءة الشعر العربي القديم. ويبدو أن الشاعر قد أحبّ في أول عهده بالشباب، ولكن فتاة أحلامه -كما نفهم من قصائده التي صور بها ذلك الحب في ديوانه الأول "رعشات" -قد رفضته. وأغلب الظن أن هذا الرفض قد كان لأنها لم تجده في وضعٍ يؤهلُهُ للارتباط بها وهو المراهق اليتيم الفقير الذي لا يملك شروى نقير.

ومن أجل ذلك بقي عليّ طوال أيام حياته شاعراً بالحرمان والظمأ إلى حب كبير متبادل يملأ عليه حياته ودنياه.

كان شاعرنا على دُمّر يحسُّ بالحرمان أمام كل امرأة جميلة تضعها الأقدار

في طريقه، ويشعر بالظمأ إزاء كل حُسْنٍ أنثوي، ويعاني من لهفة عارمة على حبيبة تبادله الحب وتُنهِلُهُ وتُعِلُّهُ من كؤوس الغرام حتى الثمالة.

لقد كان في داخل علي طفلٌ كبير يتوق لأن يظل مرتبطاً بامرأة مثالية تجمع بين أعطافها جميع صفات الحسان، ويجد فيها أمَّهُ وحبيبته وزوجته وصديقته وأخته وغير ذلك من الأنماط النسائية التي ترتبط مع الرجل بوشيجة من الوشائج، أو علاقة من العلاقات.

كان يريد من المرأة التي يهفو إليها قلبه أن تجمع صفات جميع الإناث جسماً وروحاً، وأن يعمر قلبُها بكل ما في قلوب النساء من الحب والهوى والود واللهفة والشوق وغير ذلك من الأحاسيس الوجدانية التي ترتبط بالحب من قريب أو بعيد.

ولما كنا نعرف ما تنطوي عليه كلمة "الرومانتيكية" من معان ودلالات أدركنا ما يشيع في شعر علي من حزنٍ وكآبة، وما ينطوي عليه من وجد وهيام، وانطواء وهروب وانطلاق وتمرد، وتعلّق بالطبيعة وتشبث بالحب. ويقودنا ذلك -بلا شك- إلى إدراك السر في غلبة شعر الحب والغزل على نتاجه إلى درجة جعلت منه الموضوع الأول في شعره. وليس أدل على ذلك من أن هذا الغرض من أغراض الشعر قد غلَبَ على خمسة من دواوين الشاعر السبعة التي هي في متناول أيدينا.

لقد وصف علي المرأة حبيبةً وغريبة، وتحدث عنها واصلةً وهاجرة، وحلّل تصرفاتها وفيّةً وغادرة وهو في حديثه عنها في كل هذه الأحوال لا يقف عند الوصف الحسّي، بل يتجاوزه إلى الوصف المعنوي. وهو يُعنى قبل كل شيء بإبراز مشاعره هو تجاهها وتجاه كل تجربة من تجارب الحب، وإزاء كل موقف من مواقفه حيالها.

وربما نظر إليها في بعض الأحيان نظرة من تتملكه الشهوة أو تستبد به الرغبة فصوّر محاسنها الجسدية من وجه جميل، وعيون ساحرة، وقدٍّ ممشوق، وردف ثقيل، وسيقان مدملجة، ولفتة آسرة، وبنانٍ رخص وشفاه مكتنزه، وثنايا كاللؤلؤ الوضاح، ولكنه يفعل ذلك كله في غير تَبَذُّلٍ وإفحاش.

وبعد، فقد آن لنا أن نقف بعد هذا عند كل ديوان من دواوين عليّ لنتعرف على بدايات هذا اللون من ألوان شعره، وما طرأ عليه من تطوُّر مراعين في ذلك ترتيبها الزمني من جهة، والمراحل العمرية للشاعر ونموه جسدياً وفكرياً وعاطفياً من جهة أخرى.

الحب في ديوان رعشات

يُمثِّلُ شعر الحب في هذا الديوان نظرة المراهق إلى هذه القيمة الإنسانية العظيمة، ونظرته إلى الحسن والجمال.

وقلب المراهق كما هو معروف صفحة بيضاء، تفتقر إلى أية حصانة تحول بينه وبين التعرض لأي فيروس من فيروسات الحب، أو أية جرثومة من جراثيمه. وربما أحب المراهق أول فتاةٍ تضعها الأقدار في طريقه، سواء كانت هذه الفتاة مؤهلة لأن تُحَبَّ، أو غير مؤهلة لذلك. بل ربما تعلق بها المراهق تَعَلُّقاً يُخَيَّلُ إليه معه أن عدم تجاوبها مع حبه هو النازلة التي ما بعدها نازلة، وأن صدودها عنه هو الفاجعة التي لا تفوقها فاجعة. وقد يصل الأمر ببعض المراهقين الذين يفشلون في أول تجربة من تجارب الحب إلى حد التفكير في الانتحار تخلُّصاً من عذاباتهم، ومما يتوهمون أنهم قد وقعوا فيه من مأساة لا مناص لهم من التخلّص منها إلا بالموت.

وربما وجد المراهق شفاءه من فشله في تجربة حبه الفاشلة في حب جديد، وقد يتكرر ذلك مرات ومرات لأن عدم الاستقرار العاطفي سمة من سمات المراهقة لا تزول إلا بزوالها ولا يتخلص منها المراهق إلا بعد أن ينضج فيما يلي ذلك من مراحل الرجولة والشباب.

والمتتبعُ لقصائد الحب والغزل في ديوان رعشات يصعب عليه أن يتعرف ما إذا كانت هذه القصائد مصورة لقصة حب واحدة أو أكثر، حيث يختلط في معظمها تصوير الشاعر لوقوعه في الحب بشكواه من قسوة الحبيبة، وصدودها عنه، وهجرها إياه، وبتصويره لتأثير ذلك الحب عليه في حالتي الوصل والهجران، وتذكير المحبوبة بساعات الصفاء المنصرمة وبما حباها الله من جمود في الحس يجعلها لا تختلف كثيراً عن التماثيل الحجرية. وهو في معظم هذه القصائد يعلن رفضه للذل والخضوع للحبيب الذي لم يترك سبيلاً لإذلاله إلا سلكه.

ولنستمع إلى شاعرنا كيف يصور تعطشه للحب وشدّة تعلقه بالمحبوب في قصيدته "ظمأ"[1].

---

[1] ص37- رعشات.

أهـواكَ والقلـبُ جـرحٌ ... متـى أراك أهيجُـهُ

يـا روض تحلـو لعينـي ... غدرانُـه ومروجُـهُ

لا يُثْـمُ الزهـر لكـنْ ... يُشْـمُ لطفـاً أريجُـهُ

أهـواكَ حتـى كـأني ... أود أنـك منّـي

ولـو مُزِجْـتَ بروحـي ... لـزاد فيـك التمنـي

لا أرتـوي منـك حتـى ... لـو كنـت خمـرة دَنِّـي

ومحبوب الشاعر يفوق في رقته ودلالة النسيم العليل الذي يهفو إلى براعم الورد الندية.

مـا بُرْعُـمُ الـورد يبـدى ... لـدى الصبـاح النضـيرِ

يهفـو النسـيم إليـه ... مستنشـقاً للعبـيرِ

إلا دلالـك لمّـا ... تميـس عنـد الغـرور

وهو نعمة إلهية تجعل من يتنعم بها يحس بأنه يحيا في جنات الخلود التي لا هم له فيها سوى التسبيح.

يـا نعمـةً لسـت أدري ... أفـي الخيـالِ أراهـا

إذا انتشـقت شـذاها ... قدّسـتُ مـن قـد براهـا

الخلـدُ عنـدي لمـا ... أكـون بيـن رؤاهـا

والشاعر في ختام قصيدته هذه يصور لنا حرمانه من معاشرة هذا المحبوب، وأنه وحيد يَعُبُّ خمرة وجده، متسائلاً عن حال المحبوب الذي خلّفه وحده وهو يتجرّع مرارة العيش بعد أن كان ينعم بتذوق شهد اللقاء.

وحـدي وليتـك عنـدي ... اعـبُّ خمـرة وجـدي

وأنـت مـا أنـت بعـدي؟ ... هـل تسـهد الليـل سـهدي؟!

نسـيتَ سـالف عهـدي ... يـامُرُّ قـد كنـتَ شـهدي

وفي قصيدته "سواد" يصف لنا شعر حسناء كُلِفَ بها وأحبها، وجعل من شعرها عالماً جميلاً يهيم في أرجائه ويوقظ في نفسه ما شحب من ذكريات أحلامه وآماله.[2]

يـا لِشَـعْرِ الحسـناءِ كـم فـي دُجـاهُ ... ضـلَّ قلبـي فـي عاصفـات هـواهُ

يـا ليهـذا السـواد كـالحندس الفـاحم ... والليـلِ مـائجٍ فـي نـداهُ

هِبْـتُ فـي جوفـه شـريد الأمـاني ... لا أرى فيـه برقَـه ومسـناهُ

خَفَقَـتْ فيـه كـل ذات هبـوبٍ ... فـي سَـباتٍ مـا إن يَحِـدُّ مـداهُ

يـا ليـالي الشـتاء والـبرد والظلمـة ... أيـن الفـؤادُ؟! ضـاعت مُنـاهُ

السـواد الحزيـن يوقـظ فيـهِ ... شـاحباتِ الأحـلام مـن ذكـراهُ

وهو في ختام قصيدته يصرخ ضارعاً بقوله:

ألقنـي فـي السـواد حتـى ترانـي ... غمرتنـي فـي بَحْـرِهِ لُجّتـاهُ

وفي قصيدته "رؤى" يذكّرُ محبوبته بتلك الساعات الجميلة التي أمضاها بصحبتها في الربوة بدمشق[3]

---

[2] ص43 رعشات

[3] ص 46 المصدر السابق.

رؤىً مثلَ أحلام الطيور تعودني

فأسكر حتى لا أفيق من السُكْرِ

أإن لاح لي نجمٌ توهمتُ بسمةً

بثغرك إذ ما نلتقي في الرُبى الخُضْرِ

أراك بمجلى الشمس، في بهجة الضحى

وفي روضة الزُهرى، وفي هالة البدرِ

سلي الربوة الغنّاء كم بين حَوْرها

قضينا سويعاتِ الهناءِ بلا حَصْرِ

سلي بردى كم قد حملتك خالصاً

إلى الضفة الأخرى وأنت على ظهري

سلي القمر البسام كم في ضيائه

سمرنا وثغرٌ يرشفُ الراح من ثغرِ

سلي الزهر والأندى كم قد نظمتُها

عليك عقوداً في الجبين وفي النحر

رؤى ما أحيلاها إذا ما لمحتُها

أحسُّ لها قلبي يرفرف في صدري

فإن تُغفلي عهداً قضيناه في الهوى

فإني سأقضي في تذكره عمري

وفي قصيدة "غائب يصور لنا الشاعر ما خلّفه غياب محبوبه من آلام[4]

[4] ص46- المصدر السابق

يا غائباً طالما أشعلت في كبدي

نار الأسى، وأثرت الشعر بي غضبا

سعدت فيك زماناً بالغاً أملاً

وكنت فيّ سعيداً بالغاً أربا

أصبحت عني بعيداً ليس لي أملٌ

ولا أرجيّ طلوع البدر إذ غَرُبا

لو كنت تعلم ما بي من هواك إذاً

لما قسوت وصرت اليوم منقلبا

نسيت عهداً نعمنا في غضارته

بالقرب والأنس، ما أحلى الذي ذهبا!

قد كنت لي سلوةً في غربتي ولقد

أحسست بعدك أني صرتُ مغتربا

وعليّ كغيره من الشعراء الرومانسيين يستمرئ العذاب في سبيل الحب والألم في سبيل المحبوب، وقد برزت المازوشية هذه في قصيدته "قرّبي واحرقي.." في أجلى صورة وأوضحها[5]

أنتِ دنيا أهفو إليها وإنّا ... غبتُ عنها أرجعُ حبيساً كئيبا

علمتني عيونك الفنَّ لكنْ ... بعد أن أحرقت دمي تعذيبا

كنتُ أشكو من اللهيب فلمّا ... زال عني أصبحت أهوى اللهيبا

قرّبي واحرقي فؤادي فإني ... لست أبغي سواكِ مني قريبا

يا سكون الأيام يا بردها القار ... س دعني أريد حرّاً مذيبا

كان قربي جمالك السحر لكن ... كنتُ أبغي من حرقتي أن يغيبا

[5] ص53- رعشة.

ليت يدنو وإن فيه أشقى ... وأقاسي من العذاب ضروبا
قرّبي واحرقي فؤادي فإني ... أشتهي فيك باللظى أن أذوبا

أما قسوة الحبيبة المتمثلة في الهجر والصدود والتجاهل وأثر ذلك كله في نفس الشاعر فقد صوره لنا في عدد من قصائده منها "غمغمات" و"أأنتِ كتمثال فينيس" و"انتقام" و"لقاء" و"اذهب إليّ" و"قسوة وفي عدد من المقطوعات التي لا تحمل عناوين ففي قصيدته "غمغمات" يشكو الشاعر محبوبته المُدلّة بجمالها والجامعة لكل قساوات الحسان والتي أيأسته من وصالها، وجعلت منه عاشقاً فاشلاً لا يجد أمامه إلا أن يتوسل إلى الليل أن يثير في نفسه الحرى جميل الذكريات[6]

أيها الليلُ إذا مات ولم يحيَ الصباخ
وأنا في الكون شعرٌ وحنينٌ والتياخ
هائماً تحت الدياجي لا يواتيني ارتياخ
عبث الريح بشعري وغدا فيه وراخ
وتلاشتْ غمغماتي في صدى البيد الفساخ
فاعلَمَنْ يا ليل أني عاشق ضلّ النجاخ
جمعت هاجرتي كل قساوات الملاخ
فهي لا تبرح في التيه وفي زهو الجماخ
صرتُ أرثيها كما لو غالها الحينُ المُتاح
فأنا لا أرتجي من ذا الهوى وصلاً يُتاخ
كل ما ألقاه يا ليلُ ذبولٌ والتياح
أيها الليل إذا البدر تجلّى وسَفَرْ

[6] من 7 رعشات

وتمشت فوق ماء النهر أضواءُ القمر
فارعني يا ليل واخلُقْ لي ألفانين الصورْ
وأثر في نفسي الحرّى جميلات الذكرْ

وهو في قصيدته "أأنت كتمثال فينيس؟!" يتساءل عما إذا كانت مجرد تمثال يخلو من الأحاسيس بعد أن يئس من تجاوبها مع ما يقدم لها من حب صادق جعل روحه تسبح في عوالم مفعمة بالضياء والهناء[7]

عيونك في ليلها همّمتْ ... طيوف الأماني ودنيا الرؤى
وثغرك إن لاح لي باسماً ... يشعُّ ضياءً كبرق الدّجى
أراك فأغدو ضياً ساطعاً ... كأني رأيتُ إله السنا
وتسبحُ روحي في عالم ... بعيد يموج بنفح الهنا
ولكن نفسك في معزلٍ ... عن الوحي لم تدر معنى الهوى
أناجيك في وحشتي مثلما ... أناجي الجماد فما من صدى
أأنت كتمثال فينيس إذ ... يلوح ومن روحها قد خلا؟!

وفي قصيدة "انتقام" يبلغ اليأس بالشاعر حداً يجعله يفكر بوضع حد لحياته بعد أن أدرك أنه لا مطمع له في رقة قلب المحبوبة.. وقد أوشك أن يفعل ذلك لولا أن بقية من عزته وكبريائه حالت بينه وبين ذلك في اللحظة الأخيرة[8]

علمتِ بحبي ولم ترحمي ... فؤادي ورحت به تسخرين
أحبُّ فنائي لكي تنعمي ... وتهوين أنت شقائي الدفين
ونفسي تأبى خضوع الهوى ... ولو كان ناراً تذيب الحديد
وأفرطتِ أنتِ بطول النوى ... وليس لهذا الجفا من مزيد
ولما يئست ولم أستطع ... بقاءً على مَرّ هذي الحياة

[7] من 35 رعشة
[8] من 60 رعشة

وثـارت دمـائي ولـم أنتفـغ بعقلي وأفنى اصطباري الإلـه

جلستُ أحملـقُ فـي ظُلمتـي وأرنـو بغيظ إلـى خنجـري

وهـاج انتقـامي فـي عزتـي وصاح: جُبُنْتَ؟! ولـم أصبرِ

ويقص الشاعر علينا في قصيدته "لقاء" قصة التقائه صُدْفَةً بفتاة كان له معها تجربة حب سابقة بعد غياب استمر قرابة عام، وقد فوجئ الشاعر بتجاهلها له مما ينم على أن طول الغياب قد غيرّها وغيّر مشاعرها نحوه. وتمضي الفتاة في طريقها لا تلوي على شيء تاركة شاعرنا يتحسّر على ذكرياته الجميلة السالفة معها[9]

ثم لما أقْبَلَتْ صَدَّتْ ولم تَرْمِ السلامْ
وتولّتْ وهي غضبي باكتئابٍ وملامْ
أتُولّي عن لقائي بعدما قد غبتِ عامْ
ولهولِ البُعد فيه لم أذقْ طيبَ المنامْ
ما الذي جرى في غيابيّة؟!
هل تغيّرتْ؟ وامصابيّه!
نسيتِ هاجرتي ما في الهوى والابتسامْ
حينما كنا بدينا من حنانٍ وهيامْ
نتغنّى بالأماني مثلما يشدو الحمامْ
وتعاهدنا على الدهر بأن نرعى الذمامْ
أنتِ لؤلؤٌ يا دموعيّة
أطفئي اللظى في جنوبيّة
هل نسيتِ العيش غضًّا مورقًا تحت الظلالْ
بين أزهار الأماني البيض والماء الزلالْ
كم تحدثنا بأنسٍ في أويقاتٍ طوالْ
كم جلسنا في الضفاف الخضر أو فوق الرمالْ
يا ابنةَ الهوى أنتِ قاسيّة
أنتِ جَمْرَةٌ في ضلوعيّه

[9] ص6- ر عشك

وقد ناشد محبوبتَهُ في قصيدته "فاذهب إليّ.." أن يقوم بزيارةٍ إلى قبره إن هو مات شهيداً لذلك الحب القاتل كي يتذكر الأوقات السعيدة التي أمضياها معاً في ونام[10]

باللـه إمَّـا ذوى غُصنـي وأودعنـي
أهلـي التـراب بقـبرٍ خـارج البلَـدِ
فـاهذبْ إليَّ وَحَيِّ القـبر مُذكِـراً
أيـام كنـا معـاً فـي سـالف الأمَـدِ
واذكـرْ عهـوداً وأوقاتـاً لنـا سَـلَفَتْ
بيـن الرِّضـى والمُنـى والأنـسِ والرَّغَـدِ

وأمَّا في "قسْوَة" فقد صوَّر تَرَفُّعَهُ عن عشق حبيبٍ لم يَرَ مِنْهُ غير القسوة في المعاملة، والشُّحِ في الوصال، والظلم الذي وصل به إلى حد استباحته دماءه. وهو يعلن في هذه القصيدة بأنه قد قرر أن يعامل حبيبه ذاك وأمثاله من الملاح القساة بمثل ما عامله ذلك الحبيب[11]

سـوف أبقـى مـدى الحيـاة فريـداً
قـد كفـاني مـن الغـرام جروحـي
قـد تَرَفَّعْـتُ عـن غـرام وعشـقٍ
لسـت أبغـي هـوى الحبيـب الشـحيحِ
سـوف أقسـو علـى المـلاح لأنـي
لـم أجِـدْ غـير قسـوةٍ مـن مليـحِ
إن قلبـي لـن يفتـدي لغريـرٍ
ظـالم الطبـعِ للدمـا مُسْـتَبيحِ

[10] ص66 ر عشك
[11] ص68 المصدر السابق

ليس يحيا على الهوان عزيز

فيه شيء من الإبا والطموح

وقد رسم لنا الشاعر في إحدى مقطوعاته الأسلوب الذي قرر اتباعه في تعامله مع محبوبه بعد أن يئس من نواله، وأدرك أن من الأجدى له أن يتحدى ذلك المحبوب بالصمود والترفع عن الخضوع وقبول الذل، وأن يمضي قدماً في تحقيق طموحاته وأمانيه[12]

تيه وعربد بالتيه واهجر طويلا ... واهوَ غيري وادعُ اللقا مستحيلا

واخفَ عن ناظري ولا تبدُ يوماً ... ثم جئني في النوم طيفاً ضئيلا

إن حرَّ الآلام يصهرُ رجسي ... ويريني ديناً وكوناً جميلا

صرتُ ظلاً من الذبول نحيفاً ... وخيالاً من الذهول نحيلا

سوف أعلو متن الحياة اقتداراً ... ثم لا أرتجي إليك سبيلا

أنتَ أدنى من أن تذلَّ فؤادي ... لغرام أو أن ترانـي ذليلا

وبين قصائد الحب في ديوان "رعشات" تقف قصيدة "عقاب" فريدة في موضوعها بين سائر القصائد فيه.

فبينما نجد أن الشاعر هو الضحية في جميع القصائد، وأن بطلة أو بطلات قصائده هن الجانيات عليه وعلى حبه، نجد أنه في هذه القصيدة يعترف نادماً بأنه هو الذي تجنى على فتاة أحبها... فلما آنس فيها شيئاً من الزّهْو والغرور لطمها وأمعن في إذلالها على الرغم من اعتذارها وتذللها له، مما اضطرها إلى هجره والابتعاد عنه يأساً منه ومن تفهمه لحقيقة مشاعرها. وأخيراً لم يجد الشاعر أمامه غير الندم على ما جنت يداه بعد أن أبت عزّته إلا أن تأخذه بالإثم[13]

يا فُلَّةً غضَّةً بيضاءَ كالبَرَدِ

-قُتلتُ من أحمقٍ- أذبلتَها بيدي

(12) ص 77 رعشات

(13)

ظننتُها حين تاهت في نضارتها

عليَّ تزهو فهاج التيه في خَلَدي

لطمتُها ناقماً غضبانَ إذ حَسَبتْ

عيناي فيها صدود العُجْبِ والمَيدِ

ثم انثنيتُ وعزُّ النصر يرفعُني

عنها وما لي سوى الأوهام من سَنَدِ

تذلّلتْ لي فلم أسمعْ شكايتها

ورُحتُ أزري بها نشوان في صَيَدِ

فأدبرت عن لقائي بعدما يئست

ففتُّ من بعدها الخذلان في عضدي

ندمت من فعلتي هذي فما نفعت

مني الندامة إذ ولّتْ ولم تَعُدِ

ودّعت روحي وأنسي حينما هجرت

وما أتيتُ بهذا الفِعْلِ من رَشَدِ

****

الحب في ديوان "حنين الليالي"

الصورة العامة لقصائد الحب عند علي دمر في ديوان "حنين الليالي" تختلف عما كانت عليه في ديوان "رعشات"، حيث لم تعد هذه القصائد تنهدات مراهق محروم أضواه العشق، وأمضّه الشوق، وشكاوى مستمرة يبثها فؤاده من قسوة النساء ومكرهن، وخداعهن، وخياناتهن... بل نراه في ديوان حنين الليالي صبّاً لعمر بن أبي ربيعة وأضرابه من الشعراء الذين يتتبعون الجمال حيثما وجدوه

ويرسمون لنا من الصور المبهجة للحب ما يدخل السرور على النفس، وما يهز الوجدان من الأحاسيس.

هكذا فعل علي في ديوانه حنين الليالي الذي راح يُغْرِدُ فيه القصيدة تلو الأخرى للتغزل بكثير من الحسناوات.

بل إنه ربما جعل القصيدة الواحدة وقفاً على التغزل بنظرات ممثلة، أو التغني بصوت مطربة، أو الإعجاب بصوت مذيعة يتناهى إليه عبر الأثير.

ونحن نعتقد أن هذا التحول الذي طرأ على شعر الحب عند علي يتمشى مع المرحلة العمرية التي وصل إليها الشاعر الذي كان قد جاز منتصف العقد الثالث من عمره عند إصداره لهذا الديوان، وهي مرحلة يكتمل فيها الشباب وتنضج الرجولة ويصبح صاحبها أكثر ميلاً إلى الاستمتاع بمباهج الحياة التي يراها بدلاً من العيش مع أحلام اليقظة والمراهقة المجرّدة. وبمعنى آخر فإن علي دمر في ديوانه حنين الليالي يذكرنا بعمر بن أبي ربيعة ومذهبه الغزلي.

وإذا شئنا أن نستعرض قصائد الحب في هذا الديوان فإننا نجد أن في مقدمة ما يلفت أنظارنا من قصائده هي قصيدة "بنت البلد" وهي القصيدة التي حاول فيها علي دمر أن يرسم لنا صورة عامة لبنت البلد المصرية مستلهماً تلك المقطوعة الموسيقية التي أبدعها الموسيقار المرحوم محمد عبد الوهاب. والقصيدة تكاد تكون –إذا صح التعبير– ترجمة دقيقة لهذه المقطوعة الموسيقية الرائعة[14]

لمواكب الأفراح في الأكوان ... قد صغت هذا الجانب النفساني

لو جُمِّعَتْ أعراسُ أجيال الورى ... وجميع دنيا الرقص والألحانِ

ما أبرزت سحراً للفتاةِ خفيةٍ ... من طيفك المتلهف الظمآنِ

سمراءُ يا دنيا زغاريد لدى ... سهرٍ مع الفتيات والفتيانِ

من عهد فرعون وعهد قصوره ... وطراز ليلات لديه حسانِ

من عهد ما للنيل من أنسٍ وما ... لشراعه من فرحة الشطآنِ

كنتِ الجمال الأسمر الموحي من ... الإعجاب ما لم يوحِ الهرمانِ

أغرودةٌ بكرٌ ورقصٌ خالدٌ ... يسري فريد اللون في الأزمانِ

---

[14] ص23 حنين الليالي.

وبعد أن يفرغ الشاعر من وصفه لما تتركه بنت البلد المصرية من تأثير في نفوس المعجبين ومن قدرة على الإلهام والإيحاء والإغراء يحاول أن يبرز لنا بعض خصائصها التي تميزها عن نساء الأرض فيقول واصفاً شعرها وشفتيها وجسدها وخصرها ومشيتها وردفيها وقوامها.

شَعْرٌ إذا ما الليل خيَّم كان في

الأضواء ليل السامر النشوانِ

ماست لآليُهُ كومض كواكبٍ

تُنشي الدَّجى باللمح والخفقانِ

وفمٍ سميكٌ شفاهه متجمِّعٍ

كتجمّع الورد السميك القاني

عصروا خمور العالمين وجسّدوا

منها رشاقة قَدِّك اللهفانِ

فإذا مشيتِ تخلَّعَتْ تلك الخُطا

والخصر إذ يتراقص النهدانِ

وشددتِ أطراف الملاءة كي يرى

التجسيد إذ يتماوج الردفانِ

فبدا القوام اللدن في ريّ الصبا

كالماء في ليّنٍ وكالأفنانِ

متكسّر الحركاتِ في جَذْلٍ كما

تبدو الرؤى في مقلة السكرانِ

ويعود الشاعر إلى إضفاء بعض الصفات المعنوية المتخيّلة على بنت البلد ليختتم بها قصيدته:

سمراء يا عطر الربيع وزهره وتحدث العشاق والندمان
كم في عيونك من معانٍ أجتلي مكنونها فأغيب عن أكواني
أهدابك النشوى تبث دنا الهوى في النفس في صور وفي ألوانِ

وإن أنسَ فلن أنسى تعليق المرحوم الموسيقار محمد عبد الوهاب على هذه القصيدة بعد أن ألقاها الشاعر على مسمعيه عندما ذهبتُ مَعَهُ لمقابلته في مكتبه بعد أن حدد لنا موعداً لذلك حيث قدّم إليه عليٌّ نسخة من ديوانه الذي ضمَّ بين دفتيه قصيدتين تتعلقان بالموسيقار الكبير هما قصيدة "بنت البلد" وقصيدة "بيتهوفن العرب" التي صور فيها شاعرنا إعجابه بالمؤسيقار الخالد محمد عبد الوهاب.

قال عبد الوهاب بعد أن استمع إلى القصيدة:

"الحقيقة يا أستاذ علي أن هذه المعاني هي التي كانت تدور في ذهني وأنا أؤلف هذه المقطوعة".

وفي قصيدته "عرس الطبيعة" يدعو الشاعر محبوبته لتشاركه الاستمتاع بما أبدع الخالق من جمال في فصل الربيع [15]

يا ابنةَ الحب والخيالِ تعالَيْ
نشرح الوجد والهوى المحجوبا

ولكي يُغري محبوبته بتلبية دعوته نراه يرسم لنا هذه اللوحة الجميلة لمجموعة من الصبايا اللواتي يلعبن في إحدى الرياض الغناء.

والصبايا يلعبن في كل روضٍ كالعصافير جيئة وذهوبا
كل غيداء شابهت ثمراً غضّاً وزهراً لدى الربيع رطيبا
فهي الغصن أنبت الورد والرما ن والبدر والدّجى والطيوبا
يتراقصن حول كل غديرٍ كالفراشاتِ خفةً ووثوبا
خالقات مع الصباح صباحاً لا غروباً إذا بلغن الغروبا
يتراشقن بالفواكه والغلّ فينشرن في النسائم طيبا

[15] ص26 حنين الليالي.

يا بنةَ القلب والوجيب تعالَيْ فبهاءُ الربيع أحيا الوجيبا
كل إلفٍ يا روحُ راح بإلفٍ يهجران الهجران والتعذيبا
الحياة ابتسامة وهناء ضل من يقطع الحياة كئيبا

وفي قصيدته "أمسيات النيل" يتخيل الشاعر أرتال قوارب العشاق التي تملأ صفحة النيل فتغريه هذه الصورة برسمها.[16]

يا نيل كم رقصت عليك مَسَرَّةٌ في زورقٍ والليل جرَّ ذيولا
كم كليوباترا فوق لُجّك أشرعت في جنب أنطونيو تبث غليلا
غنّت له لحن الغرام وأسندت رأساً عليه تدلُّلاً وذبولا
وتناجيا والسكر أنعس جفنها والحسن شعَّ بفرقها إكليلا

ويتصور الشاعر العشاق الكثيرين الذين طالما جلسوا على ضفاف النيل وهم ينتظرون معشوقاتهم في قلق ظاهر لا يُبَدِّدُه إلا إشراق طلعة الحبيبة.

كم عاشقٍ يا نيل أخلف وعدَهُ إلفٌ بشطك فاتكى مذهولا
يبكي إلى أن أشرقت ليلاه في حلكٍ فأشبع كفَّها تقبيلا

ثم يتصور الشاعر مالا يتناهى من الرغائب التي نهل منها العشاق على ضفاف النيل.

يا نيل كم نيلت بشطك بُغْيَةٌ ولكم بها شهدُ الرغائب نيلا
في كل أمسيةٍ ضفافك تلتقي بالعاشقين مواكباً وسيولا

ويرى الشاعر مجموعات من الأوانس اللاهيات بين الخمائل المنبثة على ضفاف النيل فيرسم لهن هذه الصورة المبهجة

ولقد دخلت بشاطئيك خمائلاً شملت بها كل الجمال شمولا
ورأيتُ فيها للأوانس مرتعاً يلعبن فيه غدوةً وأصيلا
يرتعن كالأحلامِ أمّت شاعراً مَرِحاً يعُبُّ لدى المساءِ شمولا

[16] ص32 حنين الليالي.

من كل سكرى بالدلال بسحرها — تحيي وتقتل أنفساً وعقولا
ريّانةٌ بالحسن يثقل ردفها — ونهودها والخصر ذاب نحولا
مصرية الأحداق لو رشقت بها — طوداً لخرّ تلهّفاً وذهولا
لم أدر حين لحظتها فتبسّمت — أني غدوت وما شعرت قتيلا

وتقع عينا الشاعر على هذه الصورة الجزئية لصبيتين تتسابقان فتسارع عدسة شاعريته إلى التقاطها.

وصبيّتين على الحشائش جُنّتا — تتسابقان تقدماً وقفولا
إحداهما شقراء أترع جسمها — ريّاً وفُصّل قدّها تفصيلا
وبجنبها سمراء أظلم شَعرَها — والطرف يسحر ناعساً مكحولا
تتضاحكان بفرحة وتعطش — فتهيجان الواجم المتبولا

وفي قصيدة "أيقظيني" يعبر الشاعر عن إعجابه بصوت المطربة "صباح" مازجاً إعجابه بصوتها بإعجابه بجمالها وخفتها وحركاتها ونظراتها وثغرها وقدرتها على الإغراء[17]

طفلةٌ حلوة تناغي شذا الورد — بثغرٍ مُحَيِّر البسماتِ
لو رآها الذي تحرّق بؤساً — لانتشى في رياضها الخضلاتِ
خفّةٌ تقذف الوقور إلى الرقص — وتلقي الشباب في الهلكاتِ
حركاتٌ لديك تلعبُ بالروح — وتُذكي ما نام من لهفاتي
سرقتْ خافقي جفونُك والشدو — فضجّتْ مع الهوى خفقاتي
قد بعثتِ الألحان في الروح كالخمر — فأودتْ بأكؤسي العطراتِ
ليت شعري أيا صباحُ وأنت الصبحُ — في بحر هذه الظلماتِ
أغفاءٌ سمعتُ منك أم — الأطيار ضجّتْ لله بالصلوات

[17] ص46 حنين الليالي

أنت أيقظت كامناً من جراحي — بفتور الأهداب والنظراتِ
بُعِثَ الحبُّ في ضلوعي حتى — لم تَبَرّدْ لهيبَةُ عبراتي

أما نظرات الممثلة "راقيه إبراهيم" فهي نظرات مسكرة كالخمر، محيرة كالألغاز لا يدرك كنه ما تخفيه من مشاعر سوى خفقان قلب شاعرنا الذي يقول في هذه النظرات[18]:

يا نظرةً كالكأس لَمْ — تترك فؤادي صاحيا
في لهوها أو سحرها — تهدي اليؤوس أمانيا
المكر فيها ظاهرٌ — والشوق أمسى خافيا
حارتْ بها الألغاز لم — تَدَعِ التمنّي باديا
لم يدر ما تحليلها — إلا ارتعاش فؤاديا
روحي لها من غادةٍ — تركت رشادي غاديا
يكفي بنظرتها بأن — ألقى الهناءَ الكافيا

ويتريّضُ الشاعر في متنزه الميماس على ضفة العاصي في مدينة حمص فتأسره هذه الصور لجميلات حمص اللواتي يتريضن في ذلك المتنزه، وبخاصة تلك الجميلة التي ذكرته بمأساة الشاعر الحمصي "ديك الجن" الذي دفعته غيرته العمياء إلى الفتك بمحبوبته ورد[19]

خمد الهوى دهراً فأذكى جَمْرَهُ
في حمص أمثال الكواكب تسطَعُ
أنّى خَطَرْتَ ففتنةٌ وعرانسٌ
كالخلد فيه الحور أمست ترتَعُ
من كل رائعةٍ كما شاء الهوى
صيغت، يهيم بها الجماد ويولَعُ

[18] ص50 حنين الليالي.
[19] ص93 المصدر السابق.

يَمْشِينَ أسراباً كأنسام الرُبا

لطفاً ويتركن الحجا يتصدَّعُ

****

وبديعةٍ دقَّت معاني وصفها

عن كل إلهام يفيضُ ويبدعُ

عند الغروب لدى الخمائل وحدها

سارت تهادى والنسائم تُسرِعُ

فتلفها شغفاً فتلصقُ ثوبها

بقوا مها طوراً وطوراً تنزعُ

فترى بذاك مفاتناً خلاّبةً

يحيا بها الشوق الحزين ويُصرَعُ

فَعَذَرْتُ ديكَ الجن حين شذوذه

وبكفه الكأس الأثيم المترعُ

وفي "نشوة الأحلام" يصور الشاعر لقاءً جمعه بإحدى السمراوات في إحدى الخمائل على النيل:[20]

سمراءَ وادي النيل ما أحلى اللقا

والليل أطيافٌ وحسنُك ضاحي

يا نشوةَ الأحلام يا أختُ الرؤى

هذي الرشاقةُ سكرة الأرواحِ

شفتاك قد أحسستُ حين رشفتها

جمر الحنين ولفحة الأقداحِ

[20] من 95 حنين الليالي.

أخفى لقانا الشط تحت خميلةٍ

وروى الحفيفُ تشوُّقَ الأرواحِ

في جو ليلٍ قاهري فاجرٍ

يلهو به العشاقُ للإصباحِ

ثم ارتميتِ على الزهور بنشوةٍ

وبسمتِ لي في رقةٍ وسماحِ

وفرشتِ لي بالعطف زندك فارتمى

عنقي عليه برعشةِ الأقداحِ

وتمازجت منا الشفاهُ بضمّةٍ

غبنا بها عن عالم الأتراحِ

وفي "دنيا عيون" يصوّر الشاعر تأثير نظرة فتاة مراهقة سدّدت سهام عينيها إليه، ولكن حياءه منعه من أن يبادلها التحديق، غير أنه لم يلبث بعد أن توارت تلك الفتاة عن ناظريْه أن عبَّر عن ندمه على ذلك[21]

وقفتِ بدربك في دهشةٍ ... لديَّ وحثَّ خطايَ العَجَلْ

نظرتِ إليَّ مليّاً وما ... نظرتُ إليك لحمَّى الخَجَلْ

ولما ذهبتِ ولم ألتفتْ ... إليك تكلَّفَ روحي الوجَلْ

غرقتُ بدنيا عيون رنتْ ... إليَّ بلهفتها تشتعلْ

وغبتِ بشخصك عن ناظري ... وما غابَ عنيَّ طيفُ المُقَلْ

ثم يوجه الشاعر نصيحته إلى تلك الفتاة الصغيرة على الحب داعياً إياها إلى الابتعاد عن طريقه حتى لا تحرقها نيران حبه وهي الفتاة الغريرة التي لم يكتمل ربيعُها الثالث عشر بعد.

[21] من 97 حنين الليالي.

أيا طفلةً غِرَّةً لم تزل ... ثلاثةُ عشرتها تكتمل

حنانيك لا تدخلي عالمي ... فتحترقي في لهيب الغزل

أنا جمرُ قلبك إمّا نأى ... وجنّةُ أحلامه إن وَصَلْ

وعندي إذا الهجرُ تابعتِهِ ... جحيمٌ يذوبُ أقسى جَبَلْ

لعلك أنت فتاتي التي ... سيخلُدُ شعري بها للأزل

ويدلف الشاعر ذات يوم إلى دار الإذاعة في القاهرة فيلتقي بمذيعة حسناء يبهره جمالها، وتعقد فتنتها لسانه عندما هم بإلقاء التحية عليها، فلم يجد أمامه وسيلة تُخفي اضطرابه سوى أن يسرع بتسليمها قصيدة كان قد جاء بها إلى الإذاعة ثم ينطلقُ خارجاً وهو لم يزل تحت تأثير ذلك الجمال الطاغي الذي ملأ نفسه إجلالاً ورهبةً وحبوراً.[22]

هلاّ ذكرتِ فتىً قد اضطربا ... لما رآك وحاول الهربا

دخل الإذاعة حتّةَ سبب ... فاحتار إذ أنسيته السببا

لما طلعت إليه ناظرةً ... أمضى وعالج خطوة فكبا

أعشاه ضوؤك في تألقه ... فارتد تخفق نفسه رعُبا

ما كان يحسب أنه سيرى ... كل الجمال لديه مقتربا

ومشى إليك بخطو ذي جزعٍ ... يخشى من الجُلّى إذا اقتربا

نسي السلامَ لفرط دهشته ... ولسانه لم يختلج أدبا

أدّى إليك قصيدةً ومضى ... في ليله هيمان مغتربا

لم يَدْرِ بعد لقاك حين مشى ... فوق الثرى أم جاوز السُّحُبا

تالله ما لي فيك من أملٍ ... إلا قصائد تُطْرِبُ الشُّهبا

ولعلّ ألحاني إذا سمحتْ ... عيناك يطوى سحرُها الحقبا

---

[22] ص 99 حنين الليالي.

ويتحقق أمل شاعرنا بلقاء فتاة تُدعى "هيام" وهي فتاة طالما تمنى لقاءها فتصدح لنا قيثارته بهذه الأبيات التي تصور لنا سعادته بهذا اللقاء الذي أصبح لا يتخوف من شيء أكثر من تَخَوُّفِهِ من انقطاعه.[23]

أهيامُ ما أحلى الحياة إذا بَدَتْ ... يوماً تلوحُ مع الحياة هيامُ

بظلال هُدْبِك صرت في ظل الهنا ... وبومض طرفك ضجّت الأوهامُ

وسقامُ جفنيك الشقاء لخافقي ... فالصحو من سُكري لديك سقامُ

وضرام خدّك تاركي طول المدى ... يُذكي اشتياقي للقاءِ ضِرامُ

شفتاك في لهب الغرام تزجّني ... فيذيبُ روحي في اللهيب غرامُ

والشعر في حلك الدُّجُنّة قاذفي ... يطغى عليّ الهول والإبهامُ

هَوْلٌ يحذرني انصرام سويعةً ... بلقاك تُسأم بعدها الأيام

***

---

[23] ص 101 حنين الليالي.

الحب في ديوان "المجهولة"

جعل علي دمر من الحب بمعناه الإنساني العميق القضية الأولى التي نذر لها شعره إحساساً منه بأنه الدعامة الأساسية التي يُبنَى عليها المجتمع السليم.

وهو في نظره البلسم الناجع لكل ما يصيب الإنسانية من أمراض، والمقوّم لكل ما يعتريها من اعوجاج، وملاذها الذي يقيها من كل ما يتهدّدها من أخطار وشرور.

وقد شاء علي دمر وهو يحدثنا عن الحب بصفته القيمة الإنسانية العليا أن يوضح لنا أن الحب بين الجنسين هو في الطليعة من أنواع الحب الكثيرة المتنوعة.

وقد راح من خلال بحثه عن الحب الحقيقي يصوّر لنا امرأة مثالية مجهولة تتوافر فيها جميع ما تتصوره أخيلة الشعراء في المرأة من صفات جسدية وخُلُقيّة ونفسيّة. ولما رأى أن قصيدة واحدة لا تتسع لتضمين كل ما يريده في مجهولته المثالية من صفات فقد عمد إلى إبداع ملحمة شعرية مؤلفة من اثنين وعشرين نشيداً ضمّن كل نشيد منها قضيّةً من القضايا المتصلة بمجهولته.

وقد تراوحت هذه الأناشيد في طولها وقصرها بين المقطوعة التي لا تزيد عن أربعة أبيات وبين القصيدة التي وصل طولها إلى سبعة وستين بيتاً من الشعر. وقد بلغ مجموع أبيات هذه الأناشيد ثلاثمائة وستين بيتاً.

ولا شك أن وصفنا لهذه الأناشيد بالملحمة إنما هو من باب المجاز والتجاوز لمفهوم الملحمة الحقيقي، لأن مفهوم الملحمة من الوجهة الفنية لا يغيب عن بالنا، ولا يَندُّ عن أفهامنا.

وقد قدّم علي لملحمته هذه بمقدمة أسماها "دوزنة" حاول فيها أن يضبط أوتار شاعريته كما يضبط العازف أوتار عوده وهو يتهيّأ للعزف.

وقد بيّن لنا علي في هذه الدوزنة أن الذي دفعه إلى التفكير في وضع ملحمته إنما هو رغبتُهُ في الهروب من عالم الواقع إلى عالم الخيال، بعد أن أصبح هذا الواقع المُفْزع مدعاةً للبحث عن عالم جميل آخر مفعم بالخيالات، يُؤْذِنُ انبلاج فجره بالخلاص من هذه الليالي المعتوهة التي تسببت في إحساس

الشاعر بالقرف من كل شيء بعد أن أصبح هذا الكون صورة للسخف المثالي مجسماً فيما يعيشه الشاعر ويعانيه[24]

نظرتُ لواقعي ففزعت منهُ ... مآسي لا تُحَبَّرُ في مقالِ

رنوت لواقعي فهربت منه ... وإلى كَوْنٍ زهيٍّ في خيالي

أسائل شقوتي وظلام نفسي ... ألا فجرٌ لمعتوه الليالي؟!

وبي قرف لرؤية كل شيءٍ ... كأن الكون من سَخْفٍ مثالي

وقد كان الزيف الذي ران على الحقيقة والعدل، والنضال من أجل القيم والمبادئ في طليعة الأسباب التي جعلت الشاعر يحسُّ بالرغبة في الهروب من واقعه المتردي.

لقد غشّى حقائقنا هراءٌ ... يُمَوِّهُ كل عَدْلٍ أو نضالِ

وكان الجدل البيزنطي بين أبناء الأمة العربية وفرقها وأحزابها والذي أدّى إلى التضحية بحقوقهم من الأسباب التي أدّت إلى ذلك الهروب:

أشاهد أمتي احتربت جدالاً ... ومات الحق في حرب الجدالِ

ومن هذه الأسباب: جدُّ الأعداء واتحادهم وحشد قواهم، مقابل انغماس العرب في اللهو والعبث المؤذنين دائماً بزوال الأمم واندثارها، متناسين ما تلقنوا من دروس في الأندلس التي توشك أن تتكرر مأساتها في أكثر من بقعة من بقاع الوطن العربي الكبير في وقت نتوهم فيه أن التغني بالأمجاد كفيلٌ بأن يعيد إلينا الحقوق ويرد عنا عادية الأعداء:

وخصمُ حياتنا احتشدت قواهُ ... يعبِّئُها إلى يوم النزالِ

إلى يوم له أملٌ عريضٌ ... ليقذفنا إلى قاصي الرمالِ

لَهَوْنا عن أعادينا بِكُرْهٍ ... يُجَرِّعُ نفسنا كأس الزوالِ

بأندلسٍ فنينا من خلافٍ ... ونحن عن الأعادي بانشغالِ

نُمَزِّقُ شملنا ونقول عُرْبٌ ... لنا الماضي العظيم فلا نُبالي

---

[24] ص9 المجهولة.

لقد رأى الشاعر أن الخلاص من هذا الواقع المرير إنما يَتَمَثَّلُ في هروبه منه إلى عالمٍ يتغنّى فيه بالحب الذي ينبغي أن يتعلمه أبناء أمته إنْ هم شاؤوا التخلص مما يفتك بهم من أدواء.

شعرت بواقعي وشقاء شعبي ... فكانت حسرتي فوق احتمالي

وطرت إلى صفاء الحب أحيا ... فليس الحقد من كرم الرجالِ

لقد نسي الغرام النامسُ حتى ... عتوا بالبغض في سوء المآلِ

فوشوشت الرباب قصيد حبٍ ... لأسقي أمتي كوب الجمالِ

إذا ما البغض مزّق شمل قومي ... فإن الحبَّ يُحيي كلَّ بالِ

في النشيد الأول من ملحمة "المجهولة" التي لا وجود لها فيما نظن إلا في عالم المدينة الأفلاطونية الفاضلة، يسائل الشاعر الصباح المندّى بنسيم الأشجار والورود عن مجهولته. وهو يوجه سؤاله الملح هذا عندما يتغلغل شارداً في الرياض، وعندما يتلفع بضياء النهار وسواد الليل، وفي أوقات الضحى والمساء، وهو لا يترك وقتاً من الأوقات دون أن يشغل قريحته في صوغ أعذب القصيد في هذه المجهولة التي لا تبين.[25]

كم تَوَسَّلْتُ للصباح المُنَدَّى ... بنسيم الأشجار والأوراد

كم تغلغلتُ في الرياض شروداً ... وتلفعتُ بالضيا والسوادِ

في الضحى والمساء والليل نفسي ... تتمَلَّى خوافي الآباد

سائلاً عَنْكِ كل عِطْرٍ وفجرٍ ... منشداً فيك أعمق الإنشادِ

ويتساءل الشاعر عن كنه مجهولته التي يعدُّها شقيقةً لروحه ونعيماً يتقلب في أعطافه وحنيناً يعمر فؤاده، وهل هي عالمٌ أبدعته خيالات الملائكة المتفرغين للعبادة والتسبيح؟ أم أنها ليست إلا إنساناً عادياً يشارك الناس سخافاتهم وأحقادهم؟ وهل هي أرضيّة المشاعر والأحاسيس؟ أم أنها دنيا سماوية ملونة الأبعاد والآماد لا يرتقي إليها سوى خيالات الشعراء؟

[25] ص12- 23 المجهولة.

مَـن تكونيـن يـا شـقيقة روحـي؟

يـا نعيمـي ويـا حنيـن فـؤادي

مـن تكونيـن؟ هـل علـى الأرض دينـاً

مـن فنـون الملائـك العُبّـاد؟!

أم علـى الأرضِ مـن بنـي الأرضِ سـخفٌ

وتَفـانٍ فـي خَفـأة الأحقـاد؟!

أنـت أرضيـة المشـاعر؟ أم مـن

مُرْتَقـايَ الملـوَّن الأبعـاد؟!

إن أشد ما يخشاه الشاعر هو أن تكون مجهولته مجرد امرأة عادية لا همَّ لها إلا أن تحلم بالرياش الفاخر، واللآلئ الثمينة، والزينة المبهرة، وأنها ليست إلا كغيرها من النساء عناداً وحمقاً واهتماماً بالبحث عن رجل تسخره لخدمتها وتحقيق شهواتها المادية في هذه الحياة. ولم لا تكون قَدْ صيغت من المعادن التي صيغ منها فن الشاعر وسموُّه وحنوُّه وكبرياؤه.

أنتِ مثلُ النساءِ دنيا رياشٍ ... ولآلٍ وزينـةٍ وعنـادِ؟

ليس فيهن غير حمقاء تبغي ... رجـلاً خادمـاً لأي مُـرادِ

أم تكونين من معـادنِ فنـي ... وسموي ورقتي واعتـدادي

ومع يأس الشاعر من تلقي أية إجابة على تساؤلاته هذه، نجد أن خير عزاء له هو أن يخدع نفسه بالإجابة على هذه التساؤلات بقوله:

أنـت مثلـي لا شـك روحٌ وفَـنٌ

لسـتِ كـالغير حفنـةً مـن جمـادِ

ولم يَفُتِ الشاعر أن يتساءل عن مكان وجود مجهولته ونوع الحياة التي تحياها مثلما تساءل عن كنهها.

كيـف تحيَيـن يـا ربيـع حيـاتي

أبقصـر؟ أم تحـت كهـفٍ حقـير

فـي شـواطى البحـار؟ أم فـي البـوادي

أم لـدى صـرحِ قريـةٍ مهجـور؟

ويمضي الشاعر في تساؤلاته متكهناً بمكان وجودها.

ربمـا كنـتِ فـي ليـالي شـتاءٍ

فـي سـرير علـى فـراشٍ وثـيرِ

جـانب المدفـأ الأنيـق وحـولـ

لَ البيـت نـاحت عواصـف الزمهريـرِ

قطـرات علـى زجـاجك تهمـي

كدموعـي لـدى نـواك السـعيرِ

ربمـا كنـت فـي شـقاءِ حصـادٍ

تحملين الأكـوامَ تحـت الهجـيرِ

ربمـا كنـت زوجـةً لغبـيٍّ

ميَّـت الحـسِّ مظلـم التصويـرِ

ربمـا كنـت فـي المعـاهد والقـا

عـات تُلقيـن مبحثـاً فـي الزهـورِ

ينشُـق الحَفْـلُ مـن بهـاكِ عبـيراً

ويُفيـحُ الكتـاب أحلـى العطـورِ

وقد بلغ الشوق للقاء المجهولة بالشاعر حداً جعله يتساءل عما إذا كان الله -سبحانه وتعالى- قد قدّر أن يخلقها في اللوح المحفوظ وأن يُهيّئ له أن يلتقيها

فيمن يلتقي بهن من النساء.

أيُهـا اليـوم يـوم ألقـاك هـل فـي

أسـطر اللـوحِ؟ فـي قضـاء الخبـير

أيـن؟ أو كيـف؟ أو متـى نتلاقـى

فحنينـي يذيـب أقسـى الصـدورِ

ولم ينس الشاعر أن يصور لنا حياته القاسية التي تمضي أيامها ولياليها بصعوبة ومجهولته ما تزال في عالم الغيب.

وحيـاتي جديبـةٌ فـي سـرابٍ

ليـس فيـه إلا شـقاء المسـيرِ

لا الليـالي كمـا تكـون الليـالي

عـاطرات بنشـوة أو حُبـورِ

لا الأمـاسـي كمـا تحـب الأمـاسـي

عابقـات بصـاحب أو سـميرِ

كـدتُ أنسـى للعيـش أيـة معنـى

فأنـا فـي الحيـاة بعـض القشـورِ

ثم يعود الشاعر إلى تساؤلاته عن مكان مجهولته وزمن لقائها عن الحالة التي ستكون عليها عندما يلتقيها

أيـن أو كيـف يـا مُنـاي التلاقـي

أعلـى الشـط فـي مسـاءٍ بهـيرِ؟

أم لـدى الصبـح والدُجـى يسـحب الذيـل

انهـزام المحـارب المقهـورِ

أيـــن ألقـــاك يـــا ضيـــاء حيـــاتي

أنـــا فـــي ظلمـــة الخِضَـــمّ المطـــير

*****

إيـــه مجهولـــة الإقامـــة عنـــدي

لـــو عرفـــت المكـــان عـــاش ســـروري

وبعد أن يُعَدّد الشاعر التهم التي يوجهها إليه النقاد لانشغاله بالبحث عن مجهولته وعدم اهتمامه بغير ذلك من القضايا الهامة والأحداث الجسام، فإنه يتصدى للدفاع عن نفسه ونفي تهمة الضلال التي ألصقها به أولئك النقاد الذين يُعْوِزُهم التعمق في بواطن الأمور.

قال قوم يا للضلال أتقضي العمـ ... ـرَ في وهم عانٍ ضَريـر؟!

للقاهـا تسـيرُ؟ أيـن لقاهـا؟ ... ربما كان بعد يـوم النشـورِ

قـد نسـيتَ الحيـاةَ، كـلَّ حيـاةٍ ... من حروب ومن سلامٍ بشيرِ

من شـقاءٍ علـى الشـعوب مقيـمٍ ... أو هجومٍ المستعمرين المثيرِ

وقد أوضح الشاعر أن إصراره على التغني بالحب، وانشغاله في البحث عن مجهولته المثالية إنما يهدفان إلى إرشاد الناس المجبولين من الطين إلى طريق الضياء الساطع الموصل إلى السعادة، وأنه لا يعني أنه قد نسي بلاده وما يعاني شعبه من مشكلات:

أنـا يـا نـاسُ مـا نسـيتُ بـلادي ... أو شـعوبي أو عـالمي المدثـورِ

غير أنـي مُوَجِّـهٌ أرشِـدُ الطيـ ... ـنَ إلـى مسلك الضيـاء الوفـيرِ

لسعير الغرام يصهر ما في النَّفْـ ... ـسِ مـن قسـوةٍ ومـن دَيجـورِ

هو يجلـو الفـؤاد حتـى نرى لِلْـ ... ـخَـيْرِ طعمـاً وبلسـماً للنفـورِ

الكراهـاتُ كـم أثـارت حروبـاً ... طاحنـاتٍ خوالـداً فـي الدهـورِ

إنما الكون لو خلا الحب منـهُ ... كان قلب الإنسان بعض الصخـورِ

ويكرر الشاعر تساؤلاته عن كيفيّة لقاء مجهولته مصوراً في الوقت نفسه خشيته من أن تكون كغيرها من النساء اللواتي لا يرى فيهن من هي أهلٌ لحبه الكبير:

كيف ألقـاكِ يا متاهـات روحـي ... ضاق عيشي وما استمرَّ مريري

من تكونين؟! هل صحيحٌ بأني ... سوف ألقى أهلاً لحبي الكبيرِ

ما عرفت النسـاء غـير خـوالٍ ... مـن سـمو الشـعور والتفكـيرِ

مـا عرفـت النسـاء إلا سـبايا ... لغبـيٍّ أو مـاجنٍ أو شـهيرِ

ليس بـالمعدن الطهـور مُناهـا ... بـل مُناهـا بجيبـهِ المعمـورِ

ثم لا يلبث الشاعر أن ينفي عن خاطره هذا الاحتمال المزعج ليؤكد أن مجهولته لا يمكن أن تكون كغيرها من النساء، وأنها لابد أن تكون مماثلة له في السمو والرقة والشفافية والصفاء.

يا ملاكـي هل أنـت منهن كـلا ... أنـا لا أصطفـي ركـام الشـرورِ

أنت روح كروحي العذب صافٍ ... كـالأزاهير كالتعـاش البكـورِ

كابتهاج الأعياد في نفس طفلٍ ... كانتشار الندى بروحي النضيرِ

ثم يختم الشاعر نشيده الأول من هذه الملحمة بالتوسل إلى مجهولته كي تُفْصِحَ عن مكانها الذي تعيش فيه حتى يكف عن نداءاتِهِ المحيّرة المأسورة.

إن تكونـي فـي أي قطـرٍ أجيبـي ... للنـداءِ المحـيِّرِ المأسـورِ

وفي النشيد الثاني من هذه الملحمة يصور لنا عليٌّ حزنه الشديد وآلامه المبرحة لعدم اهتدائه إلى مجهولته التي لم يترك شيئاً إلا وسأله عنها[26]

أضعتُكِ لـم أبصـرك فـي العمـر كلـه ... كـأنك فـي سـر الغيـوب المحجَّـب

[26] ص24 المجهولة.

أضعتُك يا دنيا فنوني ولم أزل
أسائل عنك الكون في كل مذهب
كأن حياتي دون ضَنّوتك قفرةٌ
آتيه بها حيران في جوف غيهب
أبنت خيالي والرؤى أين نلتقي
لقد طال عن دنيا لقاك تغيّبي
أسائل عنك الليل هل شِمْتَ برقها
وهل ضوؤها يبدو لدى كل كوكب
فيشعرني الصمت العميق أنت هنا
لنجواك في جنح من الليل مُرهب

وربما خُيّل إلى الشاعر أنه قد عثر على بعض صفات مجهولته في بعض مَنْ يلتقيهن من النساء؛ غير أنه سرعان ما يكتشف أن ما تخيله ليس أكثر من وهم خادع، وهكذا فإنه لا يجد مندوحة من معاودة البحث عن مجهولته نادباً آماله الضائعة وأحلامه الخائبة.

لمحتُك في عينيْ فتاةٍ عشقتها
فأهديتها روحي وشعري ومآربي
وأنشيت سمع الدهر في لحن حُبّها
أناجي هواها بالقصيد المعذّبِ
ولكنني أيقنت أنك غيرها
فعاودت بحثي بالأسى وتقلّبي
فياضيعة الآمال في كل مشرقٍ
ويا خيبة الأحلام في كل مغربِ

وقد اشتط الخيال بالشاعر في نشيده الثالث إلى درجةٍ جعلته يؤكد أن مجهولته ليست إلا توأماً لروحه قبل أن تحل في جسده الذي كتب الله عليه أن يأتي إلى هذا العالم الطينيّ، وأن هذه المجهولة منفردة في صفاتها ولا يمكن أن يكون لها أي شبيه في هذا الكون المادي. وعلى الرغم من ذلك فإن الشاعر يهيب بها أن تظهر لتضع حداً لعذاب روحه وبلواه.[27]

روحي لها خِلّةٌ في الكون غامضةٌ ... يا ليت شعري متى أو أين ألقاها؟!
كانت لها قبل ميلادي مؤانسةٌ ... في عالم الغيب بين النور مسراها
بذا تحدثني روحي بيقظتها ... ونومها وهي لا تسلو فتنساها
في الليل أبصرها، في الضوء ألمحها ... لكن لها لم تجد في الكون أشباها
فهل أصدّقُ أم روحي بسكرتها ... تملي حديثاً وضوءُ الحب يغشاها؟!
يا أختَ روحي تعالَيْ وابرزي فلقد ... تكاد أختُك يُدمي القلب بلواها

وفي النشيد الرابع يتمثل الشاعر بعض صفات مجهولته في صوت مذيعة ينساب إلى سمعه عبر الأثير فيكسرُ روحه، وينقله إلى عالم أخضر ينعم فيه به جالسة غادةٍ حيّيةٍ تطارحه الغرام، وتحدثه عن هواها المتسعر في حناياها:[28]

قِطَعٌ من سُكّرِ ... أم لُهاتُ الزّقّرِ
أحرفٌ هامتْ بها ... دندناتُ الوتّرِ
أحرفٌ نابضةٌ ... بسلام البشرِ
صوتُك الحلو بها ... كحفيفِ السَّحَرِ
طرب المذياع من ... نَغَمٍ مخضوضرِ
وانتشى السلكُ لدى ... خمرةٍ لم تُعصَرِ
رغم بعدي طيفُك الحلو ... يغري بصري
كدت أن أرشفه ... ثغرك العذب الطري

(27) ص26 المجهولة.
(28) ص28 المصدر السابق.

وعروقـــي ســـكرت ... مـــن بهـــاك الأســـمرِ

****

كلمـــاتٌ حدّثـــتْ ... بصنـــوف الخـــبرِ

غـــير أنـــي خِلْتُهـــا ... لِمَعـــانٍ أُخَـــرِ

نقلتنـــي فجـــأةً ... مـــن همـــوم السّـــهرِ

لجنـــان ورُبـــىً ... فـــوق عُشْـــبٍ أخضـــرِ

وبجنبـــي غـــادةٌ ... زُيِّنَـــتْ بـــالخَفَرِ

حدّثتنـــي عـــن هـــوى ... فـــي الحنايـــا مُستَـــتِرِ

بحـــروفٍ غضّـــةٍ ... حلـــوة النُّقَطِ الـــرِ

ذاب حولـــي الكـــونُ مـــن ... رقّـــةِ التّـــأثرِ

صوتـــك العـــذب الـــذي ... صاغهـــا يـــا قمـــري

***

وفي النشيد الخامس يصور لنا الشاعر ما يُسَبِّبُهُ استمرار غيبة المجهولة له من آلام نفسية، ويأس ممض، وكبت مدمر، وما يتوق إليه من حنان يخلّصُهُ من لؤم دهره واضطهاده. ثم يتساءل في نهاية ذلك النشيد عما إذا كان سيتحقق أمله في الاهتداء إليها، أم أن بحثه عنها سيظل مجرد أحلام يتلو بعضها بعضاً إلى زمن لا يعلم نهايته إلا الله[29]

ولا تدريـــن مـــا يشـــجي فـــؤادي

مـــن الكبـــت المضمّـــخ بالســـهادِ

وفـــي دنيـــاك يـــا روحـــي شـــموسٌ

فكيـــف أعيـــش فـــي دنيـــا الســـوادِ؟

---

[29] ص33 المجهولة.

نشـــرت اليـــأس فـــي أرجـــاء نفســـي

فكّللهـــا بمخـــزون الحـــدادِ

أتـــوق إلـــى الحنـــان فلســـتُ ألقـــى

بدهـــري غـــير لـــؤمٍ واضطهـــادِ

فهـــل أملـــي يُحَقّـــقُ فـــي حيـــاتي

أم الأحـــلام تـــترى بـــاطّرادِ

وفي النشيد السادس يصف لنا الشاعر حالته في غيبة مجهولته، حيث تحول إلى شاعر يعيش في وادي الشقاء العكر على حفنة من الذكريات بعد أن غاض في أعماقه معين الحب، وبعد أن جَفّتْ ينابيع أحلامه وهو الشاعر الذي طالما غمس أقلامه بمداد السحر قبل أن يهوي من آفاقه الشعرية إلى أرض الواقع ليصبح كغيره من المعدمين الأشقياء.[30]

هنـــالك خلـــف حـــدود الحيـــاة

بـــوادي ظـــلام الشـــقاء العَكِـــرْ

وراء المســـرات بعـــد الـــرؤى

يعيـــش علـــى حفنـــةٍ مـــن ذِكَـــرْ

لقـــد غـــاض فيـــه معيـــن الهـــوى

وجفّـــتْ حواليـــه أحلامُـــهُ

وكـــان يـــروّي حلـــوقَ الظمـــاءِ

وتُغْمَـــسُ بالســـحر أقلامُـــه

تدهـــور مِـــنْ أفقِـــهِ الشـــاعريّ

إلـــى واقـــعِ الأرضِ أرض البؤسْ

---

[30] ص35 المصدر السابق.

يعيـــش كأمثالـــه المعدميـــن

بـــآلامهم تحـــت طيـــش القَـــدَرْ

ولم يلبث شاعرنا بعد أن أثخنه البؤس بالجراح، أن أحسَّ فجأة بشعاع الحب يسري في أعماقه فيتبدّل حاله، ويظن أنه قد عثر على مجهولته، بعد أن وقع في غرام إحدى الحسناوات.

وإذْ بشـــعاع غـــرام ســـرى

يلامـــسُ فيـــه فـــؤاداً رمـــاذْ

فدبّـــتْ بـــه بعـــضُ روح الحيـــاة

ورفـــرفَ مُلتفتـــاً بارتعـــاذْ

وإذ بضيـــائكِ عـــمَّ الفضـــاءَ

فبـــدَّدَ فيـــهِ الظـــلامَ العكِـــرْ

وإذ بجمـــالكِ يُخفـــي القبـــورَ

ويبنـــي القصـــورَ ويُبـــدي الصـــورْ

وعشـــتُ بلحظـــةِ صفـــو كمـــا

يعيـــشُ امـــرؤٌ بالهنـــا ألـــف عـــامْ

ومـــا هـــو إلا ســـلام اللقـــا

ومـــد يـــدٍ صـــافحت فـــي ســـلامْ.

ويذهب الشاعر إلى زيارة والد الفتاة، فتفتح له الباب، وتقوده إلى حيث يجلس والدها، ثم تدلف إلى حجرتها لتخرج منها بعد فترة وجيزة مُبَدِّلةً ملابسها ومتأبطةً بعض كتبها ثم مودّعةً أباها وضيفه بقولها: "سعيدة"

أتيـــت أزور أبـــاك العظيـــمَ

وكـــان يحـــبُّ لقـــائي الكريـــمْ

فتحـــتِ لـــي البـــاب فـــي بســـمةٍ

وتمتمـــتِ بعـــضَ كـــلام رحيـــمْ

فـــأبصرت فيـــكِ ســـمائي البعيـــدْ

كواكبُهـــا فـــي يـــدي تنتـــثر

رأيتـــك قربـــي أســـطورة

تنمَّقُهـــا شـــهرزادُ القـــدر

وغبـــتِ بخـــدرك فـــي غرفـــةٍ

لنومـــك خلـــف جـــدار صفيـــقْ

فقلـــتُ بنفســـي اختفـــت ترتـــدي

ثيابـــاً بســـهرتنا قـــد تليـــقْ

وبعـــد قليـــل خرجـــتِ ويـــا

لنفســـيَ مـــن هـــول ذاك الخـــروج

إلـــى البـــاب قائلـــةً فـــي حنـــانٍ

"سعيداً" فيا تعس هدم البروج!!

ويُجَنُّ جنونُ الشاعر ويصدمه خروج الفتاة التي كان يُمَنّي نفسه بقضاء السهرة معها ومع أبيها، لأن زيارته للأب لم تكن في الواقع إلا ذريعة للقائها والتمتع بمجالستها ومحادثتها. وأحسب أن الوالد قد شعر بما اعترى شاعرنا من الاضطراب وخيبة الأمل فقال مبرراً خروج ابنته.

وتحـــت يمينـــك كُتّـــبٌ كثّـــارٌ

فقـــال أبوهـــا مشـــت للـــدروسْ

رفيقتهـــا بانتظـــار هنـــاك

ليســـهرن قبـــل امتحـــان عبـــوسْ

ولكن الشاعر الولهان لا يجد في هذه الحجة مبرراً كافياً لتجاهله، ويخيل إليه أن تصرُّف الفتاة على هذا النحو ليس إلا أسلوباً من أساليب المكر الأنثوي الهادف إلى تعذيب الرجل، وأن هذا التصرف يشكل دليلاً قاطعاً على أن هذه الفتاة ليست مجهولته الملائكية التي أضنى نفسه في البحث عنها. وهكذا لم يجد شاعرنا بداً من تصوير خيبة أمله وفجيعته بعد اكتشافه ذلك.

فقلـــت بنفســـي ألا ترعـــوي

فتجلـس حينـاً قبيـل الذهـاب؟

أمكـــراً تريـــد بهـــذا الخـــروج

لتبـــدأ قصتنـــا بـــالعذاب؟!

وتمتـم فـي عمـق روحـي الأسـى

"خيـالي روض بهـذا اليـباب

حسـبتُكِ لـي نـور قلبـي الكبـير

وإذ أنـت لـي حفنـةٌ مـن تُـراب

ظننتُـكِ أهـلاً لحبـي العظيـم

فـألغيتُ نفسـي أمـام السـراب"

وفي النشيد السابع يصور لنا الشاعر نفسه وقد خَرج للنزهة في يوم ربيعي بديع تمنى فيه لو أن مجهولته كانت مصاحبةً له في هذه النزهة الجميلة[31]

بسـم الكـون لأزهـار الربيـغ

والعصـافير تغنّـت فـي الغصـون

.ومشـى الجـدول فـي الـروض البديـع

بنشـيد هـادئ الجـرس حنـون

---

[31] ص44 المجهولة.

وعلـى الشـط تقتـت ضفـدعُ

وغـدا يعلـو صغـير الحشـراتْ

وأنـا وحـدي كليـاً أسـمع

تنتشـي روحـي بعـذب النغمـاتْ

هـل لهـذا الـروض يـأتي بـي القضـا

وحبيبـي يتلّهـى بيـدي

نتقـى بأمـان ورضـى

لا يـرى خلوتنـا مـن أحـدِ

هـل تُـرى نلعـبُ فـي هـذي الضفـاف

مثلمـا تلعـب فـي الـروض الطيـورْ

ونناغيهـا بضحـكٍ وانشـغاف

ونناجيهـا بأبيـات السـرورْ

كـل مـا حولـي أراه حالمـاً

وأنـا فـي وحدتـي أبكـي الحبيـبْ

أتخطـى فـي ذهـولٍ واجمـاً

وبـأضلاعي لذكـراه لهيـبْ

آه يـا بركـةً أيـن المـاء غـاض؟

مثلمـا غـاضت أمـانيّ العـذابْ

قـالت البركـةُ حزنـي اليـوم فـاض

ظالمـا عـن هـذه الروضـة غـابْ

وفي النشيد الثامن يصور لنا الشاعر ملازمة طيف مجهولته لخياله مع إصراره على عدم الاقتراب منه في عالم الحقيقة والواقع[32]

لي طيف أنّى رحلتُ بدنيا

ي فقلبي إليه يبغي الرجوعا

وأنا في الخيال ألقاه لكن

هو مني كالنجم يبدو رفيعا

وفي مطلع النشيد التاسع يصور لنا تجربته القاسية مع طيف هذه المجهولة التي لا تعرف شيئاً عما يَعْمُرُ قلبه من حب، وما يعزُف لها هذا القلب من ألحان، وما يتجرع بسبب بعدها عنه من كؤوس العذاب، وما تركت في حياته من تأثير سيّء يَحُدُّ من قدرته على الإبداع.[33]

جهلتِ ألحاني وكأسي والهوى

ما دمت تخفين بطيّات النوى

وجفنٌ ينبوعي وغاض الشعر في نفسي

كما غاضت ينابيع الغُلا

فلا الخيال الحلو رفاف ولا

دنيا الهنا تجلو أساطير المُنى

ذُفنت في رمس الخطوب السود لم

أخرج ولم أبصر بريقاً للسنا

كأنني في عالم الموت الظوت

نفسي فلا ألقى سوى طعم الردى

(32) من 48 المجهولة.
(33) من 50 المصدر السابق.

أما حسْرَتُهُ على أيامه التي تنقضي دون أن يلتقي مجهولته فقد صَورها لنا على النحو التالي.

واهاً على أيامنا لو أقبلت

كنا بها نحسو ثمالات الهنا

لم يبدُ لي منها ولا أوصافها

غابت مع البشرى بظلماء الأسى

ويمضي الشاعر في نشيده هذا مصوراً أسلوب المراوغة والصدود اللذين يعامله بهما طيف المجهولة.

ما أجمل الليل وأهنا نومه

لما يوافي بالخيال المُرتجى

يا طيبها من صدفةٍ ما ذقتها

منذ سنين يقظاً أو في الكرى

الطرف بالطرف التقى من دون ما

لفظٍ وحتى في الكرى ألقى الجفا

حاولت شكوى أوعتاباً لم أجد

إلا صدوداً مُحرِقاً مني الحشا

وينهي الشاعر نشيده هذا ببيتين مختلفين عن سائر أبيات النشيد وزناً وقافية واصفاً الحيرة التي أغرقه هذا الطيف في أمواجها:

خيالك ما يفكّ يرتاد خاطري

غضوباً أراه تارةً ثم باسما

فوالله ما أدريه حين يلوح لي

أخِلاً وفيّاً أم عدواً مخاصماً

وفي النشيد العاشر تبرز المازوشية لدى الشاعر بصورة صارخة عندما يتحدى طيف مجهولته كي يمعن في تعذيبه الذي لن يزيده إلا صموداً وإصراراً على الوصول إلى أسمى المراتب والدرجات.

وهو يطالب هذا الطيف بأن يظل محتجباً في عالم الغيب، كي يحفز الباحث عنه على المزيد من الصبر والصمود.[34]

تيـهْ وعَربِـد يـا طيفَهـا بـي طويـلا

واهـوَ غـديري وادغُ اللقـا مسـتحيلا

واخـفَ عـن نـاظري ولا تبـدُ يومـاً

ثـم جُنّـي فـي النـوم وهمـاً ضئيـلاً

إن حـرَّ الآلام بصهـر رجسـي

وبُريني دنيـاً وكونـاً جميـلا

صـرتُ ظـلاً مـن الذيـولِ لطيـفٍ

وخيـالاً مـن الذهـول نحيـلا

كنـتُ طينـاً فمـذ رأتـك ظنوني

صـرتُ ضـوءاً وإن غـدوت عليـلاً

لا تقـارب وانفـر وعـذّبْ ودعنـي

هائمـاً فيـك دائمـاً مشـغولا

إن هـذا التعذيـب يشـحذ عزمـي

للمعـالي لكـي تراني جليـلا

سـوف أرقـى إلـى السـماء اندفاعـاً

وأعـاني للفرقديـن وصـولا

---

[34] ص53 المجهولة.

ثم يختم الشاعر نشيده هذا ببيتين يُغَيِّرُ فيهما القافية الموَحَّدة التي سيطرت على هذا النشيد.

أيُّها الطَّيْفُ إن ظننتُ بـأني *في الهوى قد ذَلَلْتُ لا ترجُ ذاكا*

إنّ في نفسـيَ الإبـاءَ مكينٌ *ولصـبري أودُّ ألاّ أراكـا*

* * *

وفي النشيد الحادي عشر يتخيّل الشاعر مجهولته قارئةً من قُرّاء شعره، مما يجعله يحسد القرطاس الذي حظي بنظراتها التي لم تتمكّن من رؤيةَ ما يشتعل في قلبه من لهيب الغرام المُتَسَعِّر[35]

يَلُذُّ لروحـي إن نظـرتِ لأسـطري *وإنْ قرأتْ عيناكِ ما جاشَ في صَدْري*

لقد حظيَ القرطاسُ منكِ بنظـرةٍ *ولـم أحـظَ إلا بالسَّـعيرِ وبـالهجرِ*

ولو أبصرتْ عيناكِ قلبي لمـا درَتْ *أقلباً تـرى أم موقَـداً لاهـبَ الجَمْـرِ؟*

وفي كثير من الأحيان تبدو المجهولة للشاعر في صورة عروسٍ تلازم خدرها كما تلازم اللؤلؤة محارتها.

تلوحين لي دوماً عروساً بخدرهـا *وهيهات أن تبدو العروسُ من الخِـدْرِ*

وهي أحياناً سرٌّ لا سبيل إلى إدراك كنهه، أو الوصول إلى الطريق المؤدي إلى معرفته.

أراكِ كسِـرٌّ لسـت أدرك كُنْهَـهُ

فيـاليت لـي يومـاً سـبيلاً إلـى السِّـرِّ

وفي النشيد الثاني عشر يتصورها الشاعر خيالاً مجنّحاً يُفْرِغُ في نفسه كؤوساً من الشهد، حتى إذا ما فارقه هذا الخيال عاد إلى الغرق في بحور الكآبة والحزن، ولكنه سرعان ما يتبدل حاله عندما يعود إليه ذلك الخيال، فينتعش من جديد، ويرجع هزاراً مغرداً يُطَوِّفُ في جنان الخلود[36]

---

[35] ص56 المجهولة.

[36] ص60 المجهولة.

تجوليـن فـي روحـي خيـالاً مجنّحـاً

يُفَـرِّغُ فـي نفسـي كؤوسـاً مـن الشـهدِ

يطـوفُ علـى الأكـوانِ ثـم يعودنـي

فيلقـى كليبـاً مستضاماً مـن الجهـد

إذا رفَّ بـالأضواءِ فـوقَ جفونـه

غـدا دالـبَ الأضـلاعِ منتعـش السـهد

كـأني إذا مـا طـاف بـي منـك خـاطرٌ

هـزارٌ سـما يختـال فـي جنّـةِ الخلـد

وفي النشيد الثالث عشر يلتقي الشاعر طيفها في الكرى مصغياً لما يصوغ فيه من شعر عاتب رقيق، حتى إذا أفاق من نومه لم يجد غير الوحشة والفراغ[37]

أنـا فـي الكـرى ألقـاكِ لـي مُتَبَسِّـماً

يـا طيفهـا تُصغـي لشـعر عتـابي

فـأفيقَ مذعـوراً فـألقى وحشـتي

لـو أشـتكي للصخـر حَـنَّ لمـا بـي

يـا ورد خَدَّيهـا سـقيتُك مـن دمـي

أتـرى أشـمُّك بعـد طـول غيـابي

وفي النشيد الرابع عشر يحاول الشاعر أن يُجَسِّد لنا بعض صفات مجهولته[38]

[37] ص62 المصدر السابق.
[38] ص64 المجهولة.

ومضـةً أنـتِ مـن بريـقِ الضيـاءِ

يـا حنينـاً فـي أكبـدِ الشـعراءِ

يـا حفيـفَ الأنسـامِ تسـرى علـى الزهـرِ

صباحـاً فـي الروضـةِ الغنّـاءِ

صـاغكِ اللـه مـن عصـارةِ مـاءِ السـورِ

د أم مـن توهُّـجِ الأضـواءِ؟!

لـو تبديـتِ فـي الضُّحـى لتـوارتْ

شمسـه مـن تعجُّـبٍ وحيـاءِ

يـا شـفاهاً كالجُلَّنـارةِ أو ورْ

قـةِ وردٍ، أو جمـرةٍ حمـراءِ

سـترتْ لؤلـؤاً يلـوحُ لـدى الثغـرِ

تجلّـى بالبسـمةِ الخرسـاءِ

بسـمةٌ يحسـدُ الشـروقُ سـناها

ويعنيـكِ أنجُـمُ الظلمـاءِ

يـا قوامـاً إذا اعـتراه فتـورٌ

يتلـوّى مـن ليِّنـةٍ ورخـاءِ

فيـه تبـدو رمّانتـان علـى متـنٍ

قضيـبٍ مُرَنَّـحٍ فـي الهـواءِ

يـا دلالاً أبديتـه يُنكـرُ الـروحَ

ويـودي بـالقلبِ والأحشـاءِ

يـا كلامـاً سـمعته منـك كـالعو

د تنـاغت أوتـاره بالغنـاءِ

أنـــت خمـــرٌ ســـريت كـــالروح فـــي

روحـــي وقلبـــي وأعظمـــي ودمـــائي

وهكذا نجد أن الشاعر قد حاول أن يرسم لمجهولته صورة أضفى عليها فيها كثيراً من الصور المعنوية المتخيّلة، فهي ومضة من بريق الضياء، وحنين في أكبد الشعراء، وهي حفيف الأنسام، وقد براها الله من عصارة ماء الورد، ومن توهج الأضواء. وضوؤها يجعل الشمس تتوارى خجلاً وتعجباً وحياءً إذا برزت لها في وقت الضحى، وهو الوقت الذي تكون فيه الشمس في أحسن حالاتها وأبهاها.

أما شفاهها فكالجلّنارة وورقة الورد وكالجمرة الحمراء، وأما أسنانها فحبات لؤلؤ، والشروق يحسد بسمتها، وفي عينيها لمعان النجوم في ليلة شديد الحلكة، وقوامها قضيبٌ يميل مع الهواء، ويترنح رخاءً وليونة. وثدياها رمانتان فوق صدرها، ودلالها خمرة تسكر الأرواح وتدفع القلوب والأحشاء إلى الوقوع في التهلكة.

وكلام المجهولة غناء مرنم على أوتار العود، وهي على وجه الإجمال خمر تسرى في روح الشاعر وفي كل عضو من أعضائه.

وهذه الصفات كما هو واضح لا تختلف في جملتها وفي تفصيلاتها عن الصفات التي دأب الشعراء على وصف محبوباتهم بها، إذ ليس فيها صورة مبتكرة واحدة يمكن أن يتفرّد بها عليّ. غير أنه لا يسعنا إلا نعْتَرف بأنه يبقى لعليّ هذا الأسلوب المشرق الآسر الذي صاغ به أوصاف مجهولته تلك.

وقد جعل الشاعر نشيده الخامس عشر وقفاً على عَيْنَيْ مجهولته، وما تتركه دنياهما في كيانهِ من تأثير، فهما دنيا ملوّنة الأضواء ليس لها حدود ولا أبعاد، تهدهده فيها السعادة، وتهوّم فيها أحلامُه معربدةً في ضيائها الساطع، ويجنح فيها قلبه متشوقاً إلى قربها والعيش في دنياها.[39]

بعينيـــك دنيـــا لا تحـــد وتُلقـــحُ

بهـــا يســـبح الـــروح الحزيـــن ويَفـــرَحُ

[39] ص66 المجهولة.

ملوّنـــةُ الأضـــواء كـــالخلد جوّهـــا

أدفّ بهـــا كـــالطير هيمـــان أصـــدَحُ

تُهدهدنـــي فيهـــا الســـعادة غضّـــةً

فيهفـــو إليهـــا القلـــب شـــوقاً ويجنَـــحُ

يهـــوّم حلمـــي فـــي ضيائهـــا معربـــداً

فتـــنزو عروقـــي للتدانـــي وتـــنزحُ

وعندما يتوارى عن الشاعر طيف هذه الدنيا التي تخلقها عينا مجهولته فإنه يعود ليرزح في الشقاوة والأحزان والوجوم واليأس الممض القاتل من جديد.

إذا طيفهـــا عنـــي تـــوارى هنيهـــةً

أحـــسّ بـــأني فـــي الشـــقاوة أرزحُ

ويذبـــل فـــي روحـــي الخفـــوقُ تحسُّـــراً

وتطغـــى شـــجوني، واللـــذاذة تـــبرحُ

وفي ختام هذا النشيد يكرر الشاعر الحديث عن عيني مجهولته وتأثيرهما عليه دون أن يضيف إلى ما سبق جديداً غير الوزن والقافية اللذين جعلهما مخالفين لوزن وقافية الأبيات الأخرى في هذا النشيد كما سبق أن فعل ذلك من قبل.

ألقـــى بعينيـــكِ أحلامـــاً مُلَوّنـــةً

دنيـــا الخلـــود وفـــردوس الأغـــاريدِ

أنســـى بهـــا شـــقوة المـــاضي علـــى أمـــلٍ

مثلّـــج فـــي حنايـــا الصـــدر منشـــودِ

تغـــيّر الكـــون مـــن حولـــي كـــأن بـــهِ

فـــي كـــل ناحيـــةٍ ألحـــانَ داودِ

وفي نشيده السادس عشر يضرع الشاعر إلى ربه ألا يعذّبه بإيقاعه في تجربة حب غير متبادل، وأن يريحه من ذلك بالموت إن أبت مشيئته إلا أن تمتحنه بذلك.[40]

إذا غضب الإله عليَّ يوماً ... يعذبني بحبٍ في الحنايا
أطيش به وأغدو لست حيّاً ... ولا مَيّتاً ونارٌ في حشايا
فيا رباه لا تجعل فؤادي ... محباً إن ذي أدهى الرزايا
أأحرَقُ في الهوى وحبيب نفسي ... خفيٌّ ما درى يوماً هوايا
إذا ما كان في هذا شقائي ... فأرجو أن تحطمني المنايا

وفي النشيد السابع عشر يخيّلُ للشاعر أنه قد قضى مع طيف مجهولته يوماً سعيداً في حديقة وادٍ من وديان أحلام اليقظة التي يحلل بها نفسه، فيعمد إلى تصويرها وتصوير حياته وهو ينعم برفقة مجهولته[41]

سكن الليل وروحي ... سبحت بين النجوم
تركتني وجروحي ... أتلظى في وجوم
ترقب الفجر عيوني ... كي إذا وافى تراك
منك يا روحي شجوني ... واحتراقي في هواك
بسم الصبح فهيّا ... يا منى روحي نسيرْ
نشرب الكوب الهنيّا ... فوق ضفات الغدير
ثغرك البسام فيه ... خمرة الحب الندي
أعطنيه أعطنيه ... لا ترى من أحدِ
أقبل الليل فهيا ... يا أنيسي للسمرْ
انظر البدر السنيّا ... فهو يبدو في النهر

[40] ص68 المجهولة.
[41] ص69 المصدر السابق.

أسبل الليل علينا ... يا أخا البدر سدولهْ
ورنا النجم إلينا ... وروى العود هديلَه

****

وفي النشيد الثامن عشر يصور لنا لقاءه بإحدى السمراوات. وقد خُيّل إليه وهو يسير معها أنه يسير مع مجهولته الساحرة التي جعلته يضل طريقه إلى منزله وتركته يعيش مع الحقيقة المرة التي تقول بأن هذه السمراء ليست أكثر من امرأة فيها بعض صفات مجهولته، ولكنها ليست هي على أيّ حال.[42]

يا شبيهةً من جمالِ ... في كهف نفسي أضأتِ
من أيّ غيبٍ أتيتِ ... من أيّ أفقٍ طلعتِ
من أيّ خمرٍ مُزِجتِ ... من أيّ نورٍ جُبلتِ
سمراء والسحر يسري ... في الروح حيث سريتِ
لا السمر لا البيض تبدو ... شيئاً إذا ما ظهرتِ
هل تذكرين مسيراً ... في الليل تُهتِ وتُهتِ
لما مشيتِ بجنبي ... "أنا تلاشى بأنتِ"
حين اهتديتُ إليكِ ... ضللتِ دربي لبيتي
ما أتعس العمر لما ... عن ناظريَّ احتجبتِ

***

وقد تخيّلها في نشيده التاسع عشر مقيمةً معه في بعض الدور التي سكنها ذات يوم، ولكنها لم تلبث أن فارقته تاركة الشاعر وداره غارقين في لجة من الوحشة والشقاء[43]:

أمسيتِ قبراً رهيب الليل يا دارُ
وكنتِ قبلُ سماءً فيك أقمارُ

[42] ص74 المجهولة.
[43] ص78 المجهولة.

نـــأى حبيبـــي فعـــاد الصفـــو معتكـــراً

وقـــد دوى فـــي غصـــون الـــدوح نُـــوّارُ

فـــأين رنّـــةُ تصخـــابٍ لـــه ارتفعـــت

فـــي البهـــو يعـــدو كـــأن الصـــوت أوتـــارُ

وأيـــن طيـــب الهـــوى أيـــام كـــان هنـــا

والليـــل ســـكران تشـــدو فيـــه أطيـــارُ

نـــأى فخلّـــفَ هـــذي الـــدار موحشـــةً

وقـــد غـــدت بـــالندى تبكيـــه أشـــجارُ

أســـير فيهـــا كـــأني وســـط مقـــبرةٍ

لا الليـــل ليـــلٌ ولا الأســـحار أســـحار

وأنـــت يـــا دار آمـــالٌ محطمـــةٌ

وليـــس لـــي فيـــك بعـــد اليـــوم أوطـــار

وقد صور لنا في نشيده العشرين محاولاته العبثية في التخلص من سيطرة طيف مجهولته عليه[44]

مـــاذا أقـــول إلـــى خيـــالك أينمـــا

أمشـــي أراه فـــي طريقـــي حادبـــا

أبغـــي التخلـــص منـــه وهـــو يعيدنـــي

فـــأعود مأســـوراً حزينـــاً ناحبـــا

وفي نشيده الحادي والعشرين يتوصل الشاعر إلى نتيجة مخيبة لآماله تتلخص في أنه لا معنى للحياة ما دام طيف مجهولته مصراً على البقاء في عالم

[44] ص80 المجهولة.

الغيب، وأن إمكانية وجودها ليس أكثر من فكرة مجردة ليس لها ظل من الحقيقة والواقع[45].

مهمـــا تبـــدّى الكـــون فـــي ... عينـــيَّ حلـــواً نـــاضراً

وغـــدوتُ فـــي الدنيـــا بـــآ ... فـــاق الســـعادة طـــائرا

وبـــدا أمـــامي كـــل حُســـنٍ ... فـــي الغوانـــي ســـافرا

إن لـــم أشـــاهد وَجْهَـــك ... البسّـــام قربـــي زاهـــرا

فكـــأنني لســـآمتي ... أجـــد الريـــاضَ مقـــابرا

وأما في النشيد الأخير من هذه الملحمة وهو النشيد الثاني والعشرون فإن شاعرنا لم يجدْ أمامه سوى أن يصور خشيته من أن يلقى وجه ربه قبل أن يلتقي بمجهولته... وهكذا كان،[46]

أحبيبتـــي أنـــا فـــي الشـــباب أقـــول قـــي

معنـــى هـــواك ولا أخـــافُ عذولـــي

لكـــن إذا جـــاء المشـــيب فإنـــه

ســـيقال عنـــي لـــم يعـــد بخجـــولِ

أيَظَـــلُّ شـــيخٌ فـــي الغـــرام معربـــداً

أفـــلا يعـــود لرشـــده المعقـــولِ

أحبيبتـــي أخشـــى حيـــاتي تنقضـــي

وأنـــا بدربـــي دون أيّ وصـــولِ

الحب في ديوان "غيبوبة الحب"

إذا كان شعر الحب في ديوان المجهولة عند علي ذمّر يمثل رأيه في الحبّ، في المرأة المثالية التي تستحق أن تكون أهلاً لأن تحب، فإن شعر الحب في

[45] ص81 المصدر السابق.
[46] ص82 المجهولة.

ديوانه "غيبوبة الحب" يمثل لوناً من الشعر غير بعيد عما نراه في ملحمته "المجهولة" فقد صاغه الشاعر في فتاةٍ شاء القدر أن يكون له معها قصةٌ خَلَقَ أحداثها الجوار، وسطّرتْ وقائعها الزياراتُ المتبادلة بين أسرة الشاعر وأسرة الفتاة التي كانت تعمل في حقل التدريس في مدينة الهفوف.

لقد رأى شاعرنا في هذه المعلمة كثيراً من ملامح مجهولته التي كان يبحث عنها في خياله، وقد اعتقد أو توهم –لا فرق– أن الحب قد جمع بين قلبها وقلبه فراح يصوغ في ذلك القصيدة تلو القصيدة، ولكن –ولأن الشاعر كان في وضع لا يمكنهُ من أن يصل بحبه إلى شاطئ الأمان– فقد انتهت قصة ذلك الحب بما كان ينبغي لها أن تنتهي إليه من فشل ذريع.

كان شاعرنا مخلصاً لزوجه وأبنائه، وكان يؤثر مصلحة أسرته على مصلحة ذاته الخاصّة ونزواتها، وكان من غير المؤمنين بالزواج بأكثر من امرأة واحدة، وكان عدد أفراد أسرته يتنامى عاماً بعد عام، وقد نجم عن ذلك أن وضعه المالي كان على درجةٍ من الضعف لا تسمح له بأن يفتح أكثر من بيت حتى لو أراد.

وقد كان لابد لهذه الظروف القاهرة من أن تُفَرِّقَ بين الشاعر وملهمته الجديدة، بل وتمعن في التفريق بينهما إلى درجة لم يعد معها في استطاعة أيٍّ منهما أن يلتقي الآخر أو أن يراه.

وقد شاء الشاعر– وما كنت أحسبه مضطراً إلى ذلك– أن يقصّ علينا في مقدمة ديوانه قصة ذلك الحب منذ ولادته حتى نهايته في ثماني عشرة صفحة بأسلوب أدبيّ رفيع، ولم يترك لنا حرية تفسير قصائده في ملهمته هذه لنتوصل إلى معرفة أنها من وحي ملهمة واحدة دون أن يطلعنا هو على ذلك.

وقد تمنينا لو أنه فعل ذلك لأن الشاعر غير مطالب بكتابة مذكرات تفسيرية لقصائده، بل عليه أن يترك غيره من القراء والنقاد يسهرون من جرائها ويختصمون.

ومهما يكن من أمر فقد فعل الشاعر ذلك وأراحنا من مهمة التحليل ولم يترك لنا سوى هامش بسيط نحاول فيه أن نقوم بإجراء عملية ربط بين هذه القصائد لنؤلف منها قصة شعرية، كما ألف هو في كتابته للمقدمة قصته النثرية التي سرد علينا فيها تفاصيل قصة هذا الحب.

كان علي دمر "رحمة الله" قد حدثني بقصة حبه لشاعرة فلسطينية جمعته

بها الأقدار، كما جمعه الجوار في مدينة الهفوف عندما قمت بزيارته في منزله سنة 1964. وقد قال لي فيما قال إنه قد خُيّل إليه أنه قد وجد فيها مجهولته، وأن خروجها من حياته لم يكن إلا بمثابة اختفاء لطيف تلك المجهولة حتى تتقطّع به أسباب الحياة. وهكذا كان.

وإن أول ما يطالعنا من القصائد التي صوّرت قصة هذا الحب هو قصيدة "شاعرة ساحرة" التي رسم لنا فيها علي صورة رائعة لملهمته التي تيَّمتْهُ لأن البارئ المصور قد جمع في شخصها بين سحر الجمال وسحر البيان.[47]

يا فتوناً في خاطر الأسفار ... ظلّ دمراً في نشوة الأسرار

في ضمير الضيوب، في حُلُم الشا ... عر، في روح عالَم الأنوار

ثم شاء الإله تجسيد ذاك الحسن ... في شكل فتنةٍ وإسار

فتخطّرتِ بيننا جسداً سحراً ... وجَذْباً يُغْشي سنا الأبصار

أنت شعرٌ ولوحةٌ وغناءٌ ... كل فنٍّ لَدَيْكِ عاري الإزار

أنت فينا قصيدة الله في الأرض ... وعزف الملاك الأطهار

السماوات تنتشي من سماع الشعر ... من كوكبٍ على الأرض ساري

جمع الشعر والجمال وليسا ... غيرَ خمر الأكوان والأدهار

إنما الشعر والجمال إذا ما ... ضما أذابا جلامد الأحجار

وفي ختام هذه القصيدة يناشد الشاعر ملهمته بألا تجهد نفسها في صياغة القصائد، وأن تدع له هذه المهمة ليستلهم منها أروع القصيد.

لا تصوغي قصيدةً ودعيني ... منك أستافُ أروع الأشعار

وفي قصيدة "اللقاء الأول" يصور لنا الشاعر حواراً صامتاً دار بين عينيه وعيني ملهمته وما انطوى عليه هذا الحوار من وساوس ومخاوف.[48]

---

[47] ص26 غيبوبة الحب.
[48] ص30 غيبوبة الحب

تقول عيوننا: "يا ليت"، لكن ... تقول ظروفنا: "يا مستحيلُ"

كلانا الكبتُ نارٌ في حشاه ... وما في وجهه منه دليلُ

نَغُضُّ عيوننا إما تلاقت ... ونخشى النظرة العجلى تطولُ

كلانا خائف من ناظرينا ... إذا التقيا كأن الطرفَ غولُ

وأنتِ أمام عيني غير أني ... أرى ما بيننا امتدت سهولُ

ظروف قاسيات فاصلاتٌ ... جبال عاليات لا تزولُ

وخلف عيونك السوداء بيدو ... لقلبي عالم خَطِرٌ جميلُ

وعلى الرغم من أن هذا اللقاء بين الشاعر وملهمته هو اللقاء الأول إلا أنه قد أحس بأنه قد أحبها منذ جيل كامل، وأنه قد آن له أن يستقر روحاً وقلباً، وأن يُودّع ليالي الكبت والحرمان بعد أن عثر على ملهمته المثالية:

لأول مرةٍ ألقاك لكن ... هواك كأنه في النفس جيلُ

عيونك أنشأت بفراغ نفسي ... عوالم لا تزول ولا تحولُ

كأني تائة من قبلُ عني ... فأوجدني بك الطرف الكحيلُ

فيا حرمان روحي، يا فراغي ... ويا كبتي، أما آن الرحيلُ

أما آن انصهار القلب حُبّاً ... بنار مالها أبداً أفولُ

سألتك لا تخافي من جحيمي ... جحيم الحب روضتها بليلُ

ثم يعبر شاعرنا في ختام قصيدته عن خشيته من أن تكون أحاسيسه هذه ليست أكثر من أوهام مُخدِّرة، وأن يكون قلب ملهمته غير عامر بمثل ما يعمر قلبه من الأحاسيس، ويناشد ملهمته -إن كان الأمر كذلك- أن تتركه يسعد بأوهامه الكاذبة هذه.

لعلَّ الوهمَ خدَّرني سريعاً ... وقلبك لا يقول كما أقولُ

بربك لا تُزيلي الوهم عني ... ولو أني بأوهامي قتيلُ

فحبي لحظة لو كان وهماً ... حياةً دونها الدهر الملولُ

وفي قصيدة "اللقاء الثاني" يتضاعف إيمان الشاعر بأنه قد وجد ملهمته التي طالما بحث عنها. وكان لابد له من أن يوجه إليها شكره على إنقاذ قافلته من المتاهات، وعلى تفضلها بنشر ضيائها الوهاج في دروب حياته التي طالما سادها الظلام، وإقدامها على تفجير ينابيع الفن في أعماقه. ولم ينس أن يسألها كذلك عن مصير ذلك الرباط مهما كان المصير الذي سوف ينتهي إليه.[49]

شكراً إليك على إنقاذ قافلتي ... من المتاهات في بيداء أحزاني

عيناك ضوؤهما الساجي منار هدىً ... لروحي المظلم الغافي ووجداني

بدا ضياؤك وهاجاً فعاد إلى ... ليلي سنا البدر محفوفاً بألوانِ

وأشرقت بالهدى كل الدروب إلى ... كل الخمائل تلقاني بغدرانِ

هذي عيونك يا ريحانتي نظرت ... فبدّلت كل أيامي وأكواني

فجّرتِ فيَّ ينابيعي وقد نَضبت ... وهجت كل صباباتي وأشجاني

وعاد شعري غريداً وقد هجعت ... ألحانه منذ أزمان وأزمانِ

مشاعلي بلقاك الأول التهبت ... وها أنا بلقاك المضرم الثاني

[49] ص34 غيبوبة الحب.

لا علم لي بمصيري في يديك ولا

ألوك غير ظنون منك تغشاني

أفديه حتى ولو كان الضلال به

حتى ولو صُدمت روحي بخذلان

وتضع الملهمة ذات ليلة قصيدة من قصائدها في يد الشاعر وهي تقوم بزيارته مع بعض أفراد أسرتها بعد أن اغتنمت فرصة انفرادها به، ويقبل الشاعر على قراءة تلك القصيدة، ثم لا يلبث أن يرد عليها بقصيدة "ورقات" التي يصور فيها أثر ما قالته شاعرته في نفسه[50]

ورقاتُ جوابك بين يدي	تقتاتُ وتنهلُ من كبدي
في كل نهارٍ أو ليلٍ	أتلوها في فرح الولدِ
يطوبني الحرف وأنشُرُهُ	يُشعلني، يَخرقُ لي جِلْدي
يشربني الحرف وأشربُهُ	وكلانا بعد الشرب صَدي
يا خَطّك يا أحلى نغم!!	يُداح وعوداً في خَلْدي
وحروف "أحبك" تزرعني	في كون خلودِيَّ الأمدِ
ورقات شعورك يا روحي	في قلبي ليست بين يدي

ويجمع شاعرنا أطراف شجاعته ويدفع بعد ذلك إلى ملهمته برسالة ومعها قصائده التي صاغها من وحي تجربته معها.

وتتقبل الملهمة ذلك بفرح غامر وسرور مفرط، وتشكره على ذلك وتخبره بأنها كانت قد أحست بعاطفته نحوها من قبل أن يبوح لها بذلك، ثم تدفع إليه بورقة صغيرة تتضمن بعض الأبيات، وتُصبحُ هذه اللحظات التي استغرقها تسلم الشاعرة لما دفع به إليها الشاعر، وتلك التي تسلم منها الورقة التي دفَعَتْ بها إليه من أجمل اللحظات في حياة الشاعر إن لم تكن أجملها على الإطلاق.

وليس أدل على صحة قولنا هذا من ولادة قصيدة "أحلى الثواني" التي أعلن

[50] ص38 غيبوبة الحب.

فيها الشاعر بأنه قد وجد مجهولته، وقد صور في هذه القصيدة سعادته بالعثور عليها، وعبّر عن تخوفه من فقدانها.[51]

في موجةٍ من حنانِ	طافت بحار المعاني
نقلتني يا حياتي	إلى شواطي الأماني
وكنتُ قبلك أغفو	في زورق الحرمانِ
يهيم بي في الليالي	في أبحر النسيانِ
فتشتُ عنك دهوراً	من أقدم الأزمانِ
من قبلِ قبلِ وجودي	في عالم الأحزان
مجهولتي قد كفاني	ضياع عمري كفاني
وجدتك اليوم لكن	يا هول ما يغشاني
أخشى ضياعك أخشى	طوارق الحدثان
وقلت لي "كنت أدري	بقلبك الولهانِ
ما كان يخفي شعور	تذيعه المقلتانِ
مرآة شعرك تجلو	مفاتني للعيانِ
كتمتُ نجواك سراً	بين الضلوع الحوانيّ

وتتوالى زيارة الشاعرة الملْهمة للشاعر في منزله تواليا يدفعه إلى تصوير أثر تكرار هذه الزيارات على حياته، يقول في ذلك في قصيدته "وهج عينيك".[52]

كلما زُرتِ يا شقيقة روحي

فتّح الوردُ في حقول هوانا

[51] ص42 غيبوبة الحب.
[52] ص46 غيبوبة الحب.

ورأيـــت الحيـــاة شـــيئاً جديـــداً

مـــا وعتـــه أحلامُنـــا ومنانـــا

وهـــج عينيـــك مـــن ســـماءٍ بعيـــدٍ

لـــم يشـــاهد مـــن قبـــل فـــي دنيانـــا

يغســـل النفـــس مـــن غبـــار الدنايـــا

وبيـــتُ العطـــور والألوانـــا

ذقـــت منـــه الشـــرود والنســـيانا

ذقـــتُ منـــه الحنـــان والإحســـانا

فيـــك ســـر الحيـــاة كالشـــمس إمـــا

ظهـــرت يغتـــدي الـــثرى بســـتانا

لســـت أدري حظـــي لديـــك ويكفـــي

أنَّ حبـــي يطـــوي الـــورى والزمانـــا

وفي "غيبوبة الحُلم" التي عاشها الشاعر مع ملهمته يناشدها أن تدعه في غيبوبته التي جعلته تُحسُّ بوجوده، ويتمنى عليها ألا تبوح بحبه للناس الذين جبلوا من الطين، والذين لا يستحقون أن يستمتعوا بقصة هذا الحب النادر العظيم الذي لن يلبث أن يحوّلهم إلى حُسَّادٍ وعواذلَ: لا هَمَّ لهم إلا التفريق بين العاشقَيْن اللذين ينبغي عليهما أن يصمدا دفاعاً عن مصير ذلك الحب الذي لا يعرف مصيره إلا الله.[53]

أنقذينـــي مـــن هاويـــات الرقـــودِ

وابعثينـــي يـــا نشـــوتي مـــن جديـــدِ

أرســـليني فـــي فجـــر عينيـــك طـــيراً

ســـابحاً فـــي الجمـــال والتغريـــدِ

[53] ص50 غيبوبة الحب.

قبـــل رؤيـــاك مـــا شـــعرتُ بعمـــري

كنـــتُ محـــواً، وهـــا أنـــا كـــالوليدِ

أنـــا أحيـــا غيبوبـــةَ الحُلُـــمِ الفـــذِّ

بذنيـــاك يـــا أريـــج الـــورود

لا تبوحـــي للعـــالمين بحُـــبٍّ

جـــلَّ عـــن طينـــةٍ وعـــن جلمـــودِ

لا تبوحـــي فـــأكثر النـــاس للعشـــا

قِ يســـعى كعـــاذلٍ أو حســـود

اصمـــدي اصمـــدي إذا ثـــارت

الآفـــاق فـــي وجهِـــ حبنـــا كصمـــودي

وانشـــليني تَلْقَـــيْ فـــؤاداً كبـــيراً

فيـــه مـــأوى غرامـــك المنشـــودِ

لإلهـــي ســـلَّمتُ أمـــر غرامـــي

ولـيكـــن أمـــرُ خـــالقي المعبـــودِ

ويزور الشاعر ملهمته في بيتها، فتبرز إليه بعد فترة خلت فيها لزينتها، فيصور أثر ذلك في نفسه في قصيدته "زيارة" التي يقول فيها[54]

بـالأمس زرتـك يـا مُذَوِّبتـي ... فخلـوتِ للمـرآة فـي مَـرَح

وظهـرت بعـد هنيهـةٍ قمـراً ... وبششتِ لي في رعشة الفرحِ

فرأيـتُ أحلامـي مجسَّـدةً ... وشـهدتُ مـا أرجـوه من مِنَحِ

صـافحتني فسـرى بـأوردتي ... تيّـار كفـك غاسـلاً ترحـي

[54] ص56 غيبوبة الحب.

وتهامس الكفان أغنيةً ... أندى هوىً من نشوة القدح

وجلستِ باسمةً معبّرةً ... بصفاء وجهٍ فوق منشرح

وحديثنا في الشعر أوضح لي ... عن سِرّ وجدٍ فيكِ مُتّضحِ

فعلمتُ أنا طينةٌ جُبلتْ ... وتفرّعتْ شخصين في الأزلِ

طرفي وطرفك هكذا همسا ... من غير أصواتٍ ولا جُمَلِ

ترجمتُ في شعري كلامهما ... وكشفتُ أعماقي بلا وَجَلِ

وبقيتِ أنتِ اليوم صامتةً ... بغموض كهفٍ غير مُحتَمَلِ

هل من كلامٍ يا معذبتي؟! ... ولو أنّ في إفصاحهِ أجلي

ويطول صمت الملهمة، وتبطئ في الرد على تساؤلات الشاعر الذي يريد أن يطمئن على مصير حبه، ويعذبه الشكُّ في موقفها، فيصرخ متوسلاً إليها أن تخرج عن صمتها وأن تفصح عن حقيقة مشاعرها، ولو كان في ذلك وأدٌ لأحلامه وأمانيه. يقول في ذلك من قصيدته "الصمت والشك"[55]

أناديكِ والصمتُ العميق يجيبني

كما ضاع في الأغوار صوت المشرّدِ

أناديك.. لم أسمع جواباً لصرختي

كأني بليلٍ بالغيوم مُلَبّدِ

سكوتك يُضلّليني شكوكاً مريرةً

ويحجب عني بالدّجا باسم الغَدِ

أجيبي ولو بالرفض ترتّحْ هواجسي

وأخلُدْ إلى ليلٍ من اليأس سرمدي

[55] ص60 غيوبة الحب.

وفي "أوهام الغموض" يتصوّر الشاعر ملهمته امرأةً كلُّ غايتها أن تلْقيَ أنظار الشاعر، وأن تحظى بإعجابه، ليقول فيها شعراً يُخلّدُ ذكرها بين المُلْهِمات غير عابئة بما ستسبب له من آلام نفسية عندما يكتشف حقيقتها الرهيبة التي تقول بأنها لم تكن أكثر من امرأة تتلاعب بمشاعره وأحاسيسه[56]

يا رُبّما ناغمتِ لاهيةً ... شعري وقلبي فيك يحترقُ

وتقول نفسُك "شاعر وَلِهٌ ... سحري لدى أوتاره ألَقُ

في شعره اختال زاهيةً ... ويفوح من أوصافي العَبَقُ

ما ضرّ لو داعبتُ عابثةً ... آماله وجعلتُه يثِقُ

فيقول فيّ قصائداً غُرَرا ... ولو أنها من روحه مِزَقُ

ألهو به اختارُ أدمُعَهُ ... حبّاتِ عقدٍ فيّ تأتلقُ

وأفاخرُ الأجيال خالدةً ... في شعره ولو أنه خُرَقُ

كوني كما ترضين ملهمتي ... صدري على الإخلاص مُنْغَلِقُ

ويفيق الشاعر من غفوته بعد أن يكتشف أنه قد عاش قصة حبٍّ مُتَوهَّمةٍ لا مناص من وضع حدٍ لنهايتها ولو بالرحيل. يقول في ذلك من قصيدته "صَحْوَة"[57]

عذراً إذا لملمتُ أمتعتي

ورحلتُ عن حبي وعن أملي

فالحب إما كان من طرفٍ

لابُدَّ أن يذوي على مَهَلِ

أوهامُ قلبي حينما ثملت

قد كنتُ من عينيك في ثمَلِ

[56] ص64 المصدر السابق.
[57] ص68 غيوبة الحب.

يـــا ليـــت روحـــي قبـــل صحوتهـــا
قـــد لفّهـــا يضبابـــه أجلـــي

وقد أفرد الشاعر قصيدة كاملة ودّع فيها حبه وملهمته. يقول من قصيدته "وداعاً"[58]

ليذهبْ هواكِ الحلوُ في طيِّ غيهبٍ ... كما غاب نجمٌ في الظلام المُطَبّقِ
كما مرَّ حلمٌ في كرى الشوق باسماً ... كما لاح طيفٌ في الخيالِ المحلّقِ
أقام بروحي ضيفَ أنسٍ ونشوةٍ ... وودّع يأسي بابتسامةِ مُشْفقِ
سعدت به حيناً قليلاً ولم يَدَعْ ... سوى فضلةٍ في كأس راحٍ معتّقِ
وما بين لقياه وبين فراقِهِ ... سوى لمح برقٍ في دياجي التشوّقِ
هو الأمل المرجوّ قد لاحَ واختفى ... فيا حزنَ ذوْبَتي، ويا نارَ أحرقي
وداعاً أيا أحلى أريجٍ نشقتُهُ ... وأمتعُ طيفٍ في حنين المؤرّقِ
وداعاً ولكن في عروقي مآملٌ ... ألوذ به كالفأرِ المتعلّقِ

والشاعر لا يستغرب ضياع آماله واضمحلال أحلامه، وهو الذي لم يعتدْ من زمنه غير المشاكسة والكبت والحرمان، حتى وقر في ذهنه أن مهادنة الزمن له أمرٌ في عداد المستحيلات[59]

ما أظنُّ الوعود يا ابن الليالي ... سوف تدنو إليك بالآمالِ
فاشرب الوهم والخيال وصوِّرْ ... أنت نسجُ الأوهام وهجُ الخيالِ
أنت شوقٌ من الألوهة صافٍ ... فوق طين الآباد والأجيالِ
أيُّ خَوْدٍ تسمو على زينة الطين ... وتعلو فوق الكمال الكمالِ
أن تُلاقي "عروسة الحلم" الفردِ ... مُحالٌ وفوق كل مُحالِ

[58] ص70 المصدر السابق.
[59] ص73 غيوبة الحب.

وتستمر ملهمة الشاعر في تجاهله فيخرجه ذلك عن طوره، ويهجوها هجاءً غير مقذع في قصيدته "عاديّة" التي يصور فيها غضبه من ذلك التجاهل، ويُبَيّنُ لها أنها لا تختلف عن غيرها من النساء، وأنها لولا شعره لما كانت شيئاً مذكوراً بين لداتها وأترابها.

وعليّ -رحمه الله- يذكرنا في قصيدته هذه بقصة الثعلب الذي أجهد نفسه ذات يوم للحصول على عنقود من عناقيد العنب الناضجة، فلما عجز عن ذلك أعرض عن محاولته وهو يحاول إقناع نفسه بأن هذا العنقود مازال حصرماً لا يستحق ما يُبْذَلُ في سبيله من جهد[60]

أجمالُك هذا ساحرتي ... أم فنُّ خيالي يُبْدِعُهُ
ظمئي للحب يصوِّرُ لي ... معناكِ سراباً أتبعُهُ
من وهم رهافة إحساسي ... مِنْ عمق شعوري منبعُهُ
ما أنت سوى امرأةٍ تحوي ... ما كل امرأةٍ تجمعُهُ
عاديةُ نفسٍ وجمالٍ ... إشعاعك حسي مطلعُهُ
أرضٌ وخيالي يَرْفَعُها ... كسماءٍ ليست ترفعُهُ
أرضيّةُ نفسٍ وشعورٍ ... فصعودي خابَ تَطَلُّعُهُ
وهمي كم ورّط آمالي ... بسرابٍ ضاع تتبُّعُهُ
لو فكر قلبي في حبٍّ ... قلبي سأحاولُ أنْزَعُهُ

ويرثي الأستاذ مهدي الجندي لحال صديقه الشاعر بعد أن يقابله في إحدى زياراته الصيفية لحماة وهو لم يكن قد تخلّص بعد من آثار تلك التجربة القاسية التي مرّ بها مع تلك الملهمة، فيقترح عليه أن يرافقه في رحلة إلى لبنان لعل جماله الطبيعي يساعده على نسيان تلك التجربة القاسية.

ويستجيب الشاعر لنصيحة صديقه، ولكنه سرعان ما يكتشف أن لبنان بما

[60] ص76 غيوبة الحب.

حباه الله من جمال وسحر لم يستطع أن يُخلِّصَهُ من أسر تلك الساحرة التي تيَّمته.[61]

ويقـــولُ لـــي "مهـــدي" تعـــال لســـفرةٍ

لبنـــان للشـــعراء أروع موحـــي

تُســـلي وتطفـــئُ نـــار حـــبٍّ يـــالسٍ

وتعـــود فـــي صفـــوٍ لديـــه مَريـــحِ

فنشـــرت فـــي لبنـــان أجنحتـــي علـــى

قمـــم الهـــوى والمســـاحل المطـــروح

لـــم ألـــقَ فـــي لبنـــان غـــير خيـــالك

الرقّـــاف عنـــد إقـــامتي وننزوحـــي

كيـــف الخـــلاصُ وأنـــت مـــلءُ جوانحـــي

فـــي أدمعـــي فـــي جفنـــي المقـــروحِ

ورجعـــتُ أســـفح عـــبرتي وأقـــول يـــا

روحـــي علـــى وهـــج التفـــرُّق نوحـــي

وفي "صراخ الرميم" يحذر الشاعر ملهمته وينذرها بأنها ستعض بنان الندم على تجاهلها لما يحمل لها في أعماقه من حب عارم وعواطف متأججة.

وأنها سرعان ما ستكتشف عندما يداهمها الكبر، ويغزو رأسها الشيب، وتصبح وحيدة في عالم الشيخوخة البارد الكئيب بأنها الخاسر الأكبر في هذه المعركة[62]

إن لهوتِ اليوم عن حُبّي الكبيرِ
وتجاهلتِ هتافاتِ شعوري
وتصاممت عن البوحِ الكسيرِ

[61] ص 91 غيبوبة الحب.
[62] ص 94 غيبوبة الحب.

وتعاليتِ بأجواءِ الغرورِ
سوف يأتي زمن الصحو الخطيرِ
يوم ترتاعين للشيب المريرِ
وتقولين وداعاً يا سروري
سوف لا تلقين حُباً مثل حُبّي
سوف لا يهواك قلبٌ مثل قلبي
سوف تُزمَنين إلى قفرٍ وجَدْبِ
لخريف العمرِ في صحراءِ شيبِ
لضياعٍ مُهمَلٍ خاوٍ وكَرْبِ
يومها سوف تحنين لخصبي
لبساتين هتافاتي وحُبّي

ولما كانت بعض الأحلام التي يراها الإنسان في نومه ليست إلا انعكاساً لما ينهار من آماله في عالم الحقيقة والواقع نجد أن شاعرنا قد أصبح يلاقي طيف ملهمته في أحلامه الليلية بعد أن أصبح لقاؤه لها في الواقع أمراً بعيد المنال.

وفي هذه الأحلام كان شاعرنا يراها على الصورة التي كان يتمنى أن يراها فيها، وهي صورة كانت تبعث في نفسه ما كان يتوق إليه من الغبطة والحبور.

يقول الشاعر من قصيدته "لقاء الأحلام"(63)

آه ما أعذبَ في الأحلام يا روحي لقاكِ!
بحنين الحب والإخلاص فاضت مقلتاكِ
كل ما في الصحو يا دنياي من يأسٍ نواكِ
صار في الحلم حناناً ونوالاً يا ملاكي
إنها رؤيا أتت من بعد يأسٍ وغيابِ
أيقظت عمري وأحييت لي أمانيَّ شبابي
نشوة روحيّة النفحةِ أودت بعذابي
وسقتني من حميّا الصفوِ أحلامَ رغابي

****

[63] ص 99 غيبوبة الحب.

الحبُّ في ديوان إشراق الغروب

في هذا الديوان يحاول عليّ أن يبرر لنا التزامه بشعر الحب، وأن يفلسف لنا الحب ذاته، وهو في غمرة محاولاته لتفسير التزامه بشعر الحب وتبرير ذلك ودحض ما يوجّهُ إليه من حملات بسبب ذلك الالتزام، يقول: بأن الحب قصة مسلسلة أبدية مسرحها خفقان العروق، ولأنه نقيض الكره فهو لا يعدو أن يكون جزءاً من ثنائية من الثنائيات التي تقوم عليها الحياة.

ولكنه –على الرغم من ذلك– لم يستطع أن يقدم لنا صورة جديدة من صور الحب كما فعل في دواوينه السابقة، بل كرر في معظم قصائده ما مرّ من صور لحبه، فهو إما حبٌّ مذل يرفضه الشاعر لأنه غير متبادل، ويفرُّ منه فرار الإبل السليمة من البعير الأجرب، أو هو حب يبدو فيه المحب –وهو شاعرنا نفسه– محباً مخلصاً متفانياً في حبه بالرغم من جحود المحبوبة وتجاهلها وتغيُّرها، أو هو محبٌّ عذريٌّ يكتفي باللفتة السانحة، وبالكلمة الحلوة يجود بها عليه ثغر محبوبته، وبالإشارة المتاحة التي تجعله يرقص طرباً ويسبح في بحار أحلام اليقظة التي تجود عليه بأعذب القصيد. وهو أحياناً حبٌّ مراهق يذكرنا بقصائد الشاعر في ديوانه رعشات، وهو في قصائده هذه التي تصور رِدَّتَهُ إلى مرحلة المراهقة يحلم بامرأة يتمنى أن يقضي معها أوقاتاً سعيدة، ويحمل بشدة على الحُسَّاد والعواذل الذين لا يفتؤون يضعون العوائق والعراقيل بين الأحبة، وعلى الأعراف والتقاليد التي تحول بين قصص الحب وبين وصولها إلى غايتها السعيدة المتوخاة. وهو يوجه عتبه الشديد إلى ملهمته ويسائلها عن نهاية ذلك الحب الذي يفديه بحياته.

وربما كان الجديد الوحيد في قصائد هذا الديوان هو ظهور بذور القصة الشعرية عند عليّ. وقد أشار عليّ في بعض قصائده إلى إنكار إضفاء صفات المجهولة على بعض ملهماته مما يوحي بأن هذه القصائد قد صيغت في بطلة التجربة التي مرّت صورتها في قصائد ديوان "غيبوبة الحب".

يقول عليّ في مقدمة ديوانه " إشراق الغروب" مصوّراً استنكار الذين يتهمونه بتجنب الالتزام بقضايا أمته ومشكلاتها:[64]

[64] ص7 إشراق الغروب.

وقيل لماذا تنشر الحبَّ لاهياً

ونحن بحرب في الميادين لاهبِ

معاركنا شتّى ومن فرَّ خائنٌ

ولا بدَّ من كجنيد فنِّ المواهبِ

وأنت تغني الحبَّ، لكن بمعزلٍ

عن الشعب، لم تحفلْ بندب النوادبِ

ولم تلتزمْ بالمشكلاتِ ولم تَخُضْ

بما خاضَهُ أهل العقول الثواقبِ

تعال انصهر بالشعب، ذُبْ في ضجيجه

تَرَنَّمْ بآلامٍ، ونُحْ في خرائبِ

وبعد أن يفرغ من عرضه لرأي معارضيه نراه ينتقل إلى الدفاع عما اختاره لنفسه من مواقف مستنداً إلى موقف الطبيعة والحياة من الحرب ومما ينجم عنها من ويلات. وقد صاغ دفاعه ذاك في سلسلةٍ من الأسئلة الاستنكارية قائلاً:

فقلت: إذا ما الحرب ثارت أيُطفي

شعاعُ جمالِ الكائناتِ المُواظبِ؟!

أيحجب نور البدر عنا ابتسامةٌ؟!

أتبخلُ سحبٌ باللآلي السواكبِ؟!

أتستتر الأغصانُ في كل روضةٍ

عن الفجرِ، عن همس النسيم المُداعبِ؟!

أيفنى ربيع الأرض؟ لا تكتسي الرُبا

بزهرٍ كبسمات الحسان الكواعبِ؟!

وهو لا يكتفي بالاستشهاد باستمرار مظاهر الطبيعة المختلفة في أداء مهامها في أثناء الحرب بل تراه يقول: إن الإنسان نفسه يستمر في أداء ما خلق له من الأعباء حتى تستمر الحياة.

أيمضي عريسٌ من لقاء عروسه؟!

أيخبو لهيب الوجد في قلب خاطبٍ؟!

لماذا سيبقى في الحدائق وردها

بسلمٍ وحرب؟ في الهنا والنوائب؟!

وشاعرنا يعتقد أن السلم هو القاعدة، وأن الحرب هي الاستثناء، ولأن الأمر كذلك فإن الشعوب تسارع إلى إعادة إعمار ما دمرته الحرب، كي تعود الحياة إلى طبيعتها.

إذا عرضت حربٌ، أيبقى دمارُها

يُكسِّر دنيانا كفأس لحاطبٍ؟!

ألا تعمر البلدان بعد خرابها

وتثمو الجنان الخُضرُ بين الجوانب؟!

ثم يورد شاعرنا مجموعة أخرى من البراهين التي تثبت أن الحياة ليست إلا سلسلة من الثنائيات التي لا تتناهى:

وما الكونُ إلا فرحةٌ بعد مأتمٍ

وأعراس أطيارٍ، ونوحُ نواحبِ

ضياءٌ وإظلامٌ، وصبحٌ ومُسنيةٌ

مشارق شعَّتْ من دياجي المغاربِ

تفاؤلُ شعبٍ بعد يأسٍ هزيمةٌ

وإقدامُ مغلوبٍ لتحطيم غالبِ

حياة الورى تبقى بكل شؤونها

بحربٍ وسلمٍ كالدَّجى والكواكبِ

وهو يبيّنُ لمنتقديه بأن رياح الحرب أعجز من أن تطفيء نيران الحب التي قضى الله بأن تظل مشتعلة في قلوب الناس، وليس أدل على ذلك من أن العشاق يبذلون دماءهم رخيصة في سبيل محبوباتهم في أثناء الحرب، وأنهم يتغنون بما صاغ الشعراء في معشوقاتهم من شعر وهم يقبعون وراء متاريسهم في خط النار:

وما الحبُّ إلا فطرةٌ في مسالمٍ — *ويزدادُ في شوق البعيد المحاربِ*

يناضلُ عن أحبابه في دياره — *ويدفع عنهم شرَّ طاغٍ وغاصبِ*

فكيف يموت الحب في الحرب إنَّهُ — *هو الروح في خط الدفاع المغالبِ*

إذا ما تذكَّرنا الحبيبة نغتدي — *ندافع عنها بالقنا والقواضبِ*

نغنِّي بشعر الحب في خط نارنا — *فيدفعنا نحو العدو المقاربِ*

ثم يُعزِّزُ شاعرنا دفاعه عن نفسه وعن اتجاهه الشعري بسمو شعره، وابتعاده عن الهبوط والمتاجرة بالغرائز وخلُوِّه من الابتذال، وقدرته على غرس الصفاء في نفوس الناس والارتقاء بهم إلى مرتبة المتصوِّفين.

وما كان حُبيَ هابطاً لدعارةٍ — *وما فيه أجسادٌ لأوهام شاربِ*

لعمرك ما تاجرتُ بالجنس جاذباً — *غرائز فحشٍ في الحكايا الجواذبِ*

فَحُبّي سمو الروح عن أرض إثمها — *يصفي نفوساً من شرور الشوائبِ*

صفاءٌ به الصوفي يسمو لربّه — *ليشهد فنَّ الله من غير حاجبِ*

والحب كما يُصوِّرُهُ شاعرنا في قصيدة "المسلسلة الأبدية" ليس إلا قصة في حلقات تمثل فوق مسرح خفيّ، ستائره منسوجة من الحذر المستبد، وحوارها كلام العيون وقاعتها خفقات العروق، ونظّارتها الذين يصفقون لأحداثها الخفيّة هم ألسنة لهيب الحنين التي تشتعل في أرواح المحبين.

والفرق الوحيد بين هذه القصة وغيرها من القصص التي تمثّلُ فوق مسرح الحياة هو أنها بدون بداية ونهاية، لأن عرضها سيستمر ما دام هنالك حياة.[65]

أيا قصةً لم تزل في الضمير — لها مسرحٌ لا يراه أحَدْ

حوادثها في طوايا الخفاء — وأستارها الحذرُ المستبدْ

وفيها الحوارُ كلامُ العيون — عليه من الخوف ألفا رَصَدْ

وليس لمسرحها صالةٌ — سوى خفقات عروق الجسَدْ

يُصفّقُ فيها لهيب الحنين — بأعماق أرواحنا ما خَمَدْ

بدون ابتداءٍ، بغير انتهاءٍ — ستعرض سلسلة للأبدْ

وفي قصيدته "جديدة" يحكي لنا الشاعر قصة وقوعه في حبٍّ ملهمة شآمية جديدة. وقد ركز عليٌ في هذه القصيدة على وصف عيني هذه الملهمة وما تفعله في نفسه، وقد استغرق ذلك مالا يقل عن نصف أبيات القصيدة التي بلغ عدد أبياتها أربعة وثلاثين بيتاً. وقد خصّ بقية أبياتها بوصف وضاءة وجهها وبهاء طلعتها ورشاقة قدّها ورقتها وثغرها وابتسامتها والحب وأهميته في حياة البشر. وقد بدأ قصيدته هذه في تحريض ملهمته على إغرائه ومحاورته بلغة العيون التي لا تفوقها لغةٌ في التعبير عمّا تكنُّهُ القلوب[66]

تعرضي لي بأحداقٍ وإغراءٍ — ونظرةٍ ذات إيماءٍ وإيحاءِ

وحادثيني بها فالعينُ ناطقةٌ — تذيعُ ما يحتوي سرُّ السويداءِ

تلألؤُ الأعين النجلاءِ يجذبني — يا طيب ذلك من جذبٍ ولألاءِ

وهذه الأهداب التي تمطر السحر، ويتولّدُ فيها الحب، وتفصحُ عما في صدور العذارى من أسرار تكشف بتضافرها مع سواد العينين عن عوالم تزدحم سماواتها بالنجوم.

أما لغتها فأسمى اللغات، وأكثرها قدرة على التعبير. فهي أحياناً تجسم الحياء والخجل، وأحياناً أخرى تصوّرُ الشوق واللهفة والأمل، وهي علويّة

[65] ص15 إشراق الغروب
[66] ص 18 إشراق الغروب

الهمسات، لا تحفل بالرقباء والعواذل. ولا يحق لأحد أن يحاسبها أو يحاسب صاحبتها إلا الله الذي أودع فيها سر الإغواء.

ولأن الأمر كذلك فإن شاعرنا يُحرّض ملهمته الجديدة هذه على أن تصهر كبده بنيران الحب المتسعّر، لأن الحب أجمل ما في الوجود.

غَرّقتِ عينيك في عينيَّ فانكشفت

عوالمٌ في دُجاها كون أضواءِ

عوالمٌ لمعتْ زهرُ النجوم بها .

أجوائها غمرت بالنور أجوائي

حديثنا كان إشعاع العيون فما

حرفاً ولا لغةٌ إلا لإصغاءِ

أسمى حديثٍ حديثُ العين غارقةٌ

بالحب، يا طيب تحديقٍ وإغضاءِ!

غضيضة الطرف من شوق ومن خجلٍ

ما أروع الشوق في أحداق وطفاءِ

قولي بها كل شيءٍ إنها لغةٌ

علويّة الهمس في أخذٍ وإعطاءِ

قولي بها لا تخافي فهي مفصحةٌ

بلا رقيب بلا لوم وأخطاءِ

فلا يحاسب غير الله زلّتها

والله أبدع فيها سرَّ إغواءِ

وعن وجه هذه الملهمة الصبوح، وطلعتها المشرقة، وشعرها الحالك السواد، وجسدها البض الناعم وقدها الأهيف الممشوق وابتسامتها الزهراء يقول عليّ:

جديدة أشرقت شمس الربيع لها ... بلثمةٍ من نسيم الصبح خذباء

ريّا بخمر الصبا، هيفاء ناعمةٌ ... ووجهها الضوء محفوف بظلماء

تألّق البرق في ثغر إذا ابتسمت ... وأمطر السحر من أهداب حوراء

صغيرتي تزهر الدنيا بأجمعها ... من بسمةٍ في بريق الثغر زهراء

تضيءُ كل خفايا النفس بهجتها ... كالبرق في ليلةٍ بالدجن دكناء

ولما كان لهذه البسمة مثل هذا التأثير الفذّ فقد توسل الشاعر إلى هذه الملهمة الجديدة ألا تحرمه منها كي تبقى بالنسبة له مصدر وحيٍ وإلهام في ليالي الحب المشعة بالأضواء.

لا تخجلي وابسمي أفديك يا بسمةً

بكل دُرّ شهيّ اللمح وَضّاء

أعيشُ يا منيتي من زاد خاطرةٍ

بسّامةٍ في ليالي الحب قمراء

وحتى لا يكون الحب مصدر خوفٍ لهذه الملهمة، ولكي تستمر مصدر الهام للشاعر فإنه يشرح لها ما هيّته، ويدافع عنه، ويوضح أهميته في هذه الحياة، ويشجعها على التمسك به وعدم التخلي عنه لأنها مدينة له بوجودها هي وغيرها من الأحياء.

فالحب أجمل ما في الكون قاطبةً

سواه محضُ نفايات وأقذاءِ

لولاه نحن رمادٌ، فالحياة به

تغني الحياة. سواهُ رُغبُ إفناءِ

جديدة الحب لا تخشي ملامته

فإنه أصل إيجادٍ وإيحاءِ

لولاه ما خلقت أشخاصنا أبداً

فنحن من آدم حباً وحوّاءِ

جديدة الحب لا تخشي لواعجه

فهو الطبيعة في ذرات أشياءِ

ما كنتِ لولاهُ يا ريحانتي ألقاً

رضعتهِ من حنايا عطف أثداءِ

وقد أدرك شاعرنا -بعد أن تقدّم به العمر- أن بساط الشباب قد سحب من تحت قدميه، وأنه لم يعد فيه مطمع للحسان، وأن حظه منهن لن يجاوز النظر، وأنه لم يعد أمامه سوى التسليم بالواقع المرير المفعم بالبكاء واليأس وبرودة الكهولة والشيخوخة، والاكتواء بجمرات الشوق اللاهب وتذوق مرارة الحرمان، والندم على ضياع العمر وهو يفتش عن مجهولةٍ لم يظهر من يقاربها من النساء إلا هذه الملهمة الجديدة التي وضعتها الأقدار في طريقه بعد فوات الأوان.

لقد بزغتْ هذه الملهمة فجأة في حياته لتعيده إلى سن الشباب وأحلامه، ولتنسيه مجهولته التي طالما بحث عنها وعن أوصافها في مَنْ عرف من النساء.

وقد صوّر لنا: عليٌّ ذلك كله في قصيدته "إشراق الغروب" حيث يقول:[67]

سيظلّ مكنوناً إلى الأبد ... جمْرٌ يذيبُ حشاشةَ الكبدِ

نظر ولا شيءٌ سوى نظرٍ ... وسعير قلبٍ فوقَ مُتّقدِ

وبكاء نفس في سريرتها ... لم تُبدِ أدمُعها إلى أحدِ

وضباب يأسٍ مُطْبِقٍ خفيت ... فيه جميع معالم البلدِ

لكنَّ تحت رمادهِ اتّقدتْ ... جمرات شوقٍ لاهبٍ أبدي

يا حرقة الحرمان يا أملي ... يا بؤس روحي يا هنا رغدي

كيف انبثقتِ بعالمي أو ما ... شاخت به آمال ذي نكد

[67] ص23 إشراق الغروب

لقد جدّدت هذه الملهمة حياة الشاعر وبعثت في نفسه الكهلة حيوية الشباب وجعلته يندم على إضاعة شبابه في البحث عن المستحيل. وقد ملأ حب هذه الملهمة المعلومة على الشاعر حياته وفجر فيه الرغبة في اللهو، وأنساه اتزان الكهولة ووقارها، وجعلته يعيش في أضواء عوالم جديدة لم يعش في مثلها من قبل.

جدّدت فيَّ معالمي فإذا ... فردوسُ حُبّي بالظلال ندي

وكهولتي بشبابها بعثت ... في جانحيَّ مشاعر الولدِ

يفنى غروبي في مشارقها ... فأعيش ضوءَ عوالمٍ جُدُدِ

ولكن وعلى الرغم من ظهور هذه الملهمة في حياته، وتأثيرها الذي لا يُنكر في هذه الحياة، إلا أن شاعرنا الكهل لم يستطع أن يتغاضى عن الحقيقة المرة التي تقول: إن هذه الملهمة قد ظهرت في الوقت الضائع على حد تعبير المعلقين الرياضيين:

فُتِنْتُ عن مجهولتي زمناً

فغدوت يا معلومتي بيدي

بيدي؟! وكيف؟! وليس لي أملٌ

بسوى تأمّلِ طرفٍ مُرتَعِدِ

بسوى خيالك كل ثانيةٍ

أشكو له حرمان مفتقدِ

ملأ الوجود عليَّ لستُ أرى

إلاّهُ يا دنياتي يا رصدي

أرجعتني يا صبوتي حدثاً

نَضَّرتِ آرائي ومعتقدي

ونسيتُ فيك كهولتي، رجعت

أحلامي الأولى بلا رشدِ

وما دام الأمر كذلك فإنه لم يبق للشاعر إلاّ أن يكتفي بحبٍّ ملْهمته حباً روحياً يعايش من خلاله طيفها الذي يُجرّعه كؤوساً من الحب هي أحلى من الشهد المذاب.

إن كنتُ لا أقنيك بي جسداً ... أقنيك بي روحاً بلا جسدِ

أقنيك بي طيفاً يجرّعني ... كأس الهوى أحلى من الشّهدِ

ويمضي الشاعر في وضع النقاط على الحروف مصوراً وضعه وموقفه من هذا الحب الذي اقتحم عليه حياته في وقت غير مناسب فيقول:

ماذا فعلتِ بوامقٍ نهلَتْ ... عيناك منهُ بواقي الجسدِ

لم يبقَ من عمري سوى رمق ... جفّت ينابيعي فلا تردي

ماذا لكهلٍ شابَ مأمَلُه ... في معبد الحرمانِ منفردِ

صحراؤهُ جفّتْ على مطرٍ ... من دمع غيم اليأس مُطّردِ

ماذا فعلتِ بظامئٍ نظرتْ ... عيناه ينبوعاً ولم يردِ

والشاعر على الرغم مما خلّفتهُ هذه التجربة القاسية من ألم نفسي لا حد له فإنه يعفو عن ملهمته ويسامحها؛ بل ويطالبها في المضيّ بتحطيمه والقضاء عليه، إذ أن من الخير له أن يموت حباً بدلاً من أن يقضي بين الناس دون حب ينضّرُ حياته ويجددها.

يا حبذا كسْري وتجزئتي ... بيديك تحويلي إلى بددِ

أفنى أمام الحُسْن يا لهفي ... ما لي أمام الحُسن من سندِ

فالعيشُ دون الحبِّ محضُ ردىً ... يا حبُّ ذوبني إلى الأبدِ

وفي قصيدة "إيقاظ الرماد" -وهي أقرب قصائد الديوان إلى الشعر القصصي- يقص علينا الشاعر قصة حسناء التقاها فسألته عمّا نظم من شعر جديد. فيجيبها متغزلاً بأنه قد تجدد كلّه منذ أن التقاها، وأنه يدرك أنه شاعر سيّء الحظ، ثم يحذّرها من التلاعب بشعوره، والتّلهي بعواطفه.

وتجيبه هذه الحسناء بأنها قد لاحظت من خلال قراءتها لشعره بأنه غير

مُوَحِّدٍ في حبه، وأن ملهماته كثيرات، وكأنه امرؤ القيس الذي لا يصبر على طعام واحد، ولم يكتف بليلى واحدةٍ يشبِّبُ بها في شعره، فيرد عليها الشاعر بأن مأساته تكمن في أنه لم يجد بعدُ تلك المرأة التي تستحق أن تستأثر بحبه دون سائر النساء، وأنّ السر في تعدد ملهماته اللواتي يُشبِّبُ بهن هو ظنه أنه كلما التقى حسناء أعتقد أنها هي المجهولة التي طالما بحث عنها، ولكنه سرعان ما يكتشف خيبة أمله فيعود منقباً من جديد عن مجهولته التي لا وجود لها إلا في عالم الخيال.

وفي ختام قصيدته القصصية هذه يترسل الشاعر إلى هذه الحسناء أن تدعه وشأنه إن هي أنست من نفسها عدم تأهلٍ لحبه؛ لأنه غير راغب في أن يحترق بنيران حب دائم لا يخمد أوراها، ولا ينطفيء لهيبها. وأمّا إن كانت مجهولته التي يبحث عنها فما عليها إلا أن تصارحه بذلك ليعيش معها قصة حب تشرق لها السماوات بالحب وتتحول الأرض إلى خميلة خضراء.

وعند ذلك فقط سيكُفُّ عن التنقل من زهرة إلى زهرة، ويصبح موحداً في الحب بعد أن يغرق في صفو عيني محبوبته وحنانها.

وقد حاولنا جاهدين أن نختار من هذه القصيدة وما يمثل عناصرها دون أن نؤثر على حبكتها الفنية ووحدتها الموضوعية. يقول الشاعر:[68]

سألتني: ماذا نظمتَ جديداً؟ ... وطوى جفنها الهوى والحياءُ
أنا كُلّي لديك صرتُ جديداً ... صهرتني عيونك الكحلاءُ
أنا كُلّي أصبحتُ شعراً فريداً ... خلقته أهدابك الوطفاءُ
أيقظتني إلى صباحٍ سعيدٍ ... ثم غابت قليل عمري شتاءُ
عند بدء استيقاظتي غاب صبحي ... فإذا الليلُ أدمعٌ خرساءُ
أنا أدري حظي الشقيّ وأدري ... أن بي يسخرُ الهوى والقضاءُ
يا ملاكي لا تلعبي بشعوري ... فشعوري جهنّمٌ حمراءُ
سألتني: أرى بشعرك جمعاً ... من حسانٍ، أما بليلى اكتفاءُ؟!
كلما شمت بارقاً من جمالٍ ... كان فيه قصيدة عصماءُ

[68] ص31 إشراق الغروب

كامرئ القيس كل حسناء ليلى ... لم توحّدهُ في الهوى حسناءُ
إن هذا تنقلٌ فيه غدرٌ ... ليس فيه محبّةٌ ووفاءُ
فإليكِ الجواب يا نور عيني ... ليس ما بي تنقّلٌ وارتماء
إن مأساتي الوحيدة أنّي ... لم أجدها ولم يصلها النداءُ
حائرٌ باحثٌ أفتّشُ عنها ... وطواها عني الضُحى والمساءُ
كلما قلتُ هذه هي روحي ... .واطمأنّتْ في حيرتي الأهواءُ
وجرى شعري الوفيُّ لديها ... نهر حب إخلاصه وضّاءُ
خاب ظني وضاع فيها رجائي ... وطوتها السحائب الدكناءُ
هذه قصتي وسرُّ ضلالي ... وشرودي ومحنتي الصمّاءُ
فإذا كنت مثلهنّ دعيني ... في رقادي فبردُ يأسي هناءُ
أنا أخشى عليك من صحو حبّي ... فانفجار البركان فيه الفناءُ
وإذا كنت مَنْ أفتّشُ عنها ... أفصحي لا يكن لديك خفاءُ
أفصحي تشرق السماوات حباً ... والبرايا خميلة خضراء
إن تكوني ليلاي بوحي فروحي ... شوقها البكر ما عراه ارتواءُ
لا تخافي تنقلاً واحتوينيي ... طاب فيك التوحيد والاحتواءُ
أغرقيني في صفو عينيك حُباً ... وحناناً فبحر حبّي صفاءُ

وفي قصيدته القصصية "اعتذار" يعتذر عليّ إلى إحدى الحسناوات عن عدم استجابته إلى طلبها السماح لها بالاطلاع على ما نظم فيها من قصائد متذرعاً بأن إخفاء هذه القصائد حق لا يجوز أن تنازعه فيه مَنْ ألهمته هذه القصائد ما دامت لا تبادله الحب.

وهو يعلم حق العلم أن هدفها لا يعدو الافتخار بما أسبغه عليها من صفات تباهي بها غيرها من الحسان.

وقد ذكّرها الشاعر بأن كرامته فوق حبه، وأن المحبة المشوبة بالإذلال مرفوضة، وأن ما في هذه القصائد من شكوى لاهبة، وتحرُّق للحبيب وحنين وتشوق إليه لا يجوز أن تطلع عليها المحبوبة ما دامت تَصِمُّ أذنيها عن توسلاته وضراعاته.

وأخيراً ينصح الشاعر لهذه المحبوبة بأن تكتفي بدور الملهمة ليظل هو مخلصاً في حبها، ولتظل هي جامدة كتمثال فينوس الذي طالما تغزل به الشعراء دون أن يحس هو بشيء مما قيل فيه[69]

طلبتِ شعري الذي خبّأته خجلاً
وكان حبُّكِ يا دنياي أوحاهُ
وقلتِ لي: أنا غضبي من تحجُّبهِ
إن كنتُ غاليةً أظهرْ خبايَاهُ
أهداك حسني أشعاراً بها ألقي
فكيف تحجبُ عن حسني هداياه
إليكِ عذري يا روحي فلو طلبتْ
عيناك من شبحي قلبي لأعطاهُ
لكن طويتُ أحاديث الفؤاد فلم
أبُحْ إليكِ بما تخفي طواياهُ
دنياكِ مغلقةٌ عنه فلا عجبٌ
أن راح يغلقُ عن دنياكِ دنياهُ
زرعتُ حبي بأرضٍ لا نبات بها
فكان موسم جَدْبٍ ما حصدناهُ
أتطلبينَ الذي أعطى هواكِ أسىً
من القصائد، ما أشقى عطاياهُ!!

[69] ص39 إشراق الغروب

لتسخري من حنين كان من طرفي
وحدي، وتستمتعي لهواً ببلواهُ
لا لستُ أسمحُ أن يلهو به أحدٌ
فالذل ترفضهُ نفسي وتأباهُ
لو كان حبك بعد الموت يبعثنا
وثنا به بعضُ إذلالٍ رفضناهُ
إن الكرامة فوق الحب مبدؤنا
إن الخضوع شرابٌ ما رشفناهُ
ماذا يهمك من شعر كفرتِ به
ولم يهزّك أشهاهُ وأحلاهُ
يهمني أنا وحدي، إنه كبدي
كنزي الذي في دمائي كان مثواهُ
فلا تلومي إذا خبّأتُ عنك رؤى
شعري الذي من ضيا عينيك رؤياهُ
إني أحبك فلتبقيْ كذا صنماً
لولا الهدى والتقى كنا عبدناهُ
تمثال فينوس نهواهُ وما سمعت
يوماً نداءَ جراحِ الحبِّ أذناهُ

وعلي دمر لا يفتأ يُصرِّحُ في كثير من قصائده بأن حبه عذري، ومن القصائد الكثيرة التي صرح فيها بذلك قصيدته "التلميح" التي يطالب فيها ملهمته بتفسير ابتسامتها التي تواجهه بها عندما تلتقيه.

وهو يتمنى أن تكون هذه الابتسامة تلميحاً عن حب صادق، خاصةً وأن ابتسامة هذه الملهمة تحوّلُ عالم الشاعر إلى لوحة جميلة ليس فيها أيُّ أثر للقبح.

وشاعرنا -على الرغم من كل هذا الحب الذي يكنه لملهمته هذه -فإنه لا

يطمع في وصالها وهو الكهل الذي يحث خطاه إلى الزوال.

لذلك فإن كل ما يتمناه هو أن يستمر في رؤيتها، وألاّ يفارقه طيفها إذا فكّرتْ في فراقه حتى يستمر في تغنيه بهذا الحب العذري العظيم[70]:

لماذا تبسمين إذا التقينا ... بأعيننا؟ أحبٌّ أم دلالُ؟!
تصدّقُ لهفتي أن ذاك حبٌّ ... ويصرخ واقعي: أن ذا محالُ
وما أحلاكِ لو صدقتْ ظنوني! ... وإنْ غشّى أمانيَّ الخبالُ
أيا شمس البكور قدتك نفسي ... أيطمعُ في تألقكِ الزوالُ؟!
إذا نظراتنا حيناً تلاقتْ ... تقاصر عن حديثهما احتمالُ
فما في الكون شيءٌ فيه قبحٌ ... جميع الكائنات بها جمالُ
وما طمعي بوصلك في الأماني ... فنائي في هواك هو الوصالُ
كفاني أن أراكِ، فإنْ بعدنا ... فيكفيني التصور والخيالُ

وقد بلغ الفرح بشاعرنا أقصى مداه عندما تعطفت عليه إحدى الحسناوات وناديته بقولها: "يا حبيب القلب". وقد صور لنا فرحه ذاك في قصيدته "التصريح"[71]

لأول مرّةٍ يرتاحُ لُبي ... لأني قد وجدتُ حبيب قلبي
بقيت من السؤال بلا جوابٍ ... وكاد يضجُّ من شكواي ربي
هتفتْ: حبيبَ قلبي. أيُّ لفظٍ ... سرى في الروح يغسل كل كربي!!
ولأول مرةٍ في كل عمري ... أنادي يا حبيبي دون رَيْبِ

وقد زعم عليّ في أكثر من قصيدة أنه قد عثر على مجهولته ومن هذه القصائد:

قصيدة "واحتي" وقصيدة "وجدتها"[72] يقول في ذلك من قصيدته "واحتي":

[70] ص45 إشراق الغروب
[71] ص 49 إشراق الغروب
[72] ص52 المصدر السابق

مجهولتي كم تناجينا على أملٍ ... مؤجّج في حنايا الصدر منشورِ
جميع شعري فيما مرّ من عمري ... تساؤلٌ عنك لم يظفرْ بموعودِ
وصلتُ بعد اغترابٍ موطني فأتا ... أحيا بروضك بعد التيه في البيدِ

ويقول في هذا المعنى من قصيدته "وجدتها":[73]

أنتِ مَنْ كنتُ كلَّ عمري أراها ... في خيالي تبدو بكل وضوحِ
أنت مجهولتي قضيت حياتي ... لم أجدها ضاعت بكوني الفسيحِ
والتقينا ذُبَاعةً وابتسمنا ... ونظرنا بكل فهمٍ صريحِ
قلت هذي أنا أما تهتدي لي؟! ... بعد عقم التطواف بعد النزوحِ
أنا معلومة فعش في هدوءٍ ... يا حبيبي بعد السؤال الذبيحِ

وفي سياق فلسفته للحب يتحدث عليّ عن العلاقات السائدة بين الجنسين في المجتمعات، فيهاجم الأعراف والتقاليد التي حوّلت المرأة إلى كائن ثانوي يُشرى ويباع دون مراعاة لما يكنه هذا الكائن من عواطف وأحاسيس ورغبات.

وفي رأي الشاعر أن فارق السن لا ينبغي أن يقف حائلاً بين الرجل والمرأة ما دام الحب يربط بين قلبيهما. يقول في ذلك من قصيدته "الزيارة"[74]

لستُ أنسى حفاوةً وابتساماً ... في قدومي لبيتك المعمورِ
خلف ذاك الشباك لُحتِ لعيني ... بارتعاشٍ وفرحةٍ وحبورِ
كنتِ تشوى من السعادة حتى ... سِرْنا كاد ينتشي بالظهورِ

[73] ص 55 إشراق الغروب
[74] ص58 المصدر السابق

خِفْتِ من أهلك اطلاعاً على سرّك

يا هول حظنا من عثور

أنتِ أحببتني وأسعد ما في الـ

ـكون حبّ في الكوخ أو في القصور

أين مَنْ يعرفُ الحقائق في الحب

ويدري في الشرق كنه الأمور

التقاليد كل شيء لدينا

وابتزاز الأموال أصلُ الشرور

سلعة البيع في الزواج فتاةٌ

فهي تُشرى كأي شيءٍ حقير

ليس في بيعها بأثمن مَهْرٍ

أيّ فكرٍ عن نفسها والمصير

وهو في طرحه لهذه القضية الاجتماعية التي يصورها على هذا النحو يعلن لحبيبته أنه لا يقصد الإساءة إليها أو إلى أهلها، لأن كل ما يريده هو أن يبيّن رأيه في الحب الذي يرى فيه الوسيلة المُثلى التي تقرّب المخلوق من الخالق، وتجعله يتحد معه اتحاداً يرقى بإنسانيته إلى أسمى الدرجات.

لستُ أبغي إساءةً لكِ أولاً هل أو أيّ مَسَـلكٍ محظور

أنتِ عندي كنور عيني ولا بيغي أذى العين أيّ عقلٍ بصير

أنتِ إلهامُ خاطري وحنينٌ في عروقي وشعلةٌ في شعوري

والتقاء العيون أسمى منالٍ للنفوسِ عُلويّةِ التصوير

يتجلّى الإلهُ خلف وميضِ العين في طرفِ عاشقٍ مصهور

إن أسمى مراتب الحب دربٌ لسنى الربِّ للصفاءِ الأخير

ما نظرنا للحسن إلا لنلقى خلفه روعة البديع القدير

ويسعدُ الشاعر ذات يوم بلقاء إحدى الحسناوات عند شاطئ بيروت، ويحظى في هذا اللقاء بما لم يكن يتوقع من ألوان الحب والعطف والحنان، فيصور لنا ذلك في قصيدته القصصية "أحلى لقاء" وهي القصيدة التي وصف فيها مكان اللقاء وزمانه وعطف المحبوبة وجمالها وتجاوبها معه وأثر كل ذلك في نفسه.[75]

إسألي البحر بعد ذاك اللقاء هل سيرعى مكان عهد الوفاء

أيُّ نجوى بُحْنا بها لمساء الشط كانت تذيبنا في الخفاء

سنواتٌ ونحن فيها أسارى لقيود ثقيلةٍ من حياء

وجرى الوعدُ يا مناي حنوناً والتقينا هناك ذات مساء

منحتنا بيروت أحلى مكانٍ نتهادى إليه في خُيَلاء

وتناولت سمحةً كفيَّ الغافي فضجَّتْ في الكفِّ كلُّ دمائي

وجلسنا ثُم التقى ناظرانا فارتفعنا لكوكبٍ متنائي

لمحةٌ أوجزت جميع مُنانا عرضت قصةً بدون ابتداء

واندمجنا في البحر، في الأفق غبنا في خضمّ العوالم الزرقاء

وتعرفت بعد طول ضلالي كنه ذاتي ومولدي وفنائي

وصمتنا خوفاً من الزمن الآتي ومافي الغيوب من أنواء

وافترقنا والكفُّ بالكفِّ غضّتْ موعداً آخراً لأحلى لقاء

وتساؤلُ الشاعر عما توحيه عينا ملهمته، وما تكنانه من معانٍ غامضة كالطلسم يتردد في العديد من قصائده، ومنها قصيدة "الطلسم" التي يعلن فيها على رؤوس الأشهاد أن الحب الذي يكنه لمحبوبته عذري، تُجزئه فيه النظرة، وتسعده الابتسامة، ويشجيه صوتها وسطورها وتنهداتها وعطفها الذي يشبه

[75] ص 64 إشراق الغروب

عطف أمه[76]

أيُّ شيءٍ تخفي لنا الأيامُ ... يا غراماً ما ذاقه مستهامُ
يا شراباً من كوثر الخلد يروي ... ظمأ الكائنات وهي ضرام
خدَّرتني عيناك إذ نقلتني ... برؤاها لعالم لا يُرامُ
أنا أحيا في كونها فوجودي ... حُلم لا تناله الأحلامُ
يا شروقاً على غروب حياتي ... فصباحي لا يعتريه خِتامُ
أبداً صرت في الصبا قَلْبَمرَّ ... الدهرَ حولي، ولتركض الأيامُ
ضوءُ عينيك طلسمٌ يقهر الدهر ... ويُبقي صباي وهو غلامُ
كذب الشيب فالفؤاد رضيع ... وهو في صدر أمه استسلامُ
أنت أمي في عطفها وهواها ... لست أخشى على يديكِ أضامُ
أنا يكفي أن قلت لي يا حبيبي ... وتنهدت واعترتك انهدامُ
أنا يكفي هذي السطور، وهذا ... الصوت يكوى مسجلي والأوامُ
وشريطي خدَّرته بحنينٍ ... هو صحوي والناس طُرّاً نيامُ

وفي قصيدته "عام الفراق" يقرر الشاعر أن الفراق أمر مفروض على الأحبة لأنهم لا يريدونه ولا يسعون إليه.

والتحية التي تلقيها المحبوبة على الشاعر عندما تلتقيه لا تحمل من المعاني ما يطْمئنُ به قلبه وما تقرُّ به عيناه لأنها لا تفصح عما إذا كانت ما تزال على عهدها مع الشاعر، أم أن حبها قد ذوى وأصبح في عالم النسيان. وهو بدوره يريد أن يحدّد موقفه ليريح ويستريح مستسلماً للقضاء والقدر. وهو يطلب إليها أن يكون حبها كحبه في صدقه وعنفوانه وقوته، لاحباً مشوباً بالعطف الزائف الذي لا ينفع الغلّة ولا يطفيء الأوام[77]

أقفرت منك يا مناتي دُنايا ... فالثواني محروقة بأسايا

[76] ص72 إشراق الغروب
[77] ص76 إشراق الغروب

قهرتنا ظروفنا فافترقنا ... نحن يا روح للظروف ضحايا
لم تريدي هجراً، ولم أبغ بُعداً ... أنتِ مثلي مغلوبة يا هوايا
كتب الحب والفراق علينا ... لا يداك التي جنت لا يدايا
كُلُّ شيءٍ يهونُ لو دام لي في ... قلبك الحبُّ كامناً في الزوايا
أخبريني إن كان حبُّك يذوي ... لأداوي باليأس جرح منايا
لست أبغي هواك عطفاً وزيفاً ... لست أبغي إلا هوىً كهوايا

وفي "آخر الدرب" يمطر الشاعر ملهمتهِ بوابل من الأسئلة التي يحاول عن طريقها معرفة ما ينتظرهما في آخر ذلك الطريق:[78]

قولي، إلى أين نمشي؟ ما نهايتنا؟
ما آخرُ الدرب؟ ماذا في ضمير غير؟
ما غايةُ الشوط؟ هل تدنو سعادتنا؟
أم أننا سوف نقضي العمر في البُعد؟

وانطلق الشاعر يُحمّلُ ملهمته مسؤولية ما وصل إليه حبهما من نهاية مأساوية بعد أن تلقى إجابتها على تساؤلاته.

وحينما رُمْتُ تحقيقاً لمأملنا ... كتبتِ لي: لا تحاول. قف ولا ترد
عاداتنا عثرات فوق طاقتنا ... ما باختياري أمري، ليس طوعَ يدي
بل إنها كل ما أبغيه من أملٍ ... شوامخي انهدمت من تحتها عُمُدي

وقد أدرك شاعرنا -ولكن بعد فوات الأوان- أن ما كانت تضمره تلك الملهمة ليس إلا إعجاباً بشاعريته، وأنه لو كان حباً لاكتسح كل ما يقف في سبيله من مصاعب وفي مقدمتها تلك التقاليد العمياء:

وقلتُ ما ذاك حبٌّ صادقٌ أبداً ... الحبُّ فوق تقاليد بلا رشدِ
الحب يزحف كالإعصار مكتسحاً ... كل المصاعب، بحرٌ هائجُ الزَّبَدِ

[78] ص82 إشراق الغروب

صغيرتي فيكِ إعجابٌ وليس هوىً إن الهوى يقلع الخيماتِ بالوتدِ

وهكذا فإنه لم يبق أمامها إلا أن تحيد عن دربه حتى لا تحترق بنيران حبه... وإن شاءت غير ذلك فما عليها إلا أن تلعب دور الصديقة في حياته.

حيدي عن الدرب إمّا كنت لاهيةً فالحب يقتلُ من يلهو ولم يَجِدِ

أودُّ ألا تذوقي طعمه أبداً فإنه الجمر يكوي مُهجةَ الكبدِ

تراجعي عن طريقي واسلمي لغدٍ "صديقةً" مالها في الحب من جلد

وتحاول هذه المحبوبة أن تتدارك الأمر، فتقتحم على الشاعر باب منزله معتذرة عما تخيّلَهُ الشاعر من فتور شاب ما كان بينهما من علاقة، فلا يجد الشاعر مندوحةً من تصديقها وقبول اعتذارها، على الرغم من قناعته بكذب ادعاءاتها لأنه يُفضّلُ أن يعيش مخدوعاً بحبها على أن يكون محروماً منه. وقد حدث ذلك بعد أن وضع في يدها رسالةً يعلن فيها قطع علاقته معها على الرغم من علمه بأن شيئاً لن يعوّضه عنها في هذه الحياة.

وسَلّمَتْكِ يدي ظَرْفاً كتبتُ به:

قرّرْتُ قطع علاقاتي ولم أعُدِ

ودّعتُ عمري، هنائي، لم أجد عوضاً

أو سلوةً عنكِ في ريف وفي بلد

شردتُ أبكي بلا دَمْع ولا حلم

وفتّ من بعدك الخذلانُ في عضدي

وطيفكِ الحلو يجري في جميع دمي

وفي دروب حياتي صار لي رصدي

حتى اقتحمتِ عليّ الباب طائشة

لتدخلي باعتذارٍ كالظلال ندي

صدّقتُ يا واحتي أن لستِ كاذبةً

وأن حبّكِ لي أصفى من الشُّهدِ

أستغفر الله من وهم أساتُ به

رضاكِ حسبي وفيه منتهى رغدي

إن كان آخر دربي منكِ يحرمني

يا ليت أبي لم أولد ولم ألِد

واستعداد الشاعر لوطء الحب المذل بقدميه، ورفضه إياه من المعاني التي كررها علي في كثير من قصائده، ومنها قصيدة "بين الهوى والهوان" التي يقول فيها:[79]

ولما تمادى هواك اللطيفُ وصال بقلبي كذئبٍ عنيفُ

يمزق ما شاء في داخلي وينهش روحي بغدر مخيفُ

أفاق اعتزازي بليلي الرهيب وحرّك حسنّ إبائي الرهيفُ

رأيتُك أمسِ بدربي فجئتَ دمائي وعذّب قلبي الوجيفُ

وخلّفتني بالأسى والهوان شريد الخُطى فوق ذلّ الرصيفُ

فقلتُ لطيفك يا محنتي حليفك في بحر همٍّ حليفُ

إذا ما أتاني الهوى بالهوان فإني أدوس هواي السخيفُ

ولست أظنُّ أن حيواناً يسعد لوقوعه في شبكة صياد، اللهم إلا إذا كان هذا الحيوان إنساناً شاعراً، وكان صياده الذي أوقعه في شباكه حسناء متمرسة في نصب الشباك التي تفتل خيوطها من لفتاتها وابتساماتها ونظراتها وغير ذلك مما يتصبّى الشعراء ويوردهم موارد الهلاك. وقد عبر عليّ عن هذه المعاني كلها في قصيدته "الجاذبية" التي يقول فيها:[80]

ومهما يكن من شكوكي فإني إذا ما لقيتُك القى الوجوذ

---

[79] ص88 إشراق الغروب

[80] ص94 إشراق الغروب

تبسمتِ لـي فأنـا فـي الحيـاة ... يضيءُ ابتسامك درب الخلـودْ
تقولين لـي: حبنـا مغنطيـسٌ ... يجاذبنـا ولـو أنـا حديـدْ
وأنـت انجذابـي إليك قضـاءٌ ... برغمـي أفنـى ولسـت أحيـدْ
فيا شركاً قـاهراً فـي حياتي ... أصـاذ بأحبالـه لا أصيـدْ

والفصول التي تتألف منها قصص حب الشاعر علي دمر متشابهة متكررة. وهي ليست أكثر من تعارف يعقبه تقاربٌ يوحي بالإعجاب أو الحب، ويخلفُ للشاعر أشياء لا تفتأ تذكره بمحبوبته كصوتها الذي تسجله على بعض الأشرطة التي تبقى لدى الشاعر، وكتبادل النظرات والابتسامات والرسائل، وخاتمةٍ للقصة تترك الشاعر وحيداً يبكي حبه الضائع، ويندب حظه العاثر مع بنات حواء.

وكما صور عليٌّ ذلك في العديد من القصائد التي تحدثنا عنها، فإنه فعل ذلك أيضاً في قصيدته "الهزيمة"[81]

غزوتُ دنياك يحدو مـأملي الظُفَرُ ... غنائمي في هواك الشوق والسهر
يا غزوةً عشتُ في نصري بها جَذلاً ... أحسو مكاسبها راحـاً وأفتخـرُ
سـطَّرْتِ أسمى رسـالات معـبرةٍ ... عن الأماني التي في القلب تستعرُ
سجَّلْتِ لـي فـي شريطي كل خالجةٍ ... نجوى تكـاد لهـا الأكبـاد تنفطـر
عينـاك بـالنظر المخمـور تحملنـي ... إلـى سـماءٍ بـه لا يحلـمُ القمـرُ
كنـا غريقين فـي نُعمـى تهدهدنـا ... وفجـأة دون إنـذارٍ أتـى الخطـرُ
حجبـت عنـي رسـالاتٍ مُسـعَّرةً ... تكـاد أحرفهـا بـالصدق تعتَصـرُ
لم تصمدي يا منـاري فانتهيت إلـى ... قطيعةٍ، وذوى في روضنا الزهرُ
أتنتهـي قصـةٌ مـن غـير خاتمـةٍ ... يا بؤس فصلِ انتهاءٍ قلبه حجرُ
يـا غـزوةً بدؤهـا نصـرٌ وآخرهـا ... هزيمـةٌ فـي أساها القلب يُحتضرُ

[81] ص96 المصدر السابق.

وينهار حلم الشاعر في الزواج من حسناء صغيرة خُيِّل إليه أنها تبادله الحب وهو الكهل الذي قد نيَّف على الخمسين، فيُصدَم صدمة ينهدُّ لها قصر أمانيه عندما تصارحهُ تلك الحسناء بأنه كان من الأجدر به أن يزوجها من أحد أبنائه إذا كان همُّه الأكبر هو أن يراها دائماً أمامه. وقد صوّر عليٌّ ذلك في قصيدته القصصية "الانهيار"[82]

قـد انتهـى كـل شـيءٍ ... وجـاء فصـل الختـام
مأسـاة كهـلٍ غَبـيٍ ... يقتـاتُ بالأوهـام
قـد عابثتـه كعـابٌ ... بـأعين كالسـهام
وعـاش قصـة حـبٍ ... تمتـد فـي أعـوام
بنـى عليهـا قصـوراً ... مـن الأمـاني الجسـام
وأصبحـت كـل شـيءٍ ... لديـهِ بيـن الأنـام
تلاقيـا ذات صبـحٍ ... سـارا مـع الأنسـام
فقـال يـا زهـر عمـري ... يـا منتهـى أحلامـي
بنيـتُ مونـل حُبـي ... شـيَّدتُ عـشَّ الغـرام
وسـوف أكمـل بـاقي ... أمورنـا للتمـام
لتغتـدي لـي عروسـاً ... وتسـعدي أيـامي
فغمغمـت فـي بـرودٍ ... بلهجـة المتعـامي
يُقـال انـك عمـي ... ألسـت مـن أعمـامي؟!
خذنـي لذبلـك عرسـاً ... تكـنْ دومـاً أمـامي
فانهـار فـي لحظـاتٍ ... حلـم رفيـع التسـامي
وانهـد قصـرُ الأمـاني ... وصـار كـومَ رُكـام

[82] ص101 إشراق الغروب

وفي ديوان "إشراق الغروب" عدد من القصائد التي لم يأت فيها الشاعر بجديد لأنها ذات مضامين متشابهة طرقها فيما استعرضناه من قصائد هذا الديوان، مما يجعلنا نضرب صفحاً عن التعرض إليها بالتفصيل، ومن هذه القصائد قصيدته المنشورة في صفحة 104 من هذا الديوان، وهي بلا عنوان. وهنالك احتمالان لا ثالث لهما وهما: إما أن يكون الشاعر قد نسي أن يضع لها عنواناً، أو أن يكون عنوانها قد سقط مطبعياً وهو الأرجح فيما نعلن، ومن هذه القصائد "الاستغفار" و "الاستمرار" و "مرحبا" و "المفاجأة" و "رواية" ومن القصائد التي صور فيها خطأ اعتقاده بالعثور على مجهولته أو على بعض صفاتها قصيدتا "السقطة" و "كأس الخيبة" اللتين أنكر فيهما ذلك أيما إنكار. يقول من قصيدته "السقطة":[83]

لستِ مجهولتي ولست جناني ... يا سراباً من كاذبات الأماني
خدعتني عيناكِ يا خجلتي من ... لهفاتي، ومن لظى نيراني
يا ضلالَ الخيالِ! غالى وأغلى ... وهمي القاتلُ الذي قد رماني
سقطتي فجأةً على أرض صحوي ... وجناحيَّ في لهيب الدُّخان

ويقول من قصيدته كأس الخيبة:[84]

مجهولتي لم تزل مجهولةً ولكم ... ظننتها ظهرت فازهوهر الأفقُ
حتى إذا لاحت الآمال باسمةً ... وحادثت بعضها بالفرحة الحدقُ
تحطم الأمل المرجّو وانتشرت ... سحائب من دخانٍ فالمُنى مزقُ

وفي قصيدة حبٍ أخرى يقص علينا الشاعر قصة حبه لحسناء غادرة ظن أنها تبادله الحب، ولكنها لم تلبث أن قلبت له ظهر المجن، ولم تعد تفكر في رؤيته. ويلتقي شاعرنا هذه الغادرة ذات يوم فتتجاهله.

ويُصدم الشاعر لهول هذه المفاجأة التي لم تكن في الحسبان، ويتبعها حتى تتوارى عن أنظاره في أحد الأزقة. وهنا تثور ثائرته ويتذكر كرامته المهدرة، ودماء عزته المسفوح، فيُعلنُ رفضه لهذا الهوان لأن الفتاة التي تبغي هوانه لم

[83] ص115 إشراق الغروب
[84] ص116 المصدر السابق

تُخلق بعد، ثم يقرر أن يطردها من حياته لأنها ليست أكثر من أفعى غادرة تنفث سمومها في عروقه.[85]

كيف هانت عليك تلك الثواني ... فتوارت في غيهب النسيان
أو ما قلتِ إنني لست أنساها ... إلى أن ألفَّ في أكفاني
بعد هذا رأيتني في طريقي ... فتجاهلتني كمن لا يراني
دونما بسمةٍ ودون التفاتٍ ... لم أصدق ما تشهد العينان
وتدافعتُ تابعاً لك في سيري ... بخطو المحطَّم الحيران
وتواريت في الأزقَّة لاتد ... رين شيئاً عن غلَّة الظمآن
واستفاق اعتزازُ نفسي يطغى ... فوق حبي ولوعتي وجناني
لا تظني أني أهون فلم تخلق ... فتاة في الأرض تبغي هواني

وفي ختام القصيدة يعلن الشاعر لتلك الغادرة أنه قد قرر التفرغ لشعره الذي يسمو به ويبعث فيه العنفوان ويجعله محصّناً ضد كل ما تنفث الأفاعي من سموم.

أنا في عالمٍ فريدٍ من الشعر ... تسامى عن الهوى والغواني
فإذا ما غدرتِ بي لا أبالي ... غدرك النذل باعث عنفواني
هل طباغ الأفعى تبدل يوماً ... مَنْ سيمحو طباعَ الأفعوان؟!
إن درساً أعطيتنيه بليغاً ... لخليقٌ بفرحتي وامتناني
فاغربي عن معارجي فالأفاعي ... ليس ترقى لعالمي النوراني

وقد لخصّ لنا علي ما تخلفه معارك الحب بعد أن تصل إلى نهايتها بقوله:[86]

[85] ص118 إشراق الغروب
[86] ص 123 إشراق الغروب

خلّفتِ عندي آثارا مخلّدةً ... أوراقَ حبٍ، وصوتًا في مسجلتي

وصورةً حلوةً في الكرت باسمةً ... وألف صورةِ طيفٍ في مُخيّلتي

ونار كبتٍ تلظّى، ما خبت أبداً ... لهيبها آكلٌ روحي وأوردتي

وفي "العدم الموجِد" يقول الشاعر لإحدى ملهماته: إن الملهمة لا تستطيع أن تدرك قيمة ما تقدمه إلى الشعراء من إلهام.[87]

غربتَ شمسك عن أفق حياتي ... يا ضياعي في بحار الظلماتِ!

كنت لي روحاً فمذْ غبتِ ذوى ... كل شيءٍ فحياتي كمماتي

أنتِ حتى أنتِ لمّا تفهمي ... أنَّ في عينيك سرَّ الخافياتِ

أنَّ فيكِ العالمَ الأسمى انطوى ... المحيطات وضوءُ النيّراتِ

أنتِ لا تدرين هذا وأنا ... لمجرّاتِكِ معراج صلاتي

كلّ هذا منكِ لم تدري به ... ما درى الواهبُ مقدار الهباتِ

كنتِ كالشمسِ بها تحيا الدنا ... وهي جُرْمٌ لاهبٌ كالجمراتِ

مصدرُ الإلهامِ لي أنتِ وما ... فيكِ إدراكُ سموِّ الملهماتِ

****

[87] من 124 المصدر السابق

الفصل الثامن

الطبيعة في شعر علي دُمّر

نسج علي دمر على منوال الشعراء الرومانسيين في حبهم للطبيعة، وعشقهم لمظاهرها وفصولها، وافتتانهم بسحرها وجمالها، وبما توحي للإنسان من مبادئ ومثل جعلتها في نظر الرومانسيين المعلم الأول الذي ينبغي للإنسان أن يأخذ عنه ويترسم خطاه.

والقصائد أو الأبيات التي وصف بها علي الطبيعة ومظاهرها وصفاً خارجياً محايداً قليلة جداً إذا هي قيست بتلك التي مزج فيها بين نفسه وبين الطبيعة وما اشتملت عليه من مظاهر متنوعة تأسر الألباب، وتأخذ بمجامع القلوب، وتهزّ الوجدان، وتجعل الشاعر يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه ليس إلا جزءاً من هذه الطبيعة الجميلة الساحرة.

كان علي يعد الطبيعة أمه الرؤوم التي تحبه وتحنو عليه، وتتعاطف معه، وتشاركه أفراحه وأتراحه، والصديق الصدوق الذي يقاسمه همومه وأحلامه ونزواته، والخصم الذي ربما يقلب له ظهر المجن فيشمت به، أو يتآمر عليه، ويسخر منه ومن ضعفه وانهياره أمام الصدمات.

والطبيعة عند عليّ هي مسرح لهوه ومراحه، والمنبع الذي يستقي منه صوره الشعرية من تشبيهات واستعارات وكنايات ومجازات لغوية أو عقلية ورموز قريبة لا تنبو عن الذوق، ولا تدق على الأفهام.

وهي السماوات الرحيبة الآفاق التي يخلق فيها خياله المجنّح، والبحار التي يغوص في أعماقها ليقتنص منها كل ما يعجب ويطرب من الصور والمعاني

والأساليب، وهي بمظاهرها المتنوعة البرهان الساطع، والدليل القاطع على وجود المبدع العظيم.

وقد دفعه حبُّه للطبيعة إلى أن يتمنى اعتزال الناس في كوخ يقيمه في مزرعةٍ صغيرةٍ يفرغ فيها للشعر وتأمل الطبيعة التي علقها وتعلقَ بها إلى درجةٍ تقرب من التقديس.

لقد تمنّى علي أن يذوب بين أحضان الطبيعة، وأن يفقد وعيه وهو يسبح في خيالاته في فضائها الواسع العميق.

وكان قلبه في كثير من الأحيان يشعر بالانقباض من الحياة، ومن الناس الذين شكّلوا مجتمعاتٍ موبوءةً مفعمةً بالمشكلات التي جعلت من الحياة نفسها عبئاً ثقيلاً تنوء بحمله النفوس الشاعرية المرهفة التي لا تحلم إلا أن تعيش في عوالم مثالية خالية من كل ما يدعو إلى اليأس والقنوط. فلا يجد سوى الطبيعة ملجأ يفر إليه منهم.

كان عليّ يعشق الطبيعة، وينشد فيها العزاء عن إحباطاته المتكررة التي صادفته في عالم الواقع المرير.

وكانت أحلى ساعات عمره هي تلك التي يخلو فيها إلى الطبيعة مع حبيب أو صديق يجد فيه العوض عن سائر الناس.

وكانت فصول الطبيعة المتعاقبة، ومناظرها المتغيرة مصدر وحي مستمر لعليّ، فقد استمدّ ما لا يحصى من الصور والمعاني من الشتاء ورياحه العاصفة وبرودته التي تقطّع الأوصال، ورعوده القاصفة، وأمطاره الغزيرة، وسمائه الملبدة بالغيوم، وآفاقه المكفهرة، وأعاصيره المدمرة، وسيوله الجارفة، ومن الربيع وتجدد الحياة فيه وتفتح ورده وأزهاره، وانسياب جداوله، وخرير مياهه، ونضارة خضرته، ونضج ثماره، وانطلاق طيوره وتغريدها، واعتلال نسائمه، وصفاء أجوائه، وهديل حمائمه، وجميل أصائله. ومن الخريف وما يعتري فيه الطبيعة من تحولات توحي بالانقباض والتشاؤم، ومن الصيف، وما فيه من لفح الهجير وشدة الحر وسخونة الأجواء، وإقبال الناس على الاستمتاع بالتريض في البساتين والرياض الغنّاء، والشواطئ الساحرة التي تغص بذوات الغنج والدلال اللواتي يُبدين من زينتهن في الصيف ما كنّ يتحرجن من إبدائه في غيره من الفصول.

وإذا تتبعنا شعر الطبيعة في دواوين عليّ المختلفة فإننا سنجد أنه يتمثّل لنا

في ثلاثة أشكال:

أولها: الشكل الذي وصف فيه الطبيعة وصفاً خارجياً محايداً، رسم لنا فيه لوحات فنية جميلة لا نملك إلا أن نُعجب بها وبما اشتملت عليه من صوت ولون وحركة بعثت فيها الحياة، وجعلت منها أشبه ما تكون بصور سينمائية تُعرض أمام القارئ المتأمل.

وثانيها: الشكل الذي جعل فيه من الطبيعة منبعاً من منابع الإلهام التي يستمدُّ منها تعبيراته وصوره الفنية ومعانيه.

وقد ظهر ذلك في كثير من الصور البيانية التي استخدم فيها التشبيهات العادية والتمثيلية والضمنية، والاستعارات المكنية والتصريحية، والكنايات والمجازات اللغوية والعقلية، والرموز الطبيعية التي يصعب تتبُّعها واستقصاؤها لأنه لا يكاد يخلو من بعضها بيتٌ واحدٌ من شعره.

وثالثها: الشكل الذي مزج فيه بين نفسه وبين الطبيعة، وجعل فيه من ذاته وعواطفه وأحاسيسه جزءاً لا يتجزّأ من الطبيعة، ولا ينفصل عنها، ومظهراً من مظاهرها التي يتأثر بها ويؤثر فيها.

من القصائد التي وصف فيها عليٌّ بعض مظاهر الطبيعة وصفاً خارجياً محايداً قصيدته "شوق"[1] التي يقول فيها:

كم لي على ضفة العاصي وقد سكر الصـ

ـفصاف من مجلس في الروض معهود

هناك إن جنحت شمس الأصيل زهت

شطآنه بالرعابيب الأماليد

ولي هنالك أتراباً إذا بعدوا

يغيب أنسي وتجفوني أغاريدي

إذا أتيتهمو طاروا بشاعرهم

إلى الخمائل في هزج الزغاريد

---

[1] ص56 رعشة

كـم نزهـة فيهمـو والبـدر يضحـك إذ
جـرس الجـداول سـكران الأناشـيد
جمعـاً نصفـق فـي أنـس وفـي طـرب
تثيرنـا دندنـات النـاي والعـود
وللنواعـير آهـاتٌ كمـا انتشـرت
أنـات منصهـرٍ بالعشـق مفـؤود
دنيـا مـن اللهـو فـي الـوادي نعمـت بهـا
فـي عصبـة مـن بنـي الـوادي أماجيد
ومـا دمشـق -وإن راقـت خمائلهـا-
تلهـو صبـا بـردى بـالورد والخـود
يومـاً بمنسـيتي ربعـاً نشـأت بـه
فـي ظـل روضٍ بباب النهـر ممـدود

ثم انظر إلى هذه اللوحة الرائعة التي يرسمها عليّ بكلماته للطبيعة في فصل الربيع وهي من قصيدته (عرس الطبيعة)[2]

زغردت روعة الجمـال وهـامت — تمسح الدمـع والأسـى والشـجوبا
واستفاق الربيع في الحلل الخضرِ — بيـثُ الحيـاة روحـاً طروبـا
بجسّـتْ أعين السـرور وكـانت — فـي ليالي الشتاء تغفو نضوبا
وتراخـي الهـواء سُـكْراً ونـامت — لفحـة الـبرد لا تطيـق هبوبـا
فتعالىْ إلى الضفـاف إذا الشمس — اضمحلّـت وحـاولت أن تغيبـا
فاحمرار الأصيل ينشر فـي الرو — ح حنينـاً وصبـوةً ولهيبـا
وغمـام الجـواء صـار محبـاً — شـفّه الوجـد فاسـتجد نحيبـاً

[2] ص26 حنين الليالي

دمعـه يضحـك الخمـائل فـالرو — ضُ يناغي لدى المساء القلوبا
جلّ من لوّن الأزاهير فـي الفجر — وأبـدى بهـا الجمـال ضروبـاً
فكـأن الربيـع عـرسٌ بديـعٌ — كـل شـيءٍ يلـوح فيـه عجيبـا
تشرق الشمس في سماه عروساً — ترتـدي للضيـاء ثوبـاً قشـيبا
وقيـان الأفنـان تصـدح بـاللحن — ويحلـو لـلرقص فنـاً غريبـاً
كل غصن يهتز من سجعة الطير — كحـوراء تسـتميل الحبيبـا
والصبايا يلعبن فـي كـل روضٍ — كالعصـافير جيئـةً وذهوبـاً
كـل غيداء شـابهت ثمـراً غضـاً — وزهـراً لـدى الربيـع رطيـبا
فهي الغصن أنبت الورد والرمـان — والبـدر والدجـى والطيوبـا
يـتراقصن حـول كـل غديـرٍ — كالفراشـاتِ خفـةً ووثوبـا
خالقـات مـع الصبـاح صباحـاً — لا غروبـاً إذا بلغـن الغروبـا
يتراشـقن بالفواكـه والفـل — فينشـرن فـي النسـائم طيبـا

فالشاعر -عندما نتأمل هذه الأبيات- محابٍ يكتفي بالسماح لعدسته الشعرية بالتقاط الصور لمظاهر الطبيعة ومجاليها مضفياً عليها من خياله ما ألفناه من صور سبقه إليها كثير من الشعراء.

وفي قصيدته "جنة الصحراء" حيث قضى الشاعر أسبوعاً مع بعض رفاقه من الأعراب في مضارب عشيرة البشاكم نراه يصف لنا مظاهر الطبيعة الصحراوية بقوله:[3]

وافـى خيالُك يـا لـه مـن سـارى — والليـل جلّلنـي غريـب الـدار
أفدى الذي قد زار في عرض الفلا — إن الفـلاة قليلـة الـزوّار
يـا يوم بتنـافي بيوت الشعر مـن — وادي النخيل بصفحة المنظار

[3] ص112 حنين الليالي

يهفو نسيمُ الشيح فوق وجوهنا ... بأريج فوّاح الشذا معطار

والليل حاك على التلاع بروده ... والنار تسطع والسماء دراري

يزهو بأيدينا السلاح كأننا ... في الدجن طائفةٌ من الثّوار

وشدا الرباب على يديّ ذي نخوةٍ ... غردٍ يداعب نغمة القيثار

وإذا عروس الصبح شُقّ خباؤها ... واكتظت الأجواء بالأطيار

وتناغت الخرفان في سفح الرّبى ... وتراقص الرعيان بالمزمار

طرنا على الخيل العتاق كأننا ... جنٌّ بدت في البر للنظار

ترد المياه من العيون كأنها ... من حوض ماء الكوثر الفوّار

ترنو لنا الفتيات في عجب كما ... ترنو الظباء إلى شروق نهار

من كل مانسة القوام كأنها ... نظرت بعين الفرقد الدوّار

عيش كأحلام الصبايا باسمٌ ... متضوّع الآصال والأسحار.

وإذا مضينا نبحث عن القصائد التي يتمثل فيها الشكل الثاني من أشكال القصائد التي تعامل فيها عليّ مع الطبيعة، فإننا نجد أنه قد استقى صوره الفنية من الطبيعة في عدد كبير من قصائده حيث شخّص فيها مظاهر الطبيعة المختلفة وجسّدها وبعث فيها الحياة.

ولعل في مقدمة هذه القصائد قصيدته "شاعر"[4]التي نجد فيها عدداً من الصور المستمدة من الطبيعة، فالظلام في أول بيت من أبيات القصيدة مخلوق ضليل لا يحس بالشاعر الذي يسير متمهلاً متأنياً سابحاً في بحر من الذهول، ويعيش في خِضَمٍّ من الأوهام والأحزان، وهو يصفع الموج، وليل الشاعر مُضَمَّخٌ بالضباب، وقلبه يشوى في جحيم من اللهب، ويتلظّى بنيران الحب على الرغم من أن الهلال يرسل إليه ببسمة الشعاع.

والشفق في الأصيل يكسو الكون بحلة من اللهب، والليل يخبّئ النجم في دجى طيلسانه، والأنسام الحيارى تعانق روح الشاعر المحلقة في الآفاق هروبا

(4) ص10 رعشات

من تلظّي أعماقه قاصدةً السماء كي تحيا بين الأفلاك، والشاعر نفسه هزارٌ يتغنى في دوحة الفن فيسكر الروض من ألحانه، والظلام يخيّم على الكون ويلقي السكون في الوديان.[5]

أيُّ سار تحت الظلام الضليل ... يتأنى بمشيته

مطرقاً سابحاً ببحر الذهول ... يتثنى بسكرته

في خضمّ الأوهام والحزن أمسى ... يصفع الموج غارقاً في عُبابه

فيه نفس طموحة لو رأت في النجم ... فخراً لخاطرت لاكتسابه

ناظراً شمعة المُنى باتقادٍ ... تحت ليل مضمّخٍ بضبابه

يتلظّى إذا الهلال تبدّى ... مرسلاً بسمة الشعاع إليه

يسهر الليل كلّه في نُواح ... وتضجُّ النيران في جانبيه

سادراً سانحاً لدى كل نهرٍ ... باكياً جاثماً لدى ضفّتيه

وارتدى الكون جلّةً في الأصيل ... كلهيبٍ على الشفق

أو كقلبٍ دامي الجراح قتيل ... من حبيبٍ به خفق

وانزوى مفرداً كئيباً بليل ... خبّأ النجم في دُجى طيلسانه

حلّقت روحه على الأفق خوفاً ... من لظى جوفه ومن أشجانه

واعتلت تقصد السماء لتحيا ... بين أفلاكه وضيفَ أمانيه

كهزازٍ في دوحةٍ يتغنى ... يسكر الروض من صدى ألحانه

ثم لما نام الظلام على الكون ... وألقى السكون في ودياعه

أسند الرأس في أمانٍ على الـ ... كفّ وأغفى مستسلماً في مكانه

وفي قصيدة "رعشة" يبرز لنا الشاعر قلبه في صورة فرخ صغير مهيض الجناح صرعته الرياح الحانقة التي داهمته من كل فج فانزوى بجناحه المكسور صريعاً فوق أحد الأغصان مستحقاً رثاء الغيوم والبرق والثلج والظلام الكثيف،

(5) ص رعشات

ولكن الريح التي لا ترحم استمرت في مهاجمته إلى أن حطمت الغصن الذي كان يقبع فوقه، وزجت به بين جذور الأشجار التي يشبه حفيف أوراقها فحيح الحيات، بل ويشبه هزيم الرعود الذي يلقى الرعب حتى في قلوب الأسود.[6]

أرأيتم فرخاً تلوّى صريعاً
فوق غصنٍ يزقو بجنحٍ كسيرِ
هاجمته الرياح من كل فجٍّ
حانقات من الصبا والدبورِ
وغيوم الأجواء تبكي حزانى
فترى الليل في سكون مطيرِ
يلمع البرق والصواعق تترى
وجرى النهرُ مزبداً كالبحورِ
ستر الثلج شاطئيه فأمسى
شبه أفعى تسير بين الصخورِ
والظلام الكثيف خيّم حتى
صار يبدو كموحشات القبورِ
جثم الفرخ باكتئاب يقاسي
ألم البرد في فؤادٍ صبورِ
ذهبت أمه لتلقط حَبّاً
كي تُغَذّي وحيدها في البكورِ
لم تعد بعد من غيابٍ طويلٍ
أترى صادها كبيرُ الصقورِ؟!

[6] ر عشت

ثم هاجت ريحٌ فحطّمت الغصن
ن وزجّت بالفرخ بين الجذورِ
وحفيف الأشجار في الليل يزجى
الرعب حتى في قلب ليث هصورِ
غضبةُ الله في الطبيعة ثارت
فدوى الكون باصطخابٍ كبيرِ
كفحيح "حيات تسمع فيه
ودوي الرعود شبه الزئيرِ
وارتمى الفرخ فوق قبضة ثلجٍ
يتلوّى برعشة المستجيرِ
إن ذا الفرخ في عذابٍ مُمَضٍّ
هو قلبي في صدري المهجورِ

حقاً لقد أبدع الشاعر في تصويره غضبة الطبيعة التي رمز بها إلى الحياة على هذا الفرخ الصغير اليتيم الذي رمز به إلى قلبه المحطّم على الرغم من حداثة عهده بالشعر عندما جادت قريحته بهذه القصيدة التي تعد من باكورات ما نظم من قصيد.

وفي "ثروة الحب" نجد أن الشقاء يمّ يحتوى الشاعر وهو يناجي السماء الصمّاء بعويله الجريح، والهموم ليل يهيم الشاعر في خلاله، والحبيبة تبزغ فجأة في فكره كما يبزغ البدر في الظلام، والشاعر يتحول عند بزوغها إلى قُبّرة داهمها شعاع الصباح فانطلقت ترفرف وتغرد قاصدة بروح السماوات الوضيئة لتحيا سعيدة في فردوس مفعم بالصور البهيجة الجميلة[7]

إذا ما احتواني يمُّ الشقاء — وسرت بخزيٍ طريد البشر
أناجي السماء جريح العويل — كأن بأذن السماء الوقر

[7] ص ر عشت

وبينـــا أهيـم بليـل الهمـــوم ... سخين الدموع أثيث الشعر

بزغـت بفكـري علـى غِـرَّةٍ ... كبدر الدياجي عروس الفكر

فصـــرت كقـبَّرةٍ قـد بـدا ... عليها شعاع الصباح الأغر

فهبَّـت ترفـرف مـن غفـوةٍ ... وطارت تغني لحون السحر

وأمَّـتْ بـروج السماء الوضـاء ... إلى حيث تبغي بها مستقر

وذلـك حبـك قـد زجَّنـي ... بفردوس عيشٍ بهيج الصور

وفي قصيدته "بنت البلد" نجد أن للأشرعة فرحة بالوصول إلى الشطآن، وجمال بنت البلد المصرية السمراء يفوق الهرمين في قدرتهما على الإيحاء، وشعرها ليل السامر النشوان، ولآلئه كواكب تومض وتنشي الدجى بلمحها وخفقانها، وشفتاها أوراق ورد حمراء سميكة متجمعة، ورشاقة قدها مجسَّدةً من خمور العالمين، ونهداها يتراقصان، وردفاها يتماوجان.

أما قوامها اللدن فكالماء ليناً وكالأفنان في تكسر حركاته وكالرؤى التي تتراءى للسكران. وهي بعد ذلك كله عطر الربيع وزهره، وحديث العشاق والندمان في ليالي السمر الهانئة.[8]

لـو جمّعـتْ أعـراس أجيـال الـورى

وجميـع دنيـا الرقـص والألحـان

مـن عهـد مـا للنيـل مـن أنـس ومـا

لشـراعه مـن فرحـة الشـطآن

كنـت الجمـال الأسـمر الموحـي مـن

الإعجـاب مـالم يوحـه الهرمـان

شـعر إذا مـا الليـل خيَّـم كـان فـي الـ

ـأضـواء ليـل السـامر النشـوان

[8] من حنين الليالي

لمعـت لألِئـهُ كومـض كواكـبٍ

تنشـي الدُّجـى بـاللمح والخفقـانِ

وفـم سـميك شـفاهه متجمـعٍ

كتجمـع الـورد السـميك القـاني

عصـرو خمـور العـالمين وجسـّدوا

منهـا رشـاقة قـدك اللهفـانِ

فـإذا مشـيت تخلّعـت تلـك الخطـى

والخصـر إذ يـتراقص النهـدان

وشددت أطراف الملاءة كي يُرى الـ

ـتجسـيد إذ يتمـاوج الردفـان

فبـدا القـوام اللـدن فـي ريّ الصبـا

كالمـاء فـي ليـنٍ وكالأفنـانِ

متكسـر الحركـات فـي جـذلٍ كمـا

تبـدو الـرؤى فـي مقلـة السـكرانِ

والقصائد التي استقى علي دمر فيها صوره الفنية من الطبيعة كثيرة ومتعددة، واستقراؤها أمر لا تدعو إليه الحاجة، و لايستدعيه المقام، ويكفي أن نشير إلى عدد منها في ديوان حنين الليالي وهي: حياتي، وضوء القمر، وصورتها، وبيتهوفن العرب، وأيقظتني، واللاجئون، ودُمّر، وأمل تحقق وسواها.

وأما الشكل الثالث وهي القصائد التي مزج فيها علي بين نفسه وبين الطبيعة فإن قصيدة (غمغمات)[9] تقف في طليعتها، فهو في هذه القصيدة يناجي الليل ويتخذ منه صديقاً يفتح له قلبه، ويبثه شكواه، ويطلب إليه أن يرعاه، وأن يلهمه أفانين الصور، وأن يثير في نفسه الحرى الذكريات الجميلة التي قضاها

[9] من أرعشك

مع حبيبته الهاجرة القاسية

أيها الليل إذا غادرت ضوضاء البشرْ
وتواريت بجنحٍ منكَ في الجو العطرْ
تحت أذيالِ الظلام النابغيّ المعتكرْ
حيث لا يبصرني إلا نجيمات السحرْ
وتفرّدتُ على طودٍ قريبٍ من نهرْ
وسنوّست ريحٌ على ضفته بين الشجرْ
وشدا الصرصور والضفدع غنت في حذرْ
وصدى الناعورة الثكلى تعالى وانتشرْ
وَبَعَثْتُ الروحَ للأفقِ ووجهتُ البصرْ
فارعني يا ليل واخلقْ لي أفانين الصورْ
وأثر في نفسي الولهى جميلات الذكرْ
أيها الليل إذا مات ولم يحي الصباحْ
فاعلمن يا ليل أني عاشق ضل النجاح
كل ما ألقاه يا ليل ذبولٌ والتياح

وفي "ليلة شاطئ" يناجي الشاعر سكون البحر، وسواد الأفق، والبحر ورفيف الريح والليل وغير ذلك من مظاهر الطبيعة التي يجعل منها اصدقاء يفضي إليها بذات نفسه ويبثها همومه وأحزانه ويسائلها عن أوهامه الخفية، وعن كنه ذاته، ويعبر للبحر عن خوفه من ثورة أمواجه واندفاعها نحوه، ثم يشكو إلى الليل ضعفه ووحدته وما لقي على أيدي البشر من ويلات ومصائب[10]

يا سكون البحر آناء الدّجى هل سكون البحر أوهامي الخفيّة
يا سواد الأفق لا أعلمُ هل أنا معنى فيك أم معناك فيّة
أيها البحر أراني خائفاً منك إذ ما تدفع الموج إليّة
يا رفيف الريح في الغاب وقد تُرهب الحيتان في القعر دويّه
أنا يا ليل كفرخٍ هائم في مهب الريح لا يلقى مطيّه

[10] ص14 رعشات

كسرت جنحيه في آفاقه حجراتٌ من أيادي البشريّة

وفي "أمسيات النيل" يتخذ عليّ من النيل صديقاً يناجيه ويسائله عما وعى من أخبار العشاق الأولين، وعما شهدت شواطئه من متعهم ومسراتهم التي عبُّوا من دنانها حتى الثمالة، وعما حفظت ذاكرته من الشعر الذي استوحاه الشعراء من روعة النيل وعظمته وجماله، ومن أبناء الطغاة والفراعين، ومعاناة الكادحين من الملاحين الذين أفنوا أعمارهم فوق صفحته[11]

يا نيلُ كم رقصت عليك مَسَرَّةٌ في زورقٍ والليلُ جرَّ ذيولاً
كم " كيلو باترا" فوق لُجّكَ أشرعت في جنب "أنطونيو" تَبُلُّ غليلا
يا نيل كم نيلتَ بشطك بغيةٌ ولكم بها شهد الرغائب نيلا
في كل أمسيةٍ ضفافك تلتقي بالعاشقين مواكباً وسيولا
كم شاعر يا نيل جاءك شاكياً رتّلتَ حلو نشيده ترتيلا
كم سار فرعون عليك بصولةٍ تدعُ الزمان لخوفه مغلولا
كم فيك ملاّحون حرمانا قضوا كلّ الحياةِ متاعباً ورحيلا
والظالمون ثووا بظل قصورهم بالضفتين لذاذاً وخمولا
عاصرتهم يا نيل ثم طويتهم وشهدتَ غيرهمو لديك مثولا

وفي قصيدته "لقاء" يطلب الشاعر إلى محبوبته أن تسأل البحر عما إذا كان قد رعى عهد وفاء كل منهما للآخر، أم أنه تناساه كما نسيته، ويذكرها بما باح به كل منهما لصاحبه لماء الشط، وبما جادت به عليهما "بيروت" من توفير مكان اللقاء الجميل الذي سارا إليه في خيلاء، وكيف اندمجا في بحرها العظيم وأفقها الرحب حتى غابا في خضمّ العوالم الزرقاء، وكيف حزن الكون حين حان وقت فراق كل منهما لرفيقه[12]

إسألي البحر بعد ذاك اللقاءِ هل سيرعى مكان عهد الوفاء
أيُّ نجوى بُحنا بها لمساءِ الشطِّ كانت تذيبنا في الخفاءِ

[11] ص32 حنين الليالي
[12] ص64 إشراق الغروب

منحتنـــا بـــيروت أحلـــى مكـــانٍ

نتهـــادى إليـــه فـــي خُيَـــلاء

واندمجنـا فـــي البحـــر، فـــي الأفـــقِ غبنـا

فـــي خِضَـــمِّ العوالـــمِ الزرقـــاءِ

وغرقنـــا فـــي نشـــوة البـــوحِ وافـــتَرَّ .

تْ شـــفاةٌ مـــن غبطـــةٍ وهنـــاءِ

وصمتنـــا خوفـــاً مـــن الزمـــن الآ

تـي ومـا فـي الغيـوب مـن أنـواءِ

حـــزن الكـــونُ حيـــن قلـــتِ ســـنمضي

لافـــتراقٍ، وحيـــن آن التنـــائي

•••

الفصل التاسع

الغربة والحنين والشكوى والضياع في شعر علي

كان الاغتراب عن الوطن، ومفارقة مرابع الصبا والشباب التي نشأ بها علي، واضطراره إلى مبارحتها بحثاً عن لقمة العيش أملاً في تحقيق ما يصبو إليه من حياة كريمة تقيه وتقي أبناءه شر العوز والفاقة من أشد التجارب وطأة على نفسه، وأكثرها قسوة على أحاسيسه المرهفة ومشاعره الرقيقة الوادعة.

وقد أحس علي بالغربة الروحية قبل أن يحس بالغربة الفعلية.

فقد أدرك منذ أول عهده بالشعر أن الشعراء غرباء بالطبع لأنهم يعيشون في مجتمعاتٍ لا تقدِّرُ فنونهم ولا ترعى حق عبقرياتهم. ولا تهيئ لهم من الظروف ما يساعدهم على تحقيق طموحاتهم وأداء رسالتهم، بينما هي في الوقت نفسه تسمح للأراذل من النكرات والتافهين بالوصول إلى أسمى المراتب وأعلى المناصب.

وقد كان إحساس عليّ بالغربة الروحية في مقدمة الأسباب التي جعلت منه شاعراً ساخطاً على المجتمع، كثير التشاؤم قليل التفاؤل، يجأر بالشكوى من الحياة وما فيها من ظلم، ويحمل على الناس وما يُكِنُّون في نفوسهم من شرّ. ويصور قلقه من المجهول، وسأمه من هذه الحياة سأماً بلغ به في كثير من الأحيان أن يتمنى الخلاص منها بالموت.

وقد شاعت في شعر عليّ نغمة التشاؤم التي لم يكن يخفف من حدتها سوى

إيمانه العميق بربه وبقدراته الذاتية.

وكان هذا الإيمان يزوّدُه بشيء من الصبر، ويشجعه على الاستمرار في مقاومة ما يقف في سبيله من مصاعب وعقبات، وما يعترض محاولاته وكفاحه من مثبّطات.

لقد امتطى علي كغيره من شعراء جيله ظهر القلق وواصل رحلته في بيداء الضياع، ولهج بالشكوى من الغربة القاتلة، والاغتراب الموحش، وصوّر ما أحسّ به من السأم والملل والحيرة ورتابة الحياة.

والأبيات التي صور فيها علي هذه الأحاسيس منبثّة في دواوينه المختلفة. استمع إليه كيف يلخص ما يلقاه في حياته متخذاً من الليل صديقاً يبثه شكواه:[13]

كلُّ ما ألقاه يا ليلُ ذبولٌ والتياح

وهو في هذه الحياة ليس إلا طائراً سجيناً لا يجد غير الشقاء ولا يصادف في حياته من الناس سوى الحمقى ووحشيي الطباع الذين لا ينفع معهم كفاحه وذكاؤه ومنطقه[14]:

وما أنا في ذي الأرض إلا كطائرٍ

سجينٍ بقبرٍ فاقد النور ضيّقِ

مشيت بها لم ألقَ فيها سوى الشقا

وغير امرئٍ مستوحش الطبع أحمقِ

أكافح جهدي ثم ألوي بخيبةٍ

كأن فؤادي من حميّا الأسى سُقي

وعشت ذكياً، في حياتي مفكراً

فلم يكفني فيها ذكائي ومنطقي

وهو في إحدى مراثيه لأمه يشكو إليها ضياعه في عالمٍ قاسٍ خال من الرحمة، مفعم بالخيانة والخائنين والملل والضياع وخيبة الرجاء[15]

---

[13] ص8 رعشات
[14] ص19 الديوان نفسه
[15] ص 29 رعشات

لم أجد لي بين الأنام رحيماً *بعد ما غبتِ في الثرى عن عيوني*

خانني الناس بعد موتك حتى *إخوتي منهمو لقيت بلائي*

ضعت يا أم في الحياة كأني *لؤلؤٌ تحت هذه الأوحالِ*

إيهِ أماه قد مللت حياتي *قرَّ يأسي وضاع منه رجائي*

ليتني لم أكن وُلِدتُ فخيرٌ *من شقاء الحياة دنيا الفناءِ*

وهو في قصيدته "قسوة" يشكو قلّة النصير بالرغم من استحقاقه للمناصرة[16]

لم أجد لي على بلائي نصيراً *فيه عطف على فؤادي الجريح*

وقد أضاع الشاعر حياته وهو يبحث عبثاً عن أمانيه التي لا تفتأ تسكره بحميّا نشوتها الكاذبة التي تشبه السراب[17]

أضعتُ حياتي بالأماني ولم أزلْ *بكأسِ حميّاها أهيم وأسكرُ*

وأغفو على أيدي الهموم كأنني *ببحرٍ من الأوهام يطغى ويزجرُ*

أطير إلى الآمال وهي بعيدةٌ *كأني أراها بعد لأيٍ تنوَّر*

وما بسمة الآمال إلا خديعةٌ *أخف إليها ثم أكبو وأعثرُ*

وهو يردّد مثل هذا المعنى في قوله[18]

لم أزل سائراً على الشوك عمري *ومُرادي الوصول للجناتِ*

غير أني لم ألقَ إلا حطاماً *أحرقتهُ مطامع الشهوات*

وهو يجد في ولده أنس السلوان عن تنكُّر الأحزان وتغيّر الأصدقاء:[19]

كم من خدين لي تقلّص ودُّه *فوجدتك السلوان عن أحزاني*

ثم يعبر عن خوفه من المستقبل لأبنائه ويتمنى ألا يكون حظهم كحظه، وإلاّ

---

[16] ص68 الديوان نفسه
[17] ص25 المصدر السابق
[18] ص19 حنين الليالي
[19] ص64 المصدر نفسه

تدركهم حرفة الأدب كما أدركته، لأنها لا تورث أصحابها غير الرزايا السوداء المتتابعة:[20]

ليس يخلو الخوف من نفسي لما — سوف يأتي، ولما قد ذهبا
أنا أخشى حظكم أن يغتدي — مثل حظي تعشقون الأدبا
أدب الأحرار مَنْ شنّوا على — كل عسفٍ لجباً مُلتهبا
فتعيشون كعيشي تعباً — في الرزايا السود تتلو نُوبا

وأماني الشاعر وآماله التي تموت في مهدها أكثر من أن تُعد، مما جعل جمرات حزنه تبترد في مياه نهر يأسه التي تغرق فيها آماله:[21]

كم من أمانٍ لي تموتُ بمهدها — كالطفل يولد نعشُه إذ يُولَدُ
لهفي على يأسٍ يطيحُ بمأملي — في نهره جمرُ الأسى يتبرّدُ

وفي قصيدته "عُزْلة" يبرر لنا علي رغبته في اعتزال الناس بعد أن يئس منهم ومن دنياهم حتى لو كانت تلك العزلة في أعماق البحر[22]

أنا لو ألقيتُ في — لجّةٍ لن أخرجا
عُدْتُ فيها أرى — من رفاقي ملتجا
أجد الوحدة من — كل همٍّ فرجا
لا أرى يوماً على — ذي انفرادٍ حرجا
إنما الدهر جوىً — كله خالي الرجا
كل إنسانٍ به — غادرٌ لا يُرتجى

وقد صور عليّ قلقه أروع تصوير في قصيدته "ليل الشاعر" فقد حرمه قلقه من النوم الذي لا يجد الناس وسيلة غيره تريحهم من متاعب الحياة وهمومها، وأحاله إلى مخلوق غريب تتساءل النجوم عن حقيقته ومراده وتنصحه أن يخلد

(20) ص73 المصدر السابق
(21) ص106 المصدر السابق
(22) ص116 حنين الليالي

إلى النوم، إذ ليس في هذه الحياة ما يستحق أن يُهْجَرَ النومُ من أجله مادامت تنتهي بنوم سرمديّ يسألُ صاحبه عن أرقه الدائم الذي لا ينتهي.[23]

إلامَ هذا الأرق الدائمُ — حتّامَ هذا السأم الجاثم
نيام كل الكون يا شاعري — وأنت لا صاحٍ ولا نائمُ
بين زوايا البيت في عتمةٍ — تمشى كما يمشى الردى الحاتم
وتسأل الأنجم ما شأنه — هذا الفتى المستوحش الواجمُ؟!
ما باله يرمقُ إشعاعنا — بأعينٍ إشعاعُها قاتمُ
حيران لا يدري أأشواقهُ — تطفو به أم حقده العارمُ
يا شاعري هلاّ يذوقُ الكرى — جفنُك هذا الساهد الساهمُ
أأنت من غير بني آدم — فالنوم مضطر له آدمُ
ما تبتغي؟ ماذا وراء الدجى — ضيّعتَ يا مفتونُ يا واهمُ
لاشيء في الدنيا خليقٌ بأن — يأسى عليه الشاعر الحالمُ
قُم فهذا الفجر أدياكهُ — أحيا غناها الأملُ القادمُ
سينطفي منك سراج المنى — لما يحين القدر الغاشم
ونومك السرمد تحت الثرى — يهمس أين الأرق الدائم؟!

وقد حان قدر الشاعر، وأطفأ سراج أمانيه، وأظن أن نومه السرمدي قد سأله عما أفاد من أرقه الدائم في هذه الحياة التي ودّعها غير آسفٍ عليها وعلى ما فيها من سراب الأماني، وكاذب الآمال.

وفي قصيدته "قلق" يقرر الشاعر بأن حياته تسير بغير إرادته، وأن آماله تُوأدُ بمجرد ولادتها، وأن سهامه خائبة لا تصيب أهدافها، وأنه لا يحفل بنجاحه أو فشله ما دام قد بذل ما يستطيع من جهد في سبيل أهدافه، وأنه على الرغم من فشله المتكرر فإنه لن يتردد في الركض وراء أية بارقة لأمل جديد يلوح في أفق

(23) ص79 غيبوبة الحب

حياته، ما دامت إرادة الحياة تقتضي ذلك[24]

بغير إرادتي تسري حياتي ... أريدُ وغيبُ ربي لا يريدُ
أكافح ما أكافح ثم آوي ... إلى قدرٍ إرادتُه حديدُ
تخيب مطامحي بالرغم مني ... ويُذعن مأملي وهو الوليدُ
وكم صاولت دهري في نزالٍ ... وكم صوَّبتُ من سهمٍ يحيدُ
ولم أحفل بحظي هل تعيسٌ ... لدى كل المواقف أم سعيدُ
ويكفيني محاولتي وعزمي ... إلى هدفي هو العزم الشديدُ
سرابُ كل عمري في سرابٍ ... أطير له وما حان الوُرودُ
ولكني أرى في الدجن برقاً ... فيغمر خافقي أملٌ جديدُ
سأعدو نحوه مهما اعتراني ... أأجمدُ؟ مبعث الموت الجمودُ؟!

وكان فشل علي في العثور على مجهولته المثالية بين النساء من أعظم الأسباب التي أدّت إلى إحساسه بالخيبة، وقادته إلى الوقوع بين براثن اليأس والقنوط، وجعلته يرضى من الغنيمة بالإياب، والرسوّ بسفينته على شاطئ القناعة والانطواء[25]

صرتُ أضحوكةَ الأماني، دعيني ... فحياتي قناعةٌ وانطواءُ
عُقدتي خيبةٌ وخمري قُنوطٌ ... وارتياحي بلادةٌ وارتخاءُ
مزّقتني السهامُ مِنْ كلّ صوبٍ ... وطوتني ضراعةٌ بلهاءُ
ويحَ شكّي ما زال عُقْدَةَ خوفي ... فشلٌ راجفٌ وظنٌّ هباءُ
خيبةٌ مُرّةٌ ويأسٌ بليدٌ ... ورجاءٌ محطّمٌ وبلاءُ

ويقول مخاطباً تلك المجهولة في قصيدته "كأس الخيبة"[26]

مجهولتي لم تزلْ مجهولةً ولكَمْ ... ظننتُها ظهرت فازهوهر الأُفقُ

[24] ص84 غيوبة الحب
[25] ص35 إشراق الغروب
[26] الديوان نفسه

حتى إذا لاحت الآمال باسمةً ... وحادثتْ بعضها بالفرحة الحدَقُ
تحطّمَ الأملُ المرجوُّ وانتشرتْ ... سحائبُ من دخانٍ فالمُنى ميزَقُ

وعلى الرغم من ذلك فإن طيف المجهولة كان هو الذي يعيد إلى نفسه بوارق الأمل، بعد أن يُغلّفها اليأسُ الدامي الذي يُجلّلُ الحياة بالسواد.[27]

إذا ما اليأس ضرّجني وأضحى ... بعيني كلُّ شيءٍ كالمدادِ
لمحتُك في ليالي الشوقِ نجماً ... يثير بخاطري أحلى مُرادِ
فهل أملي يُحقّقُ في حياتي ... أم الأحلام تترى بأطّرادِ

وقد أحس علي دمر بالغربة الروحية في مجتمعه منذ الصغر لأنه وجد نفسه يعيش بين أناسٍ لا يقدرون ما تتسم به نفسه من سمو وطهر يصفعان الدناءة التي لا يجد غيره من الناس غضاضة في التعايش معها[28]

إنما الشاعر الحزين غريبٌ ... عن بني جنسه وعن أحزانه
روحه تصفع الدناءة والإ ... ثم وتحيا بالطهر بين جنانه

ويقول مصوراً نفسه بين الناس كلؤلؤةٍ مندسة بين الأوحال بدلاً من أن تتربع فوق صدر حسناء[29]

خُلِقْتُ في هذه الدنيا كلؤلؤةٍ
مكانها الصدر من حسناء كالقمرِ
لكنها أصبحت في غير موضعها
تندس ضائعة في الوحل كالحجرِ

وقد صور لنا عليّ في قصيدته "كوخي" عزمه على اعتزال الناس والعيش منفرداً في كوخ لا يسامره فيه غير الكتب والموسيقى وشعره الذي يضنّ به على

[27] النشيد5 من المجهولة
[28] ص13 رعشات
[29] ص72 رعشات

الناس الذين يعيشون في مجتمعات لا تختلف الحياة فيها عن حياة الغاب.[30]

سأبقى ما حييتُ على انفرادٍ ... فما في وحدة الإنسان عابُ
ولم آنس بخلٍّ قطُّ يوماً ... سوى معنى يتممه كتابُ
ولا أبغي نديماً في حياتي ... سوى لحنٍ يدغدغهُ ربابُ
وشعر لي يبثثهُ يراعي ... يُصاغ به لحسنائي عتابُ
سأكتمه عن الدنيا لأني ... بنفسي من بني الدنيا ارتيابُ
سأحجب عنهمو دقات قلبي ... فلي في عزلتي سرٌ عجابُ
وخير من بلاد الأرض طُرّاً ... وأبنيةٍ بها الإنسانُ غابُ
فيا قيثارتي في الليل نوحي ... فروحي للسماءِ بها انجذابُ

وقد امتاز عليّ بالوفاء للمرابع التي قضى فيها فترة من حياته فعمد إلى تصوير حنينه إليها بعد مبارحتها وتذكرها. استمع إليه وهو يصور حنينه إلى حمص متمنياً عودة ما ترك فيها من رؤى وذكريات[31]

يا حمص يا زهر الخمائل في الندى ... واهاً على تلك الرؤى لو ترجعُ
غادرتها فصهرت فيها أضلعي ... ويح الهوى كم فيه ذابت أضلعُ

ويذهب الشاعر إلى شواطئ اللاذقية فتذكره تلك الشواطئ بجنان دمر التي كان قد ألفها من قبل وأمضى فيها أوقات حافلة بالمتعة والسعادة:[32]

أحن إلى جنات دمّر كلما ... رأى القلبُ ما ينشي هواه ويطربُ
هناك لروحي ذكريات حبيبة ... إذا عاودت تُذكي غرامي وتلهبُ
وما مجلسي في اللاذقية مسيةً ... لدى البحر والأمواج تطغى وتصخَب
وحور الغواني السافرات بزهوها ... تجيء على متن الشراع وتذهب
وترشق بالأحداق أكباد من رنت ... إليهم فتسبي كل قلبٍ وتسلبِ

[30] ص 137 غيوبة الحب
[31] ص 93 حنين الليالي
[32] ص 89 المصدر نفسه

وما كل ذا الإغراءِ فيها بمخمدٍ ... هوى "دَمّرٍ" في القلب إذ يتوثّب
سعدت بها حيناً هو العمر كله ... وباقي حياتي مقفر الصفو مجدبُ
وما دمّرُ إلا الجنان التي بها ... وُعدنا وأحلى من بهاها وأعذبُ

ويرتحل الشاعر إلى القاهرة ليرشف العلم من أزهرها الشريف ويشاهد على شواطئ النيل من مشاهد الجمال ما يذكره بأيامه الحبيبة التي قضاها على ضفاف العاصي فيصوّر حنينه إلى تلك الضفاف وما فيها من جمال وأحبّة وأصدقاء بقوله:[33]

ذكرتني يا نيلُ أيام الهوى ... إذ في رُبى العاصي أهيم طويلا
حيث الفؤاد تفتحت أكمامهُ ... منذ الصبا وتعلّم التأميلا
حيث الجنان بحورها ويحوّرها ... والعيش يضحك ناعماً معسولا
حيث الأحبة والرفاق لبعدهم ... يمسي ربيعي مأتماً وعويلا
وحماة لو خُيّرتُ بين ربوعها ... والخلد لم أرغب بها تبديلا
ويجنة العاصي قضيتُ طفولتي ... وحفظت فيها للطيور هديلا
روحي إلى العاصي تحنّ وإنني ... من أجله أصبحت أهوى النيلا

وفي العشرين من ديسمبر سنة 1951 أرسل الشاعر قصيدة إلى زوجته يصوّر لها فيها حنينه إليها وإلى طفلها الأول "أنس" ويعتذر لهما عن اضطراره للتغرب عنهما حتى يحقق لهما حياة أفضل... يقول من تلك القصيدة[34]

إذا جنّ ليلي يا ابنة العم لم أنم ... وطيفُكِ في نفسي ملاكٌ مُصوَّرُ
وعينيك ما ذقتُ الهناءَ بغربتي ... لبعدك لو أهداني الملك قيصرُ
إذا كنتِ في الضفّات يا أم صبيتي ... وفي جنة العاصي النسيم المعطرُ
فلا تتركي ذكراي تشجيك إنني ... أخاف من الذكرى عليك وأحذرُ

[33] ص 43 حنين الليالي
[34] ص 107 حنين الليالي

وما موقفي والنيل حول ضفافه تتيه الغواني بالجمال وتخطر
بمخمد لوعاتي إليك وصبوتي ودمعاً لمشبوب الأسى يتحدّرُ
بربك قولي كيف يحيا وليدنا فقلبي إليه بالنوى يتفطّرُ
إذا مر بي طفل يهيّجُ لوعتي إلى "أنس" وجدّ يحزّ ويأسر
وما باختياري يا بني هجرتكم إلى مصر إن المرء في الكون مجبر
وما سفري إلا لنيل هنائكم بمستقبل أشهى لديكم وأنضرُ

ولعل قصيدته "أرق" هي أروع ما أبدعته قريحته في تصوير الغربة وما تتركه في نفس المغترب من حسرة وإحساس بالضياع[35]

عندما يرقد كل الناس تصحو ذكرياتي وأمانيّ وأحلامي ونجوى خاطراتي
وأرى ماضيّ كالأفلام يجلو لي حياتي يعرض الحرمان والبؤس وتيهي وشكاتي
وضياعي في بلاد الناس أسعى لاقتياتي دون عنوان ومجد دون تعريف بذاتي
أجنبيٌّ كل ما يعرف عن كل صفاتي تارك أوطانه يسعى لتحصيل الفتاتِ

ثم يتساءل متحسراً عن كل ما ترك خلفه في أوطانه من نفائس ثمينة وروابط متينة، ومرابع جميلة ومفاتن خلاّبة فيقول:

أين شعري؟ أين فني؟ أين مجدي ورواتي؟
أين حبي؟ أين روحي؟ أين قلبي وفتاتي؟
أين كتبي وصحابي؟ أين تقدير هُواتي؟
أين ميدان نبوغي؟ أين مجلى ملكاتي؟
أين نقاد فنوني وعُداتي وحُماتي؟
أين تأثير صراعي ودواعي وثباتي؟
أين ما يجعل قلبي لاهباً كالجمراتِ؟
أين إيقاظة أعماقي بسحر المعجباتِ؟
أين وديان وأنهارٌ ودنيا نُزهاتِ؟
في بساتين بلادي، في الربوع النضرات

[35] ص125 غيبوبة الحب

في العيون الدافقاتِ، في الجنان الوارفات
في السفوح الخضر في شمّ الجبال الشامخات
في الثغور الباسماتِ، في العيون الحالماتِ

ثم ينهي قصيدته معلناً في حسرة ضياع كل شيء في تلك الغربة القاسية الموحشة التي لم ترحم نبوغه ولم تعترف بجهاده.

أين، لا أين، ولا كيف، ولا أدري نجاتي
كل شيءٍ ضاع في هذي الرمال السافيات
في الفيافي الموحشات، في البوادي القاحلاتِ
في البلاد المقفراتِ، في الدروب الموحلات
في النفوس اليابسات، في الوجوه العابسات
يا ضياعي! يا ضياع العمر في هذي الفلاةِ!!

وقد صوّر علي في قصيدته (من الاغتراب إلى كوخي) عزمه على الكفّ عن الترحال ووضع حدٍ لاغترابه عن وطنه، بعد أن أدرك أنه لم يجن من غربته تلك غير الخيبة والضياع، وأعلن أنه سيقضي بقية عمره في كوخ شعره، ليحمى كرامته مقتاتاً مما تزرع يداه، معاشراً الطير والحيوان بدلا من الأخوات والإخوان، متفرغاً لفنه وأدبه تاركاً للأجيال عصارة فكره، غير عابئ بما يلاقي من نكران من حساده ومبغضيه، ولكنّ القدر لم يمهله كي يحقّقَ هذا الحلم المتواضع حيث قضى في ديار الغربة يرحمه الله[36]

ذهبت إلى بعض البلاد مدرساً وأفنيت دهراً من سنيّ حياتي
ألازمُ بيتي في الدياجي وأغتدي إلى حجرة التدريس في الغدواتِ
تركتُ أحبائي وأهلي مهاجراً وراءَ سرابٍ موحش الفلواتِ
أخب وراء الرزق في السعي دالباً ولكن رزقي واسع القفزات
ولستُ من الراجين رفهاً وثروةً ولابي طموحٌ جامح الشهواتِ
ولكنني أسعى لسدّ حوائجي وتفريجِ أحبابي وكيد عُداتي
وقد خابت الآمال فيها فلامشت إلى أي قطرٍ بعدها خطواتي

[36] ص128 غيبوبة الحب.

.....

رجعتُ لكوخ الشعر أحمي كرامتي ... وأقتات من زرعي ومن شجراتي

أعاشر فيه الطير والبهم بعدما ... يئست من الإخوان والأخواتِ

وأقرأ كتبي أو أناغي يراعتي ... بقرطاسي المصغي إلى نغماتي

لأترك للأجيال لحناً مخلّداً ... يفجر مافي النفس من صحواتِ

وأنشي لهم حقلاً من الفكر وارفاً ... أرويه من روحي ومن عبراتي

فإن رشقوا بالليل صبحي ومرّغوا ... عطائي بحرمان وعُنف أذاةِ

فما يردع الينبوع عن دَفْقِ خيره ... ورود ذئاب أو صدور جُناةِ

سأصرف مابقى من العمر كلّه ... بكوخي لغزل النور من كلماتِ

حقاً لقد غزل علي دمر من كلماته فيضاً من الأنوار المتدفقة التي ستبقى مناراً يرشد الأجيال إلى طريق الحب والخير والسلام ولكنه فعل ذلك دون أن يصرف بقية عمره في كوخه المأمول...

...

•••

الفصل العاشر

المثل العليا في شعر علي دمر

الشعراء بطبيعة تكوينهم النفسي والشعوري من أكثر الناس التزاماً بالمبادئ الإنسانية والمثل العليا التي تواضع البشر على تقديسها واحترامها والتحلي بها والمنافحة عنها، والحملة على من يستهينون بها، ويتجاهلونها عندما تتعارض ومصالحهم الخاصة، مما يدفعهم إلى التصرف بما يتناقض وهذه المبادئ إلى درجة تثير عليهم حفيظة الشعراء الذين يرون أنفسهم في مقدمة المدافعين عن تلك المبادئ والمثل التي تُعَدُّ -وبحق- الأساس المتين الذي تقوم عليه المجتمعات الإنسانية السليمة.

وقد كان علي دمر -رحمه الله- واحداً من هؤلاء الشعراء الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن هذه المثل في عدد من قصائده التي أفردها لتصوير موقفه من بعض هذه المبادئ، والعديد من الأبيات التي تراها منبثة في العديد من قصائده الأخرى.

وقد كان الحب بمعناه العام والخاص في مقدمة المثل الإنسانية التي نافح عنها عليّ، ودعا إلى الالتزام بها وشيوعها بين الناس. وقد أسهبنا في الحديث عن هذه القيمة من القيم الإنسانية الرفيعة في الفصل الذي تحدثنا فيه عن الحب في شعر علي دمر وبخاصة عن تلك القصائد التي وردت في ديوانيه "المجهولة" و"إشراق الغروب" إلا أننا نجد أنه لا مندوحة لنا من أن نشير إلى بعض الأبيات التي صوّر فيها الشاعر الحب تصويراً يميّزها عن سواها باعتباره قيمة إنسانية تقف في طليعة القيم التي يؤمن بها البشر.

في قصيدته "جديدة" يُصَرّح الشاعر بأن الحب أجمل مافي الوجود، وأن الحياة بدونه لا تساوي شيئاً، ولولاه ما عَمُر الكون بنسل آدم وحوّاء:[37]

[37] ص18 إشراق الغروب.

فالحب أجمل ما في الكون قاطبةً ... سواه محض نفايات وأقذاء

لولاه نحن رماد، فالحياة به ... هي الحياة، سواه رُغبُ إفناءِ

لولاه ما خُلِقَت أشخاصاً أبداً ... فنحن من آدمٍ حبّاً وَحَوّاءِ

والإنسان الذي يعيش دون أن يتذوق طعم الحب إنسان ميّت، ولذلك فإن الشاعر يتمنى أن يذوب حباً ماشاء الله له أن يعيش[38]

فالعيش دون الحب محض ردىً ... يـاحبُّ ذوبني إلـى الأبـد

وبَعْدَ أنْ شَعَرَ عليّ بسوء واقعه وشقاء شعبه أحس بحسرة دفعته إلى أن ينذر نفسه وشعره بالدعوة إلى الحب.

شعرت بواقعي وشقاء شعبي ... فكانت حسرتي فوق احتمالي

وطرتُ إلى صفاء الحب أحيا ... فليس الحقد من كرم الرجالِ

وقد بَرَزَ عليّ لمنتقديه التزامه بالدعوة إلى الحب في شعره بإيمانه الشديد بالحب الذي يجد فيه البلسم الشافي لكل ما تعاني منه البشرية من أدواء[39]:

أنـا يـاناس مانسيتُ بـلادي ... أو شعوبي أو عـالمي المدثـورِ

غير أنـي مُوَجَّـهٌ أرشد الطين ... إلـى مسلك الضيـاء الوفـيرِ

لسعيرِ الغرام يصهر مافي النفس ... مـن قسـوةٍ ومـن ديجـورِ

هو يجلو الفؤاد حتى يرى ... للخيرِ طعماً وبلسماً للنفورِ

الكراهات كم أثارت حروباً ... طاحناتٍ خوالداً في الدهورِ

إنما الكون لو خلا الحب منه ... كان قلب الإنسان بعض الصخورِ

وهو يناجي الموسيقار محمد عبد الوهاب أن يستمر في أداء رسالته الفنية ليسهم في علاج الإنسانية مما تعاني من أمراض الحقد والكراهية. بما يقدمه لهذه الإنسانية من ألحان[40]

---

[38] ص30 الديوان نفسه

[39] ص 12 النشيد الأول من (المجهولة)

[40] ص43 حنين الليالي.

يـانجيَ الحنين والحب والغبطةِ ... مجلى السرور في كل قلبِ

قُلْ لدنيا الحروب والفتكِ والعسـ ... ـفِ وعشاق كل جمعٍ وسَلْبِ

قُلْ لمن يبتغون أن يملكوا الأر ... ضَ ويستخدموا رعايا الربِّ

سـقم فـي نفوسـكم فتعـالَوْا ... لأ داو يكمو بجرعـةِ حـبِّ

وقد ذكّرنا عليّ بأن أسمى مراتب الحب هي تلك المرتبة التي تقود إلى معرفة الله معرفةً تؤدي إلى زوال الستائر والحجب التي تفصل بين الإنسان وبين خالقه:(41)

إن أسمى مراتب الحب دربٌ ... ليسنى الربِّ، للصفاءِ الأخيرِ

ما تُراب الأجسادِ إلا قشورٌ ... وضياء الأرواحِ غير القشورِ

بيننا والإلـه ألـف سـتارٍ ... ولهيب الهوى مذيب الستورِ

مانظرنا لِنُحْسنٍ إلا لنلقـى ... خلفه روعـةَ البديع القديرِ

وقدكان "الحق" هو القيمة الإنسانية الثانية من القيم التي دافع عنها عليّ، ودعا إلى مناصرتها والذبّ عن حياضها. وهو في قصيدته "الكنز المجهول" يُعلن أن البشر مختلفون في تعريف الحق، وأنهم لم يتوصلوا إلى تعريف دقيق لماهيته، وأن كل فريق منهم يفسره على هواه، وأن لهذا الحق ضحايا كثيرين، وأن كثيراً من الطغاة لا يتورعون عن صلب قائل الحق لأنه لا شيء يرعبُهم ويُرْعِدُ فرائصهم كالصدى الذي يحدثه النطق بكلمة الحق.

وقد بدأ عليٌّ قصيدته هذه في تصوير بحث الناس الدائب عن ماهية الحق وادعاء بعضهم التوصّل إلى معرفته والكشف عن حقيقته. أما الشاعر نفسه فإن الحق بالنسبة إليه لا يزال لغزاً يحيّره ويشقيه(42).

لا تسلني عـن الحقـائق شـيئاً ... فجوابـي عليك صعبٌ ثقيلُ

دَعْكَ في وهمك الجميل ودَعْنـي ... في عذابي. للحق شرحٌ يطـولُ

ألف دهرٍ والفكر يبحث عنـه ... وهـو كـنزٌ مُغَيَّـبٌ مقفـولُ

---

[41] ص61 إشراق الغروب.

[42] ص 107 غيبوبة الحب.

يزعُـمُ الكـل أنهـم كشـقوه ... وهو زعـمٌ أصولُـهُ التضليلُ

ثم ينتقل إلى تصوير كراهية الناس لقول الحق، وما يتخذون من مواقف عدائية من دعاته والمنافحين عنه:

يكـرهُ النـاس لطمـةَ الحـق إن ... كانوا غُفاةً فالنوم خُلْقٌ جميلُ

يصلبُ النـاس قـائل الحق إن كـا ... نوا غواةً فالغيُّ سُكرٌ قتولُ

يفزع الناس من صدى الحق رُعباً ... إنما الحق للجهولين غـولُ

وعلي دمر يذكرنا بأن الأنبياء والشعراء يشكلون الطليعة من كتائب شهداء الحق عبر التاريخ:

عُذِّب الأنبياء قِدْماً وغيلَـتْ ... شـعراءٌ أعـاظمٌ وعقـولُ

وهو يائس من صلاح الناس وهدايتهم، ومن أجل ذلك نراه يُبَصِّرُ أنصار الحق بما ينتظرهم من مصير مفجع، إذا هم أصروا على قول الحق والمنافحة عن حياضه:

يئس الفكر من هُدى النـاس حتـى ... قـال بعـض هداهمـو مستحيلُ

إن تشـأ أنْ تُهـانَ يومـاً وتغـدو ... مزقـاً قُطِّعَـتْ وأنـت قتيـلُ

فقـل الحـق مخلصـاً دون خـوفٍ ... وعليـك السـلامُ حيـن تقـولُ

كـم نبـيٍّ وكـم حكيـمٍ عليـمٍ ... قتلـوه وكـم جهـولٍ يصـولُ!

ثم يذكرنا عليٌّ بمواقف أبي العلاء المعري الذي اضطره طُغاة عصره إلى أن يعيش منزوياً داخل سجونه الثلاثة بعد أن يئس من وقوف الناس إلى جانب الحق:

وقديماً "أبو العلاء المعـري" ... جرَّب الناس فاعتراهُ الذهـولُ

فانزوى خائفاً ببيتٍ ضئيلٍ ... في سجون ثلاثـةٍ لا يحـولُ

وشاعرنا يُخيِّرُ معاصريه –إن هم آثروا السلامة والبعد عن الأذى– بين مجاراة المجتمع ومداهنته، وبين الوقوف إلى جانب الحق. ثم يوضّح لهم موقفه الخاص المتمثل في عدم مجاراته للزيف وعدم قبوله بالنفاق والمداهنة وتسخير قلمه في خدمة أعداء الحق، مما أورثه سخطهم والحكم عليه بأن يقضيَ عمره

في التشرد والغربة لاهثاً وراء لقمة العيش:

إن تشـأ أن تنـالَ حظـاً وفـيراً ... فامدح الناس جارهم إن يقولـوا

النفـاقَ النفـاقَ، لا تَـكُ مثلـي ... أنـا عيـش مـرٌّ ومـالٌ قليـلُ

أنـا قضَّيـتُ بالتشـرد عمـري ... وطريقـي صعب خطـير طويـل

لم أجارِ التزييف يوماً بأرضٍ ... لـم أداهِنْ كما تُساسُ الذيـولُ

فَتَشَـرَّدْتُ كـل يـومٍ بـأرضٍ ... أنـا فيهـا الغريـب والمجهـولُ

وقد رأى الشاعر في ختام قصيدته أن يوضح لنا الأسباب التي عصمته وحمته من التردي في هوّة المداهنة والنفاق معلناً إصراره على التمسك بموقفه هذا حتى لو كلفه ذلك حياته:

عربـيَّ الفـؤاد مـا هُنْـتَ يومـاً ... لا ولا ضمَّنـي رداءٌ خجـولُ

أنـا أقفـو "محمـداً" فـي عُـلاهُ ... حاربَ الزيف ما اعتراهُ ذبول

صـامداً صادعـاً بحـقٍ صُـراحٍ ... مـالغير الإلـه رأسـي ذليـلُ

ولْيكُنْ مايكونُ هل غير موت؟! ... لا يـزولُ التفكـير حيـن أزولُ

وفي قصيدته "معركة" يطالب الشاعر مغتصبي الحقوق بأن يبادروا بإعطائها إلى أصحابها قبل أن تؤخذ منهم عنوة(43):

يا أيها الناسُ أعطوا الحق صاحبَـهُ ... لا البطش ينقذكم منـه ولا الحَـذَرُ

إن الشعوب وإنْ لـم تحـوِ أسـلحةً ... بالظُفْرِ يأتي إليها المجدُ والظَفَرُ

وعلي دُمّر مؤمن بأن الحقوق تُؤخذ ولا توهب، وأن ما أُخذ بالقوة لا يُستَرَدُّ إلا بالقوة:(44)

لا يرد الحقوق مـن غاصبيها ... غـير نـيران ثـورةٍ حمـراءِ

وقد ظلّ عليٌّ طوال عمره مؤمناً بمستقبل أفضل للإنسانية وبأن اليوم الذي ستنشر العدالة أجنحتها فوق العالم ليس ببعيد: (45)

---

(43) حنين الليالي ص 85.
(44) الديوان نفسه، ص 79.
(45) المصدر السابق، ص 26.

إن دنيا الآلام والفقر والذلة تنوي بأن تعاف الشعوبا
الصباح الجديد يسري على الكو ن ليحيي التعيسَ والمحروبا
في غدٍ تنشر العدالةُ جنحيها تُظلُّ الشقيَّ والمنكوبا

وقد تمنّى أن يطول العمر بأبنائه حتى يشهدوا ذلك اليوم الذي تنعم فيه الإنسانية جمعاء بالأمن والسلام والعدالة والرخاء.(46)

مرجع الدنيا إلى يومٍ به ستنالُ الأملَ المُرتَقبا
إن شعب الأرض في أضلاعه جمرةً يوماً ستوري اللهبا
هل تعيشون إلى الفجر الذي سَيُعِمُّ العالَمَ المُنتَحيا؟!

وهو لا يكتفي بالتمنيات، بل إنه لا يتردد عن توجيه الدعوة إلى الشعوب المضطهدة للثورة على الظُلْم والظالمين في سبيل الحرية(47)

فيا شعوباً غفتْ في ظل آسرها ولم تزل في مهاوي البؤس تنحدرُ
هل يقظةٌ ترعب الأغلال حاقدةً بل أكاد أرى الطوفان ينفجرُ

وقد أهاب عليٌّ بأبنائه إلى أن يقفوا في وجه الظلم، مهما بلغت سطوة الظالمين وجبروتهم، وأن يحرصوا على التعامل مع الناس بأسلوبٍ إنساني كما تفعل الكواكب التي لا تميز بين المخلوقات وهي تغمرها بالأضواء.(48)

يابني قلبي مهما عصف الـ ـبغي كونوا في دجاه كوكبا
لم يعش من هاب، أو من طلبا إنما العيش لمن قد غلبا

وقد عبّر عليٌّ عن طموحه في وقت مبكر جداً من حياته الشعرية، بعد أن أدرك أنه يحمل بين جَنَبَيْهِ نفساً طموحةً تواقة إلى تحقيق العظيم من الإنجازات. يقول من قصيدته "شاعر" متحدثاً عن هذا الشاعر وطموحاته السامية(49):

فيه نفس طموحة لو رأت في النـ ـجم فخراً لخاطرت لاكتسابهْ

(46) حنين الليالي، ص 75.
(47) المصدر نفسه
(48) المصدر السابق.
(49) رعشات ص10.

سائراً للخلود رغم العوادي رغم حساد فنه ولبابهْ

وهو يردد المعنى نفسه في قصيدته "شاطئ"(50):

إنه يبغي إلى النجم عُلاً إذ يراها في دجا الليل سَنيَّهْ

ويؤكد هذا المعنى أيضاً في قصيدته "إلى الخلد يا أماه" قائلاً:(51)

سأصعد في الدنيا إلى ذروة العُلا وإني على متن السحاب لراكبُ

وقد أعلن عليٌّ الطّموحَ على رؤوس الأشهاد أن الإنسان الأبيَّ الطموح لا يمكنه أن يقبل الذلة والهوان:(52)

يافؤادي حلّق ولا تَكُ يوماً كطعين تحت السيوف طريحِ
ليس يحيا على الهوان عزيزٌ فيه شيءٌ من الإبا والطموحِ

وقد حالت ظروف الزمن العربي الرديء الذي قُدّر لشاعرنا أن يعيش في ظلالها بينه وبين تحقيق شيء من طموحاته وقد صوّر لنا فشله في تحقيق هذه الطموحات في قصيدته "الفشل الطموح"(53):

لا أرى السفحَ لي موضعي في القُلَلْ
في فؤادي ضياءُ الـ ـطُّموح اشتعَلْ
أومأت لي العُلا فوق هام الأزلْ
انتقلْ... انتقلْ من سفوحِ الزَّللْ
واقتحمْ واقتحمْ قمتي يا بطلْ

وقد حاول الشاعر جاهداً تلبية نداء طموحه، ولكنه لم يجن من محاولاته المتكررة غير الفشل الذريع الذي جعله يندب عمره الضائع وكفاحه المشلول:

فاستضاعت لي جانبيَّ الثُّعَلْ
وتَجَنَّيْتُ ما لم يَلُحْ للفكرْ
وتوهمتُ أني أنا المنتصرْ

(50) المصدر نفسه، ص 14.
(51) ص 21 المصدر السابق.
(52) المصدر السابق، ص 68.
(53) غيوبة الحب ص88.

سـوف أمحـو الدَّجـا مـن نفـوس البشـر

لا أمـــــــــل،

لا أمـــــــــل،

لهفتـي مـا العمـل؟!

ضـاع عمـري سـدىً وكفـاحي شَـلَّ

وقد حزّ في نفس الشاعر أن يحول الزمن بينه وبين تحقيق الحد الأدنى من طموحاته المشروعة المتمثلة في سد احتياجاته التي تجعله في وضع يسر أحبابه ويغيظ شانئيه.(54)

أأملُ أن أحظى بما يكتفي به قنوعٌ بهذا الكون دون شكاةِ

ولستُ من الراجين رفهاً وثروةً ولا بي طُموحٌ جامحُ الشهواتِ

ولكنني أسعى لسد حوائجي وتفريج أحبابي، وكيد عُداتي

وقد خابت الآمالُ فيها فلا مَشَتْ إلى أيِّ قطرٍ بعدها خطواتي

فدخل ذوي التدريسِ مثلي كأنهُ ثمالةُ فنجانٍ بكفِّ سُقاةِ

وقد أعلن علي بأن أنفته وكبرياءه واعتزازه بنفسه وإصراره على عدم التفريط بكرامته قد دفعته إلى عدم الوقوف على أبواب ذوي الجاه والسلطان، أو التزلف إليهم، أو أن يجأر بالشكوى إلى غير خالقه، وأجبرته على لزوم كوخه ليحمي كرامته وعزّته:

تركتُ ذوي الإثراءِ والجاه لم تسرْ إلى أحدٍ منهم خُطى رغباتي

وما وقفتْ رجلي على باب سيِّدٍ ولم أُلقِ ماء الوجهِ في العتباتِ

مضغتُ اعتزازي باعتزالي ووحدتي وأفنيتُ أيامي لدى خَلَواتي

أطالع كُتْباً أو أصوغُ قصيدةً أخفِّفُ من حُزني ومِن زفراتي

ولم أشكِ مرَّ العيشِ إلا لخالقي ولم تنخفض هامي لغير صلاتي

(54) غيبوبة الحب 138.

رجعت لكوخ الشعر أحمي كرامتي وأقتات من زرعي ومن شجراتي

أما نقاء سريرة الشاعر، وتساميه عن دنيا الناس، فقد صورهما لنا في قوله:(55)

تساميتُ عن دنيا الأنام لعالمٍ طهورٍ به نور الألوهةِ باهرُ

فكل عوادي الدهر عندي سعادةٌ إذا سعدت مني النُّهى والضمائرُ

وقد كان الإحساس بالأنفة ورفض الذل والمحافظة على الكبرياء من أهم الصفات التي امتاز بها علي دمر. وقد أعلن في العديد من قصائده أنه لا يوجد في هذه الدنيا شيء يستحق أن يتنازل الإنسان من أجله عن أنفته وكبريائه وكرامته. يقول في ذلك لإحدى ملهماته بعد أن أحس بأنها تحاول إذلاله:

سوف أعلو متنَ الحياةِ اقتداراً ثم لا أرتجي إليك سبيلا

أنتِ أدنى من أن تُنزِلَ فؤادي لغرامٍ أو أن تراني ذليلا

ويقول مصوراً رفضه الخضوع للحب مهما بلغت درجة حرارته(56)

ونفسيَ تأبى خضوع الهوى ولو كان ناراً تذيب الحديدا

ويقول مخاطباً طيف مجهولته: (57)

يا أيها الطيف إن ظننت بأني في الهوى قد ذَلَلْتُ لا ترجُ ذاكا

إن في نفسيَ الإباءَ مكينٌ ولصبري أودُّ ألاّ أراكا

وشاعرنا مستعدٌ لأن يدوس على حبِّه بقدميه إذا أحس بأن ذلك الحب سوف يجلب إليه شيئاً من الذلة والهوان(58):

إذا ما أتاني الهوى بالهوانِ فإني أدوسُ هوايَ السخيفا

وفي قصيدته "أفعى" يصور لنا عليٌّ ثورته لكرامته بعد أن أحس بأن فتاته التي تشبه الافعى في طباعها قد تهيَّأت لإذلاله بتجاهلها له، بعد أن غدرت به وآثرت غيره عليه:(59)

(55) النشيد العاشر من المجهولة ص 53.
(56) رعشات ص 40
(57) المجهولة ص 55.
(58) إشراق الغروب، ص 118.
(59) حنين الليالي، ص 115.

واستفاق اعتزاز نفسيَ يطغى ... فوقَ حُبّي ولوعتي وجناني
لا تظني أني أهُونُ فلم تُخلَقي ... قَطُّ فتاةٌ في الأرضِ ترجو هواني
أنا لي عالمٌ فريدٌ من الشعر ... تسامى عن الهوى والغواني
فإذا ما غدرت بي لا أبالي ... غدرك النذل باعثٌ عنفواني
هل طباع الأفعى تُبدَّلُ يوماً؟! ... من سيمحو طبائع الأفعوان؟!

ويقول مخاطباً طيف محبوبته الذي واقاه في الحلم وهو في ضيافة مجموعة من رفاقه من أعراب عشيرة البشاكم:

يا أيها العاتي على كبدي اشتدْ ... فهواك بي خطرٌ من الأخطارِ
أنا شعلةٌ لمعت على ليلِ الورى ... يجلو سناها غيهبُ الأفكارِ
ذلّ المحبون الألى خضعوا لدى ... مُرّ الهوى وبكوا على الآثارِ
زِدْ في جفاك أزد عُلاً في وحدتي ... أنا يا حياتي مفرد الأطوارِ

وشاعرنا يرفض رفضاً تاماً أن يسمح لأحد بأن يلهو بشعره الذي يصور مايكنه فؤاده من عواطف وأحاسيس[60]

طلبتِ شعري الذي خبأته خجلاً ... وكان حبك يادنياي أوحاهُ
لتسخري من حنينٍ كان من طرفي ... وحدي، وتستمتعي لهواً ببلواهُ
لا لست أسمحُ أن يلهو به أحدٌ ... فالذلُّ ترفُضُه نفسي وتأباهُ
لو كان حبُك بعد الموت يبعثنا ... وشابه بعض إذلالٍ رفضناهُ
إن الكرامة فوق الحب مبدؤنا ... إن الخضوع شرابٌ مارشفناهُ

حقاً، لقد كان إحساس عليّ المفرط بالإباء والشمم، ورفض الذلة والمهانة، وعدم استعداده لتقديم أي تنازل في مقدمة الأسباب التي أدت إلى فشله في ميداني الحب والبحث عن الثراء.

***

(60)

الفصل الحادي عشر

الموت في شعر علي دُمّر

الموت، نقيض الحياة، أو هو زوال القوة الحسية من المخلوق الحيّ عندما يحين أجله. وهو فعل من أفعال الله التي قهر بها مخلوقاته، فسبحان الحيّ الذي لا يموت.

وهو الخاتمة الحتمية التي تنتهي بها حياة كل إنسان، ومن أجل ذلك أطلق عليه الناس اسم هادم اللذات، ومفرق الجماعات. وهو قاهر الجبابرة والملوك، وحاصد الطغاة والمستبدين، وقامع المحاربين والمسالمين، لا ينجو من براثنه ذكر أو أنثى، ولا يفرّ من شباكه صغير أو كبير، يجثم فوق المخلوقات بكلكله، ويحصدها بمنجله.

يثير ذكره الرعدة في الفرائص، ويحمل الرعب منه المتعظين به على تجنب النقائص. وهو الحق المكروه عندالناس لأنهم جبلوا على حب الحياة، والتلهي بالآمال والرغبة في طول الآجال.

غير أن الشعراء منهم قد أسرفوا أيما إسراف في ذكره في أشعارهم وبخاصة شعراء المذهب الرومانسي الذي رأوا فيه الوسيلة المثلى التي تخلصهم من آلامهم وعذاباتهم.

ولما كان علي دُمر واحداً من شعراء هذا المذهب فقد ورد ذكر الموت في شعره في مواطن كثيرة من قصائده التي تتألف منها دواوينه المتعددة.

وقد أورده في شعره تلميحاً في بعض الأحيان وتصريحاً في معظم الأحيان. وأول ما يطالعنا في قصة علي دمر مع الموت هو زعمُهُ بأنّ الحب قد قاده

إلىمعرفة حقيقة ذاته وسبب وجوده وفنائه:[61]

وتعرّفت بعد طول ضلالي كنه ذاتي ومولدي وفنائي

وزعم أنه ومحبوبته خالدان، وأنهما أكبر من الموت والزمان.[62]

ونحن فوق الزمان فوق المنايا فوق أشلاء جسمنا المطروحِ

وهو يرد على منتقديه الذين أخذوا عليه انشغاله بالدعوة إلى الحب وتغاضيه عن توظيف موهبته في خدمة قضايا الأمةومعاركها بقوله: إن الحياةالإنسانية ليست إلا مسلسلاً تتألف أحداثه من الأفراح والأتراح، ومن الغناء والبكاء،وأن الحب لا يموت عندما تشتعل الحروب.[63]

وقيل لماذا تنشر الحب لاهباً ونحن بحربٍ في الميادين لاهبِ

معاركنا شتّى ومَنْ فرّ خائنٌ ولابُدَّ من تجنيدِ فن المواهبِ

وأنت تُغنّي الحب تلهو بمعزلٍ عن الشعب لم تحفل بندب النوادبِ

فقلت إذا ما الحرب ثارت أينطفي شعاع جمال الكائناتِ المواظبِ

وما الكون إلا فرحةٌ بعد مأتمٍ وأعراسُ أطيارٍ ونوحُ نواحبِ

فكيف يموت الحب في الحرب إنه هو الروح في خط الدفاع المغالب

وعلي دمر لا يُصدّقُ أن الحب الذي بعث حياة جديدة في نفسه إضافةً إلى حياته العذبة يمكن أن يموت في قلب صاحبته، وأنه لو صح ذلك فإن جميع النساء اللواتي ادعين الحب قبل صاحبته كاذبات[64]:

أنا لا أصدّق كل هذا الحب في دنياك ماتْ

ماكان شيئاً عابراً كان الحياة مع الحياةْ

إن كان حقاً مات لم تصدُقْ بدنيانا فتاةْ

وقد ادّعى علي دمر أن حسراته على فقدان محبوبته لن تنتهي مادام فيه

(61) إشراق الغروب، ص67.
(62) المصدر نفسه، ص 57.
(63) المصدر السابق، ص 7.
(64) إشراق الغروب ص134.

عرق ينبض، وأن ضياعها وفقدانها لا يعنيان إلا ضياع عمره وفناءَه[65]

آه كم في الروح من شوق وتحنانٍ إليكِ

ينفدَ العمرُ ولا تنفدُ حَسَراتي عليكِ

يا ملاكي كل أيامي وأحلامي لَدَيكِ

إن تضيعي ضاع عمري كلُّه بين يديكِ

وهو يضرع إلى محبوبتهِ أن تُفْصح عن حقيقة موقفها من حبه لها، ولو كان في إفصاحها نهايته[66]

هل من كلام يا معذبتي ولو أنَّ في إفصاحه أجلي

وعلي دمر واثق من أن حياته ستنتهي قبل أن يجد من يتعاطف معه من البشر القُساة الذين لم يأبهوا بما ابتُلي به من العذاب[67]:

سينقضي العمرُ ولا مشفقٌ تهمه بلواك أو راحمُ

سينطفي منك سراجُ المُنى لما يحينُ القدرُ الغاشمُ

ونومك السرمدُ تحت الثرى يهمس أين الأرقُ الدائمُ

وقد تألم عليّ لأن معظم أمانيه تموت قبل أن تولد: [68]

كم من أمانٍ لي تموت بمهدها كالطفل يولد نعشُهُ إذ يُولَدُ

وهو يكرر هذا المعنى في قوله:[69]

أؤملُ لكن حين يُولَدُ مأملي يموتُ فأبغي اليأسَ واليأس نافرُ

وقلب الإنسان الخالي من الحب في رأي شاعرنا قلبٌ ميّت، ومن أجل ذلك نراه يطالب محبوبته بأن تحترق معه بنيران الحب، لأنه إن لم يحترق بها فإن

(65) غيبوبة الحب 99.
(66) المصدر نفسه ص56.
(67) المصدر السابق، ص 79.
(68) حنين الليالي، ص 106.
(69) المصدر نفسه ص 116.

خمول الحياة سيحطمه لا محالة[70]

فراغ القلب موتٌ يا حياتي فهاتِ النارَ، حطّمني الخمولُ

ثم يصارح محبوبته بأن كل أمانيه ستموت، وسيعوي الدمار في حياته الخربة إذا قُدّر للحب أن يموت في قلبها:[71]

إذا ماتَ حبُّكِ يا وحشتي تموت الأماني ويعوي الدمار

وقد اشتط الخيال بعلي فزعم أنه قد علّقَ محبوبته -ولكن بلا أمل- من قبل أن يولد، وأن حبه لها سيصاحبه في جنة الخلد بعد أن يموت، وهو يتساءل عما إذا كان قد قُدّر له أن يلتقي حبيبته في عالم الأرواح بعد الموت:[72]

أهواكِ من قبل ميلادي بلا أملٍ وسوف في الخلد بعد الموت أهواكِ

حُرِمْتُ وصلك في هذي الحياة فهل إن مُتُ في عالم الأرواح ألقاكِ؟!

وقد دعا شاعرنا على نفسه بالموت بعد أن ندم على ما اقترف من إساءة أدت إلى فقدانه محبوبته:[73]

يا قُلّةً غضّةً بيضاء كالبرد قُتِلْتِ من أحمق أذبلتُها بيدي

وقد تمنّى على محبوبته أن تزور قبره إذا قُدّرَ له أن يموت شهيداً لحبها:[74]

ماذا تقول إذا مامُتّ من شغفٍ وصرتُ في الرمسِ مقتولاً من الكَمَدِ

بالله، إما ذوى غصني وأودعني أهلي التراب بقبرٍ خارج البلَدِ

فاذهب إليّ وحيّ القبر مُذّكراً أيام كنا معاً في سالف الأمَدِ

وعلي دمر لا يرضى بديلاً عن الموت في سبيل المحبوبة:[75]

فناني في هواها لستُ أبغي بديلاً عنه في بُعدٍ وقربِ

وهو يعاهد محبوبته بأن حبها سيظل مختلطاً بكل ذرة من ذرات جسده حتى

---

[70] غيبوبة الحب، ص 33.
[71] إشراق الغروب، ص 106.
[72] حنين الليالي، ص 111.
[73] رعشات، ص 49.
[74] المصدر نفسه، ص 66.
[75] غيبوبة الحب، ص 49.

بعد الموت.[76]

لن تنزولي من ذرةٍ في رفاتي يا حياتي ويا ضلال هُدايا

وفي رأي علي أن حتمية الموت لا ينبغي أن تحول بين الإنسان وبين الصراع من أجل آماله، على الرغم من أنه لن يبقى منه ومنها غير الذكريات[77]

فيا عجباً من صروف الزمان . حياة وموتٌ وكأسٌ تُدار

نعيش ونفنى بآمالنا . ونبقى إذا مابقينا اذكار

وقد توقع عليّ الموت وخشي أن يوافيه في مناسبات عدة.. توقعه في حالة فشله في الحب:[78]

لم أرجُ للقلب شيئاً في الحياة سوى أني أراك بأجناحي تناجيني

فإن أخب فحياتي، للفناء غدتْ قريبةٌ ومماتي سوف يأتيني

وتوقعه في غربته مما دفعه إلى أن يوصي أهله بالتصبر فيما لوحدث ذلك[79]:

فإن كتب الله اللقا فهو حلمنا وإن لم تروني راجعاً فتصبّروا

وكان أشد مايخشاه أن يموت قبل أن يعثر على مجهولته[80]:

أحبيتي أخشى حياتي تنقضي وأنا بدربي دون أي وصول

وقد أوصى محبوبته ان تزور قبره لعل زيارتها تعيد له الحياة[81]

إن مت فاسعي إلى قبري وزوريني وتمتمي ياسنا الظلماء في لين

لعلّ وصلك يحييني ولا عجباً إذ كان منك قصير الهجر يرديني

وكان علي في بعض الأحيان يشعر باقتراب نهايته مما يدفعه إلى أن ينصح

---

[76] إشراق الغروب، ص 76.
[77] المصدر نفسه، ص 106.
[78] رعشات ص 73.
[79] حنين الليالي، ص 107.
[80] المجهولة، ص 82.
[81] رعشات، ص 72.

محبوبته بالابتعاد عنه:[82]

لم يبقَ من عمري سوى رَمَقٍ جفّتْ ينابيعي فلا تردي

وأزعمُ أنني لن أكون مغالياً حين أقولُ بأنني لم أجد شاعراً بين مَنْ قرأتُ دواوينهم من الشعراء المعاصرين -على كثرتهم- مَنْ أفرط في تمنّي الموت كعلي دمر. وأعتقد أن ذلك راجع إلىعدة أسباب منها: البؤس، والغربة، والفشل في ميدان الحب، والإحساس باليأس من تحقيق الطموحات في مجتمع لم يقدر موهبته، ولم يرع حق عبقريته.

وقد تمنّى عليَّ الموت مبكراً وهو لا يزال في ريعان الشباب، بعد أن لم يجد في هذا الكون الذي أرغم على المجيء إليه غير ظُلمات البؤس والعذاب.[83]

جاء للكون لم يجد فيه إلاّ ظلمات من بؤسه وعذابهْ

يشتهي العود للفناء ولكن أدبر الموت هازئاً من خطابهْ

وقد تمنى أن يطويه البحر في أعماقه بعدأن أحس بأن الدنيا لا تقل عنه في قسوتها وهياجها[84]:

لست أخشى البحر أن يبلغني جوف هذا البحر والدنيا سويَّة

أنا يا ربّاهُ لا أبغي سوى رحلةٍ من هذه الدنيا الشقيَّة

وتمناه بعد أن فقد أمه التي لم يكن له نصير سواها، إذ راح يتحدى الأشباح التي كانت تتراءى له بين القبور وهو يزور قبر والدته أن تمزقه لعله يشعر بالسعادة بعد أن يلتقي روح أمه التي سبقته إلى الموت[85]:

آه أماه قد مَلَلْتُ حياتي قرَّ يأسي وضاع مني رجائي

أتخطى بين الأنام نحيلاً أشتهي الموت هازئاً بالبقاءِ

ليتني لم أكن وُلِدْتُ فخيرٌ من شقاء الحياة دنيا الفناءِ

آه حمقى الأشباح بين القبورِ مزّقيني ثم احملينيي وسيري

---

(82) إشراق الغروب، ص 23.
(83) رعشات ص 10.
(84) المصدر نفسه، ص 14.
(85) رعشات، ص 29.

نحو دار الفناء عليَّ ألقى روح أمي فأغتدي في حبورِ

وهو يرجو الرياح العاصفة والسحب التي ينهمر منها الثلج أن تعصف به وتخفيه عن عيون دهره التي لم ترحم ضعفه ووحدته[86]:

اعصفي يا رياح في الليل عصفا

واسفي بردتي مع الليل أسفا

واغمريني يا سُحُبُ بالثلج يهمي

علّني عن عيون دهري أختفي

وفي موضع آخر نراه يضرع إلى ربه ألاّ يبتليه بالحب المُشقي، وأن يعجّل بنهايته قبل أن يطول عذابه في ذلك البلاء:[87]

فيا رباه لا تجعل فؤادي محباً إنَّ ذي إحدى البلايا

إذا ما طالَ في هذا شقائي فأرجو أن تحطمني المنايا

وقد تمنى لو أنه مات قبل أن يكتشف أنه كان يعيش قصة حب غير متبادل[88]:

وصحوتُ بعد هُنَيْهَةٍ فإذا أنا مفرد في وهمي الخجلِ

ياليت روحي قبل صَحْوتِها قد لفّها بضبابهِ أجلي

وتمنى أن يوافيه الموت قبل أن تودّعه محبوبته[89]:

أرجو ختام وداعكِ المُضْنِي بأن يطوى الحياة مع الوداعِ ختامُ

وتمنى أن يتحطم إلى أجزاء بيدي محبوبته التي كان يتمنى الفناء في حبها الذي يرى أن الحياة بدونه هي الموت الحقيقي.[90]:

يا حبُذا كسري وتجزئتي بيديك تحويلي إلى بَدَدِ

---

(86) المصدر نفسه، ص 29.
(87) المجهولة، ص68.
(88) غيبوبة الحب 66
(89) حنين الليالي ص 101.
(90) إشراق الغروب ص 30.

فالعيش دون الحب مَحْضُ ردى يـاحبَّ ذوِّبنـي إلـى الأبَـدِ

وتمنى لو أنه لم يلد ولم يولد بعد أن يئس من الوصول إلى قلب المحبوبة[91]:

إن كان آخر دربي منك يحرمني ياليت أني لم أولَدْ ولم أَلِدِ

ولعل أجمل مناسبةٍ تمنى فيها شاعرنا الموت -إن صح هذا التعبير- هي تلك التي تمناه فيها وهو بعيد عن وطنه، حيث تمنى أن يموت بين أحضان ذلك الوطن على الرغم من جنوحه إلى المبالغة في البيتين اللذين عبر فيهما عن هذه لأمنية:[92]

وبلادُنا مهدُ الجمالِ وقدسِهِ في شعبها سرُّ البطولةِ مُودَعُ

الموتُ في أحضانِها أشهى لنا من جنَّةِ المأوى التي نَتَوَقَّعُ

رحم الله علي دمر الذي حُرِمَ حتى من الموت بين أحضان وطنه حيث وافته المنية في ديار الغربة قبل أن يحقق كثيراً من أمانيه.

****

(91) المصدر نفسه، ص 85.
(92) حنين الليالي ص 93.

الفصل الثاني عشر

الشكل والمضمون في شعر علي دمّر

إذا كانت الواقعية الاشتراكية -كما يراها مكسيم جوركي- نمطاً من التعبير يلهمنا التطلع إلى الأمام، ويدعونا إلى صنع حياة يسودها الوئام والسلام، ويجعل من الأديب ملتزماً ذاتياً بتوظيف أدبه في خدمة المجتمع والفرد - إذا كان الأمر كذلك- فإن علي دمر شاعر واقعي ملتزم وإن لم يتخذ من الاشتراكية عقيدة ومذهباً ينطلق منها في دعوته إلى الإصلاح.

صحيحٌ أن علياً لم يلتزم بأسلوب الواقعيين، الاشتراكيين من الشعراء في تصوير تجاربه الشعرية وصياغتها، فهو لم يَثُرْ على الأنماط الشعرية الموروثة، ولم يجنح إلى حصر مضموناته الشعرية في تلك الدائرة الضيقة التي حصر شعراء الاشتراكية مضموناتهم في نطاقها، إلا أن الصحيح كذلك هو أن علياً قد آمن بالحب، واستطاع عن طريق إيمانه به أن يتطرّق إلى معظم الموضوعات التي تطرق إليها أولئك الشعراء في العقود الثلاثة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.

لقد أبى علي دمر أن يتجرد من إرادته الحرة وفكره المستقل وأن يحوّل فنه إلى مجرد وسيلة من وسائل الدعاية للفكرة الماركسية والمجتمع الذي تدعو إلى صنعه.

لقد عشق علي دمر الجمال فاستمد مضموناته الشعرية منه ومن الحياة بجميع عناصرها ومعطياتها، فوقف إلى جانب القيم الإنسانية والمثل العليا والمبادئ السامية، وحاول أن يعكس في شعره هموم البشرية وآمالها وإحساسها

بالحاجة إلى الحب والتآلف والتعاون وغير ذلك من الوسائل التي تقود إلى التطوير والتقدم والسلام.

ولتحقيق هذه الغاية لجأ عليّ وهو يُبدع تجاربه الشعرية إلى توظيف "التداعي النفسي" دون أن يتعمد ذلك أو يعيه. وهكذا نجد أن التجربة الشعرية عنده أشبه ماتكون بقصائد المعلقات التي تشتمل على عدة أغراض قد يظن قارئُها لأول وهلة أنه لا رابط بينها، ولكنه لا يلبث أن يكتشف أن أجزاء القصيدة يقود بعضها إلى بعض بصورة طبيعية يجعل من الوحدة النفسية دائماً ومن الوحدة العضوية أحياناً عنصراً لا تفتقر إليه تلك القصيدة.

فهو مثلاً عندما يصور مفهوماته عن الحب والحبيب والعلاقات التي تربط بين المحبين ومايَنجم عن ذلك من آثار فإن التداعي النفسي يقوده إلى تذكر الحبيبة التي يدعوها إلى مشاركته في الاستمتاع بجمال الطبيعة، لما بينها وبين الحب من وشائج وثيقة وأواصر قويّة. كما أن تصويره للطبيعة الأخّاذة يقوده إلى تصوير عظمة الخالق، أو إلى تصوير ماينبغي أن يتوافر للحبيبة من حرية وحياة سعيدة جديرة بأن تُعاش.

وفي قصائده عن الغربة نراه بعد أن يصور إحساسه بالمرارة وشعوره بالحرمان واليأس والضياع يتذكر طبيعة بلاده الجميلة إلى أهله وأصدقائه ومواطنيه، ثم يقوده ذلك كله إلى تصوير معاناة شعبه وأسباب تلك المعاناة، وهو عندما يتطرق إلى تفسير هذه الأسباب يجد أنها تتلخص في اختلال موازين العدالة والحق مما يدفعه إلى الدعوة لإصلاح ذلك الاختلال.

والمتأمل في شعر علي دمر يجد أن هذا الشاعر قد أعلى كغيره من شعراء المذهب الاتباعي أو الكلاسيكي من شأن الشكل لأنه كان معتداً بالصياغة اللفظية والكمال التام في العبارة الشعرية، وإن كان في بعض تعبيراته قد وقف إلى جانب المعنى أو "المضمون" مقدماً إياه على اللفظ وعلى الصورة الشعرية، ولكن ذلك لم يرد إلا قليلاً في شعر عليّ.

لقد استمد عليّ مواقفه التي استقى منها تجاربه الشعرية من جميع المذاهب الفنية والفلسفات، فهو أحياناً شاعر كلاسيكي لا يختلف في قليل أو كثير عن تلاميذ المدرسة الاتباعية التي أنجبت أمير الشعراء وحافظ إبراهيم وبدوي الجبل وبدر الدين الحامد والرصافي والزهاوي والجواهري والنجفي وغيرهم من عمالقة الكلاسيكيين في الشعر العربي المعاصر.

وأحياناً أخرى نجده شاعراً رومانسياً ينسج على المنوال الذي نسج عليه الشابي وأبو ريشة ووجيه البارودي والأخطل الصغير وإبراهيم طوقان ونزار قباني وشعراء مدرسة أبولو. وهو في تجاربه الشعرية التي أسقط فيها همومه على الجماعة لا يختلف كثيراً عن شعراء المذهب الوجودي الذين يرددون دائماً مقولتهم المشهورة "الآخرون هم الجحيم".

وإذا كان المضمون الاجتماعي للعمل الشعري لا يُستَمَدُّ في حقيقته من واقع الحياة في المجتمع، بل من موقف الشاعر الفكريّ من الحياة التي يحياها مجتمعه فإن علي دمر كان في مقدمة الشعراء الذين كان لهم مواقف فكرية خاصة في الحياة وفي المجتمعات التي قُدّر له أن يتعايش معها وهي المجتمعات السورية والمصرية والسعودية والمجتمع الإنساني بصورة عامة.

لقد تمكّنَ علي من أن يُمَيّزَ تماماً بين الالتزام والإلزام فجعل من نفسه شاعراً حراً لا يتقيّدُ بمبادئ حزب معين، أوجماعة محدّدَة، أو تنظيم سياسي معروف ولم يُلزِم نفسه بالانطلاق في تصوير تجاربه الشعرية من فلسفةٍ بعينها، بل لجأ إلى اختيار مواقفه من الحياة انطلاقاً من قناعاته واجتهاداته الخاصة، وبتأثير من معايشته للأحداث ومعاناته الذاتية منها.

وتجاربه الشعرية التي أسهبنا في عرضها وتفسيرها في الفصول السابقة خير شاهد على ما نقول.

ومن الأمور التي هي جديرة بالملاحظة أن دواوين علي دمر تكاد تخلو من شعر المناسبات لأنه لم يكن من النظّامين الذين يفرضون أنفسهم على الشعر، بل كان من الشعراء الذين تفرض التجارب الشعرية نفسها عليهم وتخضعهم لجبروتها وسيطرتها. لذلك نجد أن التجربة الشعرية عند علي كانت هي التي تختار لنفسها الثوب المناسب الذي تظهر به على الناس، ولم يحدث ولومرة واحدة أن لجأ عليّ إلى إجبار تجربة من تجاربه الشعرية على ارتداء ثوب لا يُناسبها أو يستهويها. وهذا لعمري هو شأن الشعراء المطبوعين الذين يحترمون فنهم ومواهبهم، ويحرصون على رضا الفن والذات والتاريخ أكثر من حرصهم على رضا النقاد وما يُرَوِّجون لهُ من مذاهب وفلسفات.

وقدحاول عليّ أن يطوّع تجاربه الشعرية لتتمشّى مع روح المعاصرة دون أن ينزلق إلى الهوة التي يدعو إلى الانزلاق فيها دعاة الحداثة والتجديد الذين شوّهوا وجه الشعر العربي الحديث.

وقد خلت تجارب علي نتيجة لذلك من الغموض ومن الألغاز والإبهام، ومن الركاكة والإسفاف والخلط بين الأجناس الأدبية وغير ذلك من الدمامل والبثور التي شوهت جلود تجارب شعراء الحداثة الزائفة والتجديد المشبوه.

وفي كثير من قصائده تبدو مظاهر الرومانسية واضحةً للعيان حيث غلب على معظمها طابع الشكوى والقلق، وبرزت فيها نزعة التشاؤم واليأس والتفاعل مع الطبيعة التي حوّل كثيراً من مظاهرها إلىدلالات رمزية عبّر بواسطتها عن حالاته الشعورية المتنوعة.

وإذا استثنينا بعض السمات الدلالية الرمزية التي قد تقترب من الأسطورة كإشارته إلى تمثال فينيس، وقبرة معمر، وبعض الرموز التاريخية كفرعون وكليوباتره وأنطونيو والمعري وديك الجن وذي قار والقادسية واليرموك وخالد وعكرمة فإن استخدام علي للرموز الأسطورية لا يشكل ظاهرة محددة المعالم في قصائده.

وقد شاعت الوحدة العضوية في معظم قصائده، لأن وحدة الشعور والإحساس الذي ينتظم أجزاء معظم قصائده نراها تُكوّن ماتشتمل عليه القصيدة من صور وموسيقى وتعبيرات بلون واحد نابع من الموقف النفسي المسيطر على الشاعر لحظة إبداعه القصيدة.

وهكذا يلتقي الفن بالشعور عند علي، كما تلتقي الوحدة الفنية بالوحدة الشعورية في قصائده، لأن كليهما واحد على الرغم من تباين المعاني التي تنطوي عليها كلمة الوحدة وتتنوع دلالاتها.

وقد رُزق عليّ خيالاً مُجَنّحاً استطاع أن يُحلّق به في أجواء عوالم فيها من الصور البصرية والسمعية والابتكارية والمركبة معين لا ينضب لمن يطلبه ويسعى إليه.

ولا يعيب شاعرنا في هذا المجال إصرارهُ على الاستعانة في رسم صوره الفنية بالأساليب البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات ومجازات لغوية وعقلية وتجميلها ببعض المحسنات البديعية والمعنوية. ولكن الذي يعيبه أحياناً هو أنه لم يطبع بعض هذه الصور بطابع التجديد والابتكار، بل لجأ إلى أخذها عن الشعراء القدماء دون أن يضفي عليها أية مسحة من التغيير.

وقد استطاع عليّ أن يقدم لنا كثيراً من المعاني في صور مجسّمة محسوسة مضمّخة. بوهج العاطفة الصادقة الخالية من التصنع أو الافتعال والمبالغة. وليس

ذلك بغريب على شاعرنا الذي تهيّأ بالفطرة لقول الشعر وأُعِدّ له إعداداً غيبياً من قبل أن يُولَد، فانطلق معبّراً عن نفسه وعن الجمال والطبيعة والمثل معتمداً على الإلهام واللاشعور بقدر ما اعتمد على المثابرة والصنعة والمعاناة.

وقد ترجم عليّ عن رغباته المكبوتة في عالم اللاشعور، وسجل أحلام يقظته بأصالة. وارتقى في كثير من الأحيان بمستوى أحلامه الذاتية إلى مستويات إنسانية رفيعة. ولعل في ذلك مايفسر وجود تلك الكثرة الساحقة من قصائد الحب لدى عليّ. فقد حرص على أن يصوّر نفسه عاشقاً مثالياً تيّمه الحب، وأضناه الوجد،وشفّه الغرام. يرضى بكل ما يفرضه الحب والحبيبة من تبعات مستثنياً من ذلك التنازل عن كرامته وكبريائه.

وقد اتّسمت تعبيراته باختيار اللفظ المناسب للمعنى المناسب، كما اتّسم بحرصه على احترام اللغة وقواعدها مما جعله في الطليعة من شعراء العربية المعاصرين الذين يحرصون على قدسية لغتهم والتمسك بمقوماتها التي تكفل لها المحافظة على شخصيتها التي تميّزها عن غيرها من اللغات.

.....

لقد نجح علي دمر في بعض قصائده إلى خلق صورة شاملة غير قابلة للتجزئة وجعلت من القصيدة وكأنها لوحة فنية واحدة تستأثر بإعجاب المتأمل من القراء. ومن هذه القصائد: قصيدة "رعشة" التي رسم لنا فيها صورة لقلبه المعذب المقهور. وهي من قصائد ديوانه الأول "رعشات". ومنها أيضاً قصيدة "المسلسلة الأبدية" التي رسم فيها صورة فلسفية متخيّلة للحب. وهي من قصائد ديوانه "إشراق الغروب" وقصيدة "ليل الشاعر" وقد رسم فيها صورة لما يجده الشاعر المعذّب من قلق وسأم يحولان بينه وبين النوم، وهي من قصائد ديوانه "غيبوبة الحب"، وقد تجلت الوحدة العضوية في أروع صورها في قصائده القصصية على نحو ما نجده في قصيدة "لقاء" وهي من ديوانه "رعشات" وقصائد "معركة" و"دنيا عيون" و"قصة" وهي من ديوان "حنين الليالي" ..أو لحظات الوداع و" أحلى لقاء" " الهزيمة" و " الانهيار"و"المفاجأة" و"أفعى" وجميعها من قصائد ديوانه "إشراق الغروب" وفي قصائده "ليل الشاعر" و"قلق" و"أرق" وهي من ديوانه "غيبوبة الحب".

ومن صور عليّ المبتكرة الجميلة هذان البيتان اللذان يصور فيهما روحه وكأنها طائر يحلق في السماء هارباً من الأحزان، باحثاً عن الأمن بين

الأفلاك[93]

حلّقت روحه على الأفق خوفاً ... من لظى جوفه ومن أشجانهْ

واعتلت تقصد السماء لتحيا ... بين أفلاكه وضمن أمانيهْ

وقوله في تصوير الشعر الأسود لإحدى الحسناوات[94]

يالشعر الحسناء كم في دُجاه ... ضلّ قلبي في عاصفات هواهُ

همت في جوفه شريد الأماني ... لا أرى فيه برقه وسناهُ

خفقت فيه كل ذات هبوبٍ ... في سبات ما إن يُحَدُّ مداهُ

وقوله مصوّراً نفسه، وهو من قبيل تصوير المحسوس بالمعنوي:[95]

أنا لحن الظلماء طاف مع الفجرِ ... فَجُنَّ الهزارُ للأصداءِ

أنا خفق الأكبادِ في لفحة الهجر ... ونفح الخميلةِ الغناءِ

أنا عصف اللهيب في حومة الـ ... ـهول ولمع الصواعق الحمراءِ

أنا حلم الجياع ناموا حُفاةً ... وعُراةً في الدرب تحت السماءِ

أنا طيفُ الإنصاف يصرخ في الأ ... كواخِ أو في مهدّم الأحياءِ

وقوله في المقارنة بين شعر الأدعياء وشعر الأصلاء من الشعراء:[96]

إنما الشعر كالنبوة لا يزداد ... فيها الكذوب إلا افتضاحا

كالجمال الموهوب خلقاً فلا ... تستطيع شوهاء أن تحاكي الملاحا

وانظر إلى هذه الصورة التي رسمها لِقَدّ بنت البلد المصرية:[97]

عصروا خمور العالمين وجسّدوا ... منها رشاقة قدّكِ اللهفانِ

ثم انظر إلى هذه الصورة التي رسمها لحروف الكلمات التي تتلفظ بها

(93) رعشات ص 13.
(94) المصدر السابق، ص 41.
(95) حنين الليالي: ص 12.
(96) حنين الليالي، ص 17.
(97) المصدر السابق، ص 24.

محبوبته، فهي أحياناً جداول شوق متتابعة تسري في عروقه، وأحياناً أخرى يدّ تزرعُهُ في عالم خالد لا حدود له ولا نهاية:[98]

وحروفُكِ تسري في روحي ... كجداولِ شوقٍ مُطّردِ

وحروفُ "أحبكِ" تزرعني ... في كونِ خلودِيّ الأمدِ

أما وهج عينيّ محبوبته فعالم فريد يجمع بين الكثير من الثنائيات المتضادة القادرة على صنع المستحيلات. وهوعالم جديد لم يشاهده أحدٌ من قبل، وهو يغسل النفوس من الآثام، ويقسو على الشاعر في عصفه كالإعصار، ويغرقه كالطوفان، وقد أحال هذا الوهجُ عالمَ الشاعر إلى طلاسم، وخدَّر أيامه وجعلها غير قادرة على الوعي:[99]

وهج عينيك من سماءٍ بعيدِ ... لم يشاهد من قبلُ في دنيانا

يغسل النفس من غبار الدنايا ... ويبث العطور والألوانا

وانظر إلى قوله مصوراً ذكريات بؤسه التي تتراءى له عندما يخلو إلى نفسه في الليل وكأنها شريط سينمائي[100]

عندما يرقد كل الناس تصحو ذكرياتي

وأماني وأحلامي ونجوى خاطراتي

وأرى ماضيّ كالأفلام يجلو لي حياتي

يعرض الحرمان والبؤس وتيهي وشتاتي

وضياعي في بلاد الناس أسعى لاقتياتِ

دون عنوانٍ ومجدٍ، دون تعريفٍ بذاتي

ثم انظر إلى هذه الصورة المرعبة التي يرسمها للطريق الموصل إلى المجد[101]

غير أن الجسر للمجد على ... نَهرِ الهولِ تمطى مُرْعبا

(98) غيبوبة الحب، ص 39.
(99) المصدر السابق، ص 46.
(100) غيبوبة الحب، ص 125.
(101) حنين الليالي، ص 56.

وقوله في تصوير تأثير الحب على نفسه بعد أن اكتهل:[102]

ارجَعْتِنِـي يـاصبوتي حدثـاً نَضَّرْتِ آرائـي ومعتقـدي

وتأمل هذه الصور الجميلة المتتابعة التي خلقها الحب في روح الشاعر، وما انتهت إليه من مصير مُفْجِع:[103]

زرعتِ في روحي رياض الهوى جذورُها في أعظمي توغلُ
فجَّرْتِ في عُمقي عيون المنى ينساب فيها جدولٌ جـدولُ
ماكان في الحسبانِ يا واحتي أن تتركيني من دمي أنهلُ

ومن أجمل ما قاله في وصف حبيبته ووصف حبه لها وتعلقه بها قوله:[104]

إن فيكِ العالم الأسمى انطوى المحيطـات وضـوء النـيِّرات
إن حبي لك شوقُ الجزء للـ ـكلّ، عشقُ الطفلِ صدر الأمهاتِ
رحلتي في ضوء عينيك مدى اللانهايـات لدى مـاض وآتِ
أنـت لا تدريـن هـذا وأنـا لمجراتـكِ معـراج صلاتـي

ثم انظر إلى هذه الصورة الرائعة التي رسمها للحديث الذي تنطق به عينا محبوبته الحبيبة:

غضيضةُ الطرف من شوق ومن خجلِ ما أروعَ الشوق في أحداقِ وطفاءِ
قولي بهـا كـلّ شـيءٍ إنهـا لغـةٌ عُلويَّةُ الهمس في أخذ وإعطاءِ
قولي بها لا تخافي فهي مُفصحةٌ بلا رقيبٍ، بلا لَـوْمٍ وأخطـاءِ
فـلا يُحاسِـبُ غـيرُ اللـه زلّتهـا واللـه أبـدع فيهـا سـرَّ إغـواءِ
قولي بها لا تُراعي واصهري كبدي بشعلةٍ من سعيرِ الحب حمراءِ

وقد أسرف علي في استخدام التشبيهات التمثيلية والتشبيهات الضمنية التي

(102) إشراق الغروب ص 26.
(103) المصدر السابق ص92.
(104)

أكسبت صوره الفنية أبعاداً خاصة يطول بنا الأمر لو شئنا أن نمثل لها. أو نحصيها. وهي ليست خافية أو بعيدة المنال على من يرغب في تعرفها وتذوق ما فيها من روعة الصياغة وبديع النغم وجمال المعنى.

وقد جمحَ الخيال بعلي دمر في كثيرمن الأحيان حتى صدقت فيه العبارة المأثورة التي تقول "أعذب الشعر أكذبه" وقد قصد النقاد القدماء بذلك أن يلفتوا الأنظار إلى مايعمد إليه بعض الشعراء من مبالغات في التعبير عن مشاعرهم وتصوير أحاسيسهم.

غير أن جموح عليّ هذا لم يخرج بتعبيراته عن دائرة المقبول ولم ينبُ بها عن الذوق السليم إلا في القليل النادر.

ومن شطحات عليّ الشعرية قوله في تصوير سحرلفتة بنت البلد المصرية وخفة ظلها[105]

لو جُمِّعَتْ أعراسُ أجيال الورى وجميعُ دنيا الرقص والألحانِ
مـا أبـرزت سـحراً للفتـةِ خِفَّـةٍ من طيفكِ المتلهـفِ الظمـآنِ

وقولُهُ في التعبير عن حبه ودوامه واستمراره[106]:

أهواكِ من قبل ميلادي بلا أملٍ وسوف في الخلد بعد الموتِ أهواكِ

وقولهُ في تصوير حبه لمسقط رأسه "حماه"[107]

وحماة لوخُيِّرْتُ بين ربوعها والخلدُ لم أرغب بها تبديلا

وقوله في تأثير موسيقا وألحان الموسيقار عبد الوهاب فيمن يسمعها:[108]

لو إله الحروب يسمع نجـو اك أحبَّ السلام في نجواكـا

وقوله في تصوير رغبته المُلِحّة في التخلص من البقاء في إحدى القرى التي عمل فيها في بدايات عهده بالتدريس[109]:

متى الله عنها بالرحيل يغيثني ولوكنت أحيا بعدها في جهنم

(105) حنين الليالي، ص 23.
(106) المصدر السابق، ص 110.
(107) حنين الليالي، ص 35.
(108) المصدر السابق، ص 44.
(109) حنين الليالي، ص 104.

وقوله في تصوير ملازمة حب محبوبته له.[110]

حينما أدّفنُ في لحدي الرجيم سوف تبقين صراخاً في رميمي

ومن مبالغاته غير المستساغة قوله في وصف شاعرةٍ تيّمَهُ سحرها وجمالها.[111]

أنت فينا قصيدة الله في الأ رض وعزف الملائك الأطهار

وقوله مصوراً يأسه من استجابة محبوبته له:[112]

تعبت من السؤال بلا جوابٍ وكاد يضجُّ من شكواي ربي

فحاشا لله أن يكون شاعراً، أو أن يضج من شكوى واحد من عبيده وهو الحليم الصبور.

.....

ولم ير عليٌّ بأساً في أن يُزَيّن عرائس شعره بشيء من ألوان الحلية اللفظية أو المعنوية التي يُطلق عليها البلاغيّون اسم المحسنات البديعية.وكان الطباق والجناس بنوعيه والتورية والمقابلة أكثر وروداً في شعره من سواهما من ألوان البديع. غير أن الملاحظة الجديرة بالتنويه هو أن أياً من هذه المحسنات لم يأتِ متكلفاً أو مصنوعاً لا يتطلبه المعنى، أو لا يستدعيه المقام، فقد وردت جميعها عفو الخاطر دون تكلُّف أو تَصَنُّع

ومن الأمثلة على ذلك قوله في وصف حريق شبَّ في الليل[113]

تُبصرُ النار في الجواء تعالت يقتدي الليل من سناها نهارا

وقوله[114]:

نسيتَ سالف عهدي يا مُرُّ قد كنت شهدي

وقوله: [115]

---

(110) غيبوبة الحب، ص 94.
(111) غيبوبة الحب ص 26.
(112) غيبوبة الحب، ص 49.
(113) رعشات ص 16.
(114) رعشات ص 18
(115) رعشات، ص 76.

نفسي تعزُّ كثيراً وإن رأتك تهون

وقوله[116]:

والصبايا يلعبن في كل روضٍ كالعصافير جيئةً وذهوبا

وقوله:[117]

وصبيتين على الحشائش جُنّتا تتسابقان تقدماً وقفولا

وقوله في وصف نظرة الممثلة راقية إبراهيم:[118]

المكر فيها ظاهر والشوق أمسى خافيا

وقوله في وصف فرحه بتسليم رسالة من محبوبته:[119]

في كل نهارٍ أو ليلٍ أتلوها في فرح الولدِ

يطويني الحرف وأنشره يشعلني يحرق لي جلدي

وقوله[120]:

أمطرته عيناي من دمع ثكلى في نواحٍ بيدي الزفير شهيقا

ومن أبياته التي استخدم فيه الجناس التام قوله:[121].

فيا ضيعةَ الآمال في رسم ضيعةٍ أعيش كسر الكائنات المُكَتَّم

وقوله من هذا القبيل:[122]

يذوب شعوري في رقيف شعورها إذا ما غدت فيها النسائم تلعب

ومما استخدم فيه الجناس الناقص قوله في هجاء البراغيث:[123]

لجأت للشغرِ أهجوهم به حنقاً لا يرهب الشّعر مَنْ في الشّعر ينتثرُ

---

(116) حنين الليالي، ص 29.
(117) حنين الليالي ص 24
(118) حنين الليالي ص50
(119) غيبوبة الحب ص38.
(120) حنين الليالي ص 117.
(121) حنين الليالي ص 103.
(122) المصدر السابق ص 59.
(123) المصدر نفسه ص

وقوله:[124]

وينقدُّ قلبي من فتون قدودها إذا لفَّها ذاك الحرير المحبَّبُ

ومن أبياته التي وردت فيها التورية قوله:[125]

وسقام جفنيك السقام لخافقي فالصحو من سكري لديك سقامُ

فسقام في الشطر الأول بمعنى فتور، وسقام في الشطر الثاني بمعنى مرض.

وقوله:[126]

أرجو ختام وداعك المضني بأن يطوي الحياة مع الوداع ختام

فختام في صدر البيت بمعنى نهاية، وفي عجزه بمعنى الموت.

ومما فيه مقابلة وهي من المحسنات المعنوية كالتورية[127].

يا غزوةً بدؤها نصر وآخرها هزيمة في أساها القلب يحتضرُ

وقوله في رثاء ولده كهلان[128]

قمرٌ بدا في ليل دهري وامّحى في أشهر من عمره كثوانِ

وقوله [129]

أنا جمر قلبك إمّا نأى وجنة أحلامه إن وصل

وقوله في وصف مايبذله الفقراء من كد في سبيل المترفين:[130]

ويتعبون ليهنا بالراحة السعداء

.....

ومثلما جاء علي في كثير من تجاربه الشعرية بالجديد المبتكر من المعاني

---

[124] المصدر نفسه ص 59.
[125] المصدر نفسه، ص 101.
[126] المصدر نفسه ص 101.
[127] إشراق الغروب، ص 99.
[128] حنين الليالي، ص 61.
[129] حنين الليالي ص 97.
[130] غيبوبة الحب، ص 119.

حافظته نتيجة لثقافته الواسعة وقراءاته الكثيرة. وعلي ليس بدعاً في ذلك بين الشعراء الذين قال فيهم عنترة بن شداد قبل خمسة عشر قرناً أو أكثر:

ما أرانا نقول إلا معاراً أو كلاماً من لفظنا مكرورا

ومن معاني علي دمر وصوره المأخوذة عمّن سبقه قوله في حتمية اصطدام كفاحه بإرادة القدر الحديدية التي تأبى إلا أن تفشل ذلك الكفاح:[131]

أكافح ما أكافحُ ثم آوي إلى قدرٍ إرادته حديد

وهذا يذكرنا بقول الحطيئة:

أطوّف ما أطوّفُ ثم آوي إلى بيت قعيدته لكاعُ

أما قوله في رثاء أمه مفاخراً بنفسه:[132]

وإن كنت لم تُبْقِي مفاخر جمّةً سواي فإن الفخر فيكِ لواجبُ

وَلَدْتِ علياً للبرايا حميدةً فكنتُ كمن يجلو الظلامَ الكواكبُ

فإنه يذكرنا بقول أبي الطيب المتنبي في فخره بنفسه عند رثائه جدته:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمَ والدٍ لكان أباك الضخم كونك لي أمّا

لئن لذَّ يوم الشامتين بيومها فقد ولدت مني لأنفهمو رَغْما

كما يذكِّرنا قوله:

كلّما سُدِّدَتْ قناةُ مصابٍ لفؤادي تحطمت بقناتي

بقول أبي الطيب كذلك:

وكنت إذا أصابتني سهامٌ تكسَّرت النصالُ على النصالِ

وأما قوله:

وغمام الجواءِ صار محياً شفّه الوجدُ فاستجد نحيبا

دمعُهُ يضحكُ الخمائلَ فالرّ وضُ يناغي لدى المساءِ القلوبا

فإنه يذكرنا بقول مَنْ قال:

---

[131] المصدر السابق ص 84.
[132] رعشة ص 21.

تضحكُ الأرضُ من بكاءِ السماءِ

.....

وعلى الرغم من تمكن علي دمر من اللغة العربية وقواعدها، وتمرسه بأساليبها فقد ندّت عن قلمه بعض الهنات اللغوية والأسلوبية. إلاّ أن ماورد في شعر علي من لحنٍ قليل إنما يدخل أغلبه في دائرة العادي الذي لا يستهجنه الطبع ولا ينفر منه الذوق السليم.

وإذا شئنا أن نلتمس العذر لعلي بسبب وقوعه في هذه الهفوات فإن في إمكاننا أن نرجع ذلك إلى أربعة أسباب:

الأول: نُدْرَةُ هذه الأخطاء التي ربما بَرَّرَتْ للناقد تجاوزها، بل وغضّ النظر عن تسجيلها، أو الإشارة إليها. ولولا خشيتنا من أن نُتَّهَم بالتعاطف مع صديقنا المرحوم وتعمدنا التغاضي عن هفواته لضربنا عن ذكرها صفحاً، ولمررنا بها مرور الكرام.

الثاني: أن هذه الهنات لا تنهض دليلاً على ضعف عليٍّ أو عدم تمكنه من قواعد اللغة والتمرس بأساليبها، والإحاطة بخصائصها ومميزاتها.

الثالث: أن أكثر هذه الهنات –على قلّتها– من قبيل ما دعت إليه ضرورة الوزن والحرص على استقامة موسيقا الأبيات. وليس أدل على ذلك من أنه استخدم هذه الأساليب استخداماً صحيحاً أحياناً، وخاطئاً أحياناً أخرى. وقد نجد ذلك في البيت الواحد. وسوف يتضح لنا هذا عند عرضنا للشواهد بعد قليل.

الرابع: أن الشاعر مهما علت مكانته وسمت منزلته فإنه لابُدَّ واقعٌ في مثل هذه الهنات بسبب استغراقه في لحظة الانفعال الشديد للتجربة الشعرية وسيطرتها عليه، الأمر الذي يحول بينهُ وبين التَّنَبُّهِ لما وقع فيه.

وخير دليل على ذلك قصة النابغة الذبياني مع الإقواء، وهو تحريك حرف الرويّ في أحدِ أبيات القصيدة بحركة تختلف عن تلك التي حَرَّك بها الراوي في سائر أبياتها، فقد دخل النابغة يثرب وسمع قينة تتغنى بأبيات من داليته التي مطلعها:

من آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مغتدي *عجلانَ ذا زادٍ وغير مُزَوَّدِ؟*

فلما وصلت إلى قوله:

زعم البوارحُ أنَّ رحلتنا غداً *وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ*

مدّت صوتها بالضمة ففطن إلى ذلك وغيّر البيت فأصبح على هذا النحو:

زعم البوارحُ أن رحلتنا غداً *وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ*

وكان الإقواء يقع كثيراً في شعره فبرئ منه.

.....

أمّا ماورد من هفوات في شعر علي فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أخطاء لُغويّة نعتقد أن شاعرنا لم يقع فيها إلا وهوواقع تحت سيطرة انفعاله بالتجربة ومن ذلك قوله:

سقطتي فجأةً على أرضِ صَخْوي *وجناحيَّ في لهيب الدخان*

والصواب أن يقول: "وجناحايَ" لأنه مبتدأ وقع في أول جملةٍ حاليةٍ مبدوءةٍ بواو الحال. وحقه أن يكون مرفوعاً بالألف لأنه مثنى.

وقوله:

أيُّها الساعةَ التي أنا فيها *سوف أرنو إلى بهاكِ المنيرِ*

أيُّها اللحظةَ التي نظراتي *تتلاقى بجفنك المخمور*

والصواب: "أيتها الساعة" و"أيتها اللحظة" لأن أيّ التي يُتَوَسَّلُ بها إلى نداء المعرف بأل يجب أن تطابقه في التذكير والتأنيث.

وقوله:

يا ملاكي التي أسائل عنها *لستُ في الحب سامعاً لمشيرِ*

وصوابه:

ياملاكي الذي أسائل عنه *لستُ في الحب سامعاً لمشيرِ*

لأن ملاك مذكر ومن حق الاسم الموصول بعده أن يطابقه في التذكير.

ومن أخطائه الصرفية قوله:

أصَفِّفُ كل يومٍ شعرَ رأسي *بفنٍّ مُلْفِتٍ نظر المهارةْ.*

وصوابه: "لافت" لأن اسم الفاعل من الثلاثي لا يُصاغ إلا على وزن "فاعل" أما ملفت فاسم فاعل من الرباعي ألفت وهو فعل غير موجود في اللغة. ومما يشفع للشاعر في وقوعه في هذا الخطأ كونه من الأخطاء الشائعة التي لا

تكاد يسلم منه كاتب أو شاعر في هذا العصر. وليس معنى ذلك أننا نبرره أو نرتضيه.

الثاني: خطأ دعت إليه ضرورة الوزن، ودليلنا على ذلك أن الشاعر نفسه قداستخدم هذا النوع من الأخطاء استخداماً صحيحاً في مواطن من شعره، وخاطئاً في مواطن أخرى. بل ربما جمع بين هذين النوعين من الاستخدام في بيت واحد. ولئن جاز مثل ذلك للشعراء فإنه لا يجوز للكتاب الذين لا تدعوهم الضرورة إلى استخدامه. وهوكثير في كتابات أبناء هذا العصر.

ومن ذلك قول علي:

صنفان بعض في الحضيض مُسَخَّرٌ والبعض في الترف اللذيذ الهاني

وقوله:

أواه ما أظلم الأقدار تحرمني والغير يرتع في خبات نعماكِ

وقوله:

أنتِ مثلي لا شكَّ روحٌ وفنٌّ لستِ كالغيرِ حفنةً من رمادِ

فهو في هذه الشواهد الثلاثة قد عرّف كلاً من كلمتي بعض وغير باللاّم، والصحيح أنهما لا يُعَرَّفانِ إلا بالإضافة إلى غيرهما من الأسماء:

أما قوله:

سائراً للخلود رغم العوادي رغمَ حُسَّادِ فنِّه ولبابِهِ

وقوله:

برغم الباطل اتحد اليهودُ ورغم الحق تُقَصِمُنا الحدود

فقد استخدم كلمة رغم في البيتين دون أن يدخل عليها حرفاً من حرفي الجر اللذين لابدَّ من دخولِ أحدهما عليها، وهما الباء أو على.

الثالث: خطأ أسلوبي كقوله في إحدى رباعياته:

لنا في كل قُطْرٍ خافياتٌ وكُتّاب، مجلاتٌ، مدارسُ.

والشاهد في عطفه كلمتي مجلات ومدارس على كلمة "كُتّاب" دون أن يستخدم حرفاً من حروف العطف. وهو أثر من آثار الترجمة الحرفية التي دلفت إلى أساليب الشعراء والكتاب من اللغة الإنجليزية التي تجيز قواعدها ذلك.

.....

أما بالنسبة للشكل في شعر علي دمر فإن أول ما نلاحظه هو تمسكه بأوزان الشعر العربي القديم التي استقرأ قواعدها الخليل بن أحمد الفراهيدي، وعددها خمسة عشر بحراً زاد عليها الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة أحد تلاميذ سيبويه بحراً آخر سمّاه المتدارك. فأصبحت بحور الشعر العربي التي تناهت إلينا ستة عشر بحراً ولا تزال.

وانطلاقاً من هذا الإخلاص لتقاليد الشعر العربي فإن جميع ما أبدعه عليّ من قصائد ومقطوعات ورباعيات لا يخرج عن أحد هذه البحور أو ما يتفرع عنها من مجزوءات. وقد قمنا بإجراء عملية إحصاء دقيقة لما وقع بين أيدينا من شعر عليّ فتبين لنا أنه مُوزع على الأوزان التالية:

الرقم	البحر	عدد القصائد	عدد المقطوعات	عدد الرباعيات
1	البحر الخفيف	36قصيدة	4 مقطوعات	
2	مجزوء الخفيف	3 قصائد		
3	البحر البسيط	26 قصيدة	8 مقطوعات	5 رباعيات
4	البحر الطويل	19 قصيدة	4 مقطوعات	15 رباعيّة
5	البحر الكامل	19 قصيدة	مقطوعتان	رباعيّة واحدة
6	مجزوء الكامل	3 قصائد		
7	البحر المتقارب	13 قصائد		
8	البحر الرمل	7 قصائد	مقطوعة واحدة	
9	مجزوء الرمل	8 قصائد		
10	البحر الوافر	9 قصائد		60 رباعية
11	البحر المجتث	7 قصائد	3 مقطوعات	3 رباعيات
12	البحر المتدارك	قصيدة واحدة		
13	مجزوء المتدارك	قصيدة واحدة		
14	البحر الرجز	قصيدتان		
15	البحر السريع	قصيدة واحدة		

من هذا الجدول يتضح أن علي دمر قد قام بعزف ألحانه الشعرية على خمسة عشر وزناً من أوزان الشعر العربي مستخدماً كل ما أباحته قواعد العروض من زحافات مفردة أو مركبة، وعلل زيادة أو نقص، وضرورات شعرية مقبولة ومستساغة، كما لجأ إلى الالتزام بوحدة القافية في مائة وأربع وثلاثين من قصائده ولم ينوعها إلا في تسع عشرة قصيدة منها.

وقد ورد سبع وسبعون من قصائد عليّ ورباعياته ومقطوعاته مُصرَّعة. أما التدوير فقد ورد في كثير من أبياتـه، وأكثر وروده في قصائده المنظومة على البحر الخفيف.

ولئن دل ما أسلفناه على شيء فإنما يدل على مايمتاز به شعر علي من ثراء موسيقي يجعل كثيراً منه صالحاً للغناء والتلحين.

والملاحظ أن شاعرنا قد عزف -فيما بين أيْدينا من قصائده – عن النظم في خمسة من بحور الشعر هي: المديد والهزج والمنسرح والمضارع والمقتضب، كما تجنب استخدام المشطور والمنهوك من البحور. وعلي دمر ليس نسيجاً وَحْدَهُ في هذا؛ فإن الغالبية العظمى من الشعراءالقدامى منهم والمعاصرين قد كرهوا النظم في هذه الأوزان.

وإلى ذلك يرجع السر في ندرة القصائد التي أوردت منظومة على هذه الأوزان في ديوان الشعر العربي على مر العصور.

ولسنا نستبعد أن يكون علي قد نظم في كل هذه البحور أو بعضها فيما لم تصل إليه أيدينا من شعره.

لقد عُنيَ عليّ بالموسيقا الداخلية في شعره بقدر ما عُني بموسيقاه الخارجية. وقد اعتمد في موسيقاه الداخلية على نوع من الإيقاع الداخلي الذي يتكرر بانتظام في تفعيلات البحور وما يضاف إليها من تقسيمات إيقاعية يولدها ورود المحسنات البديعية فيها واستخدام المناسب من الألفاظ التي تستدعيها المعاني.

أما في موسيقاه الخارجية فقد اعتمد على وحدة الوزن والقافية أحياناً أو تنوعها أحياناً أخرى، وعلى جودة الإلقاء والإنشاد.

وقد كفل هذا الأسلوب من أساليب الصياغة لقصائد عليّ أن تنفذ إلى قلوب المتلقين ومشاعرهم بسهولة ويسر.

لقد حرص عليّ على أن يعزف على قيثارة شاعريته مالا يتناهى من ألحان الشعر الأصيل وأنغامه في الوقت الذي جنح فيه كثير من المتشاعرين إلى التخلص النهائي من موسيقا الشعر وبحوره، وراحوا ينكبون على وجوههم في هُوَّة مايسمونه بالقصيدة النثرية التي يبرأ منها الشعر.

حقاً لقد كان علي دمر – طيب الله ثراه فارساً من فرسان الشعر العربي المعاصر الذين ثبتوا في ميدان المعركة، وأبوا أن يترجلوا عن خيولهم ويسلموا الراية إلى المتآمرين على أصالة هذه الأمة وتراثها الأدبي النبيل.

وقد أصرّ أن يجعل من الأصالة والشفافية وعمق التجربة والإيمان بالحياة والتأمل العميق، والوقوف في وجه أعداء الأمة الذين يريدون مسخ شخصيتها والقضاء على هويتها منطلقات راسخة ينطلق منها في تصوير تجاربه الشعرية التي تشتمل عليها دواوينه كلُها.

**

الخاتمة

من سياحتنا الطويلة مع شعر علي دمر في الفصول السابقة يتبين لنا أن عليّاً شاعرٌ رومانسي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

لقد كانت الصلة التي تربطه بعصره صلة صراع مستمر وجهاد متواصل، صلةً يطغى عليها الإحساس بالسخط على المجتمع، والشعور بالغضب من موقفه منه. وقد انعكس ذلك في مضموناته الشعرية على اختلافها وتنوعها.

وقد تجلت رومانسيته في عدم رضاه عن الحياة، وفي قلقه من عالمه وما يمور به من أحداث، وفي حزنه المبرَّر، وإحساس بالغربة الروحية والفعلية، وفي امتلاء نفسه بالعواطف الإنسانية الجيّاشة التي جعلت من الحب والطبيعة والمثل العليا أهم ما نذر له شعره من موضوعات.

وكان معتداً بذاته على الرغم من إحساسه بالألم المرير الناجم عن الجفوة بينه وبين مجتمعه. وقد تمنى الموت كثيراً في شعره إحساساً منه بأن السعادة في هذه الحياة غير دائمة، وأن الموت ليس إلا انعتاقاً لعالم أجمل يصل بمتمنيه إلى العيش في عالم مثالي يختلف كل الاختلاف عن هذا العالم المفعم بالقلق والحيرة والسأم والضياع والإحباط.

كانت نفسية عليّ نفسيّة ثائرة لا تعرف الهدوء، ناقمة لا تعرف الرضى؛ ولكنها مع ذلك تدعو إلى تحمُّل الحياة والكفاح من أجل التخلص من آلامها في تسام نبيل، يعلو على الاستسلام والرضوخ وتقبُّل المهانة والذل والضيم والمعاناة، ويتمسك بكل ماهو سام ونبيل من القيم والمثل والسلوك.

ومثلما أحب الرومانسيون الأوروبيون العزلة عن الناس، ومالوا إلى الانطواء على أنفسهم، فقد تمنى عليّ أن يقضي بقيّة عمره معتزلاً الناس في

كوخه الشعري الذي أقامه في مزرعته متفرغاً لفنه وأدبه.

وقد أمضى عليّ حياته متمرداً على مجتمعه، متعالياً على المنحرفين الذين شوهوا وجه الحياة بأفكارهم وتصرفاتهم.

وقد احتفظ بكبريائه وتعاليه حتى آخر لحظة في حياته فلم يسخر شعره في سبيل سلطان جائر، أو حزب متنفذ، أو ثريّ بليد.

وقد وقر في نفسه أنه لم يصل إلى ماوصل إليه من خيبةٍ في المسعى، وابتعادٍ عن تحقيق طموحاته إلا لفساد المجتمع أو لأنه ضحيّة من ضحايا القدر.

وقد ظل طوال عمره متطلعاً إلى عالم مثاليّ خلقه لنفسه،وأبدع في وصفه، وصوّره لنا كما تخيلته أوهامه وأشواقه وخيالاته دون أن يتمكن من العثور عليه أو العيش فيه.

وبعد، فقد بقيت لنا كلمة حول المنهج الذي ألزمت به نفسي في دراسة شعر عليّ. وفيما يتعلق بذلك أقول:إن بعض النقاد قد لا يرضون عن هذا المنهج الذي ألزمت به نفسي في هذه الدراسة. وإلى هؤلاء أقول: إنني لم أعمد إلى اختيار هذا المنهج إلا اعتقاداً مني بأنه أكثر المناهج ملاءمة لدراسة شعر علي دمر.

ولستُ أشك في أنني لو لجأت إلى تطبيق مقاييس منهج آخر على شعر عليّ فإن شيئاً من الحيف –قلّ أو كثر– سيلحق بهذا الشاعر وشعره.

إن الناقد المنصف –في زعمي– هو الذي يضع في حُسبانه خصائص الشعر الذي يتصدى لدراسته قبل أن يفكر في اختيار المنهج الملائم لهذه الدراسة.

ومهما يكن من أمر فإن بحثي هذا لن يكون هو القول الفصل في دراسة شعر علي دمر –رحمه الله– لسببين:

أولهما: أن هذه الدراسة لم تشمل كل ما خلّفه لنا علي من تراث شعري يفوق ما وقع منه في أيدينا بكثير.

ثانيهما: إن أيّ عمل إنساني –مهما بذل صاحبه في سبيل إنجازه من جهد – فإنه لا يمكن أن يكون مُنَزّهاً عن الأخطاء والهفوات. ولكن يكفي صاحب هذا العمل أن يكون عمله خالصاً لوجه الله ثم وجه الحقيقة والتاريخ.

ولعل المقياس الأوحد الذي يمكن أن يُقَوّمَ به أيُّ عمل إنساني إنما ينحصر في الاطمئنان الذي يشعر به ضمير صاحبه بعد أن يكون قداستنفد في إنجازه كل

ماليه من قدرات.

وبعد فإنني لستُ أدري إن كان قد سبقني أحد في دراسة شيء من شعر علي الذي مضى على انتقاله إلى جوار ربّه اثنا عشر عاماً أو أكثر.

ومهما يكن من أمر فإنني ألتمس من اتحاد الأدباء والكتاب العرب – فرع حماة– إنْ لم يكن قد فعل– أنْ يُشكّل لجنةً تُعنى بتتبع تراث عليّ الشعري منهُ والنثريّ، وجمعه من مظانّ وجوده، والعمل على نشره، وتكليف بعض الباحثين بدراسة جوانبه المتعددة وتقويمها، حتى لا تتعرض هذه الآثار إلى ما تتعرض إليه آثار المبدعين من الأدباء والشعراء والمفكرين من إهمال أو ضياع أو انتحال.

ولعلّ خَيْرَ ما أُنهي به هذه الخاتمة هو قصيدتي التي رثيتُ بها صديق العمر علي دمر بعد أكثر من عام على رحيله.

وقد نُشرَتْ هذه القصيدة في 1986/5/9 في جريدة الأنباء الكويتية، كما احتلت المكان اللائق بها بين قصائد ديواني الثالث: "الطريق إلى أرض ليلى".

أين الذي ذاب وجداً؟!

حمـــاةَ أيـــن علـــيٌّ؟ الشـــاعرُ العبقـــريُّ
رَبُّ القريـــض المُجَلّـــي صِنْـــوُ الإخـــاءِ الوفـــيُّ

* * *

أيـــنَ الـــذي قَـــدْ تَغَنّـــى بســـحرِ هـــذا الوجـــودِ
بـــالزهرِ يَفْـــرَحُ عِطْـــراً بالسّـــاتِ القـــدودِ

* * *

بثـــورةِ الشّـــعبِ تَغْلـــي لحَظْـــمِ كـــلّ القيـــودِ
بالشـــعبِ يغصـــبُ حقّـــاً مـــن كـــلِ طـــاغٍ مَريـــدِ

* * *

بالسّـــلْمِ يَنْشُـــرُ جِنحـــاً علـــى جميـــعِ الرُّبـــوعِ
يُخَيِّـــمُ السَّـــعْدُ فيـــهِ علـــى رؤوسِ الجميـــعِ

* * *

أيـــن الـــذي ذاب وجـــداً ... فـــي حُـــبِّ أرضِ الشـــآمِ
وراحَ لَـــمْ يَجْـــنِ إلاّ ... مُـــرَّ الجفـــا والخِصَـــامِ

***

أمضـــى الحيـــاةَ شـــريداً ... يهيـــمُ فـــي كـــلِّ وادِ
خـــرَّتْ أمانيـــهِ صَرْعـــى ... علـــى رِمـــالِ البـــوادي

***

كـــمْ كـــانَ يـــا أمَلُ إلاّ ... يَقْضـــي غريبـــاً طريـــدا
وأن يمـــوتَ بـــأرضٍ ... تَمْتَـــهُ غَضّـــاً وليـــدا

***

قُضَـــى ولمّـــا يُحَقَّـــقْ ... ماشـــاءَ مِـــنْ أمْنِيـــاتِ
إلاّ صبابـــةَ عيـــشٍ ... فـــي غَيْهَـــبِ الفَلَـــواتِ

***

كـــم بَثّنـــي مِـــنْ شـــكاةٍ ... عَمّـــا رأى مِـــنْ جحـــودِ
ومـــا استقى مِـــنْ كُـــؤوسٍ ... ممزوجـــةٍ بـــالكنودِ

***

لكنّـــهُ لـــم يُصـــادفْ ... لـــديَّ غيـــرَ العـــزاءِ
لأننـــي كُنْـــتُ صنـــواً ... لـــه بـــدربِ الشـــقاءِ

***

أوَاهُ يـــا صِنْـــوَ روحـــي ... يـــاخيرَ خـــيرِ الرفـــاقِ
رَحَلْـــتَ دُونَ وداعٍ ... فهـــل لنـــا تـــلاقِ؟!

***

كَـــمْ قَـــدْ حَلُمْنَـــا سَـــوِيّاً ... بعـــالمٍ مِـــنْ نقـــاءِ
فيـــهِ تَغَـــبُّ البرايـــا ... مِـــنْ دَنِّ خمـــرِ الصفـــاءِ

***

بعـــالمٍ ليـــسَ فيـــهِ ... ظِـــلٌّ لبـــاغٍ غَشُـــومِ
الحـــبُّ فيـــه منـــارٌ ... يَهْـــدِي كَضَـــوْءِ النجـــومِ

***

بعـــالمٍ فيـــه يمضـــي ... بنـــو الغُروبـــةِ صِفْـــرا
كـــيْ يســـتردُّوا رُبوعـــاً ... ذاقَـــتْ وبـــالاً وعســـقا

***

كَـــمْ مِـــنْ ليـــالٍ قطعنـــا ... فيهـــا الثوانـــي نُغَنّـــي
ونُسْـــمِعُ الكـــونَ شِـــعْراً ... علـــى لحـــونِ التَّمَنّـــي

***

"غيبوبـــةُ الحـــبِ" كـــانت ... دنيـــا مِـــنَ الحـــبِّ نَشْـــوَى
تـــذوبُ فيـــه اشـــتياقاً ... نصبـــو ونهفـــو ونهـــوى

***

"إشـــراقةُ الحـــبِ" فيهـــا ... تُبَـــدِّدُ الظُّلُمـــاتِ
تُزْجـــي "حنيـــنَ الليـــالي" ... لعـــالَمِ الصبـــواتِ

***

كَـــمْ مـــن "عواصـــفِ هـــوجٍ ... علـــى هضـــابِ "بـــلادي"
أرســـلتها عاصفـــاتٍ ... مناديـــاً للجهـــادِ

***

يـــا"نَيْ" شـــعري تلاشَـــتْ ... ضـــاعَ النـــداءُ هبـــاءُ
أســـمعتَ لـــو كُنْـــتَ تدعـــو ... حيّـــاً يلبـــي النـــداءَ

***

يـــا قـــبرَهُ فـــي الهَفـــوفِ ... حويـــتَ عِلْمـــاً وفَنّـــاً
فَلْيَسْـــقِ تربُـــكَ دومـــاً ... مـــن وابـــلِ الغيـــثِ مُزْنـــا

***

كُـنْ رَوْضَـةً مِـنْ رِيـاضِ الجِنـانِ تحنـو عَلَيـهِ
يَلْقَـى بِهـا كُـلُّ خَيْـرٍ قَـدْ كَـانَ يصبـو إليـهِ

***

الكويت في 1986/04/20

وبعد، فلستُ الشاعر الأوحد الذي قام برثاء عليٍّ -رحمه الله- بل نهض بهذه المهمة عددٌ من أصدقائه ومريديه منهم الأساتذة الأدباء سعيد قندقجي، وسليم بركات، ووليد قنباز، وعبد الرزاق الأصفر، ومهدي الجندي، وإسماعيل عامود، وسهيل عثمان، فقد ألقى هؤلاء كلمات بليغة ومؤثرة في رثائه في الحفل الذي أقامه "اتحاد الكتّاب العرب" -فرع حماه- بمناسبة انقضاء أربعين يوماً على وفاته. وقد ألقى الأستاذ الشاعر منذر لطفي في الحفل نفسه مرثاة راوح فيها بين الشعر والنثر، كما ألقى الشعراء التالية أسماؤهم قصائد خالدة، وهم الأساتذة: رضا رجب، وأنور الجندي، وعدنان قيطاز، وعبد الوهاب الشيخ خليل، ومحمد حسن المنجد.

جزاهم الله وجزاني عن الشاعر ووفائنا له ولِفَنِّهِ أفضلَ الجزاء.

عمان- الجبل الأخضر
1997-06-30م.
الدكتور رجا سمرين .

****

فهرس الأعلام

الرقم	الاسم
	-أ-
1	الأخطل الصغير 237
2	الأخفش الأوسط "سعيد بن مسعدة".251
3	الأصفر "عبد الرزاق"19 .
4	الأيوبي "صلاح الدين" 41
5	الإبراهيمي "البشير"11
6	إبراهيم "حافظ" 236
7	البارودي "د. وجيه" 237
8	أبي ربيعة "عمر بن أبي ربيعة 112
9	أبو ريشة "عمر" 237
10	أبو سفيان "معاوية بن أبي سفيان" 41
11	أبو عيد "عبد الله"11
12	أبو الفداء 18
13	امرؤ القيس 174
14	أمين "كامل" 11
	-ب-
15	بركات "سليم" 21-258
	-ت-
16	التغلبي "طرفة بن العبد" 80
17	التل "عبد الله" 11
	-ج-
18	جاد "د.حسن" 9
19	الجبل "بدوي".236
20	الجندي "أنور" 258
21	الجندي "مهدي"7-161
22	الجهني "أبو السعود"11
23	الجواهري "محمد مهدي" 236

24	جودت "صالح" 44
25	جوركي "مكسيم"235
	-ح-
26	الحامد "بدر الدين" 19-236
27	الحسن " تاج السر" 11
28	الحمداني "سيف الدولة"
29	حمراء "أم أنس" 46
30	حمراء "أم كهلان" 46
31	حمراء "أنس" 7-47-49-54
32	حمراء "قمر" 7
33	حمراء "مؤنس" 22
34	حمراء "هاني"7-54
35	الحوماني "محمد علي 11
	-خ-
36	الخطاب "عمر بن الخطاب" 19
	-د-
37	دعبيس "سعد" 11
	-ذ-
38	ذو نواس "ملك اليمن اليهودي". 73
	-ر-
39	رجب "رضا" 18
40	الرصافي "معروف" 236
41	الرندي "أبو البقاء" 5
	-ز-
42	الزهاوي "جميل صدقي" 236
43	زياد " طارق بن زياد" 41
	-س-
44	السحرتي "مصطفى" 11
45	سرور "نجيب" 8
46	سمرين "زياد" 8
47	سمرين "غالب"10-11
48	سند "كيلاني" 11

49	السلواقيري "د.كامل" 11
50	سيبويه 251
	-ش-
51	الشابي "أبو القاسم" 237
52	الشيخ خليل "عبدالوهاب"
53	شداد "عنترة بن شداد" 247
54	الشرباصي "د.أحمد".11
55	الشعّار "منذر" 15
56	الشقفة "محمود" 19-20
57	شوقي "أحمد" 236
	-ص-
58	الصيرفي "حسن" 11
	-ط-
59	طوقان "إبراهيم" 237
	-ع-
60	العامودي "محمد سعيد" 11
61	عبد الجبار "عبد الله" 11
62	عبد الرحمن "جيلي"11
63	عبد الصبور "صلاح" 11
64	عبد الناصر "جمال" 37-38-39-44
65	عبد الوهاب "الموسيقار محمد" 243
66	عثمان "سهيل" 258
67	العنتيل "محمد فوزي" 11
	-ف-
68	فارس "محيي الدين" 11
69	الفاسي "علال" 11
70	فتح الباب "د.حسن" 11
71	الفتوى "ياسر" 7
72	الفراهيدي "الخليل بن أحمد" 251
73	الفلالي "إبراهيم هاشم" 11
74	الفيتوري "محمد" 11

-ق-	
قباني "نزار" 35-36-37-38-39-40-41-42-43-44-237	75
قنباز "وليد 258	76
قندقجي "سعيد 258	77
قيطاز "عدنان" 258	78
-ل-	
لطفي "منذر" 258	79
-م-	
المتنبي "أبو الطيب "41-60-247	80
المحاسني "د.زكي" 12	81
المرّي "سالم" 7	82
المُنَجِّد "محمد 258حسن"	83
المنقور "الشيخ ناصر" 12	84
منصور "أنيس" 44	85
المصري "سليمان" 19	86
-ن-	
ناجي "محمد" 11	87
النجفي "أحمد الصافي" 236	88
نشأت "د.كمال". 11	89
النعسان "سعيد" 18	90
-هـ-	
هتلر 92	91
-و-	
الوليد "خالد بن الوليد 92	92
- ي -	
الياسين "عبد الرزاق" 18	93

***

الفهـــرس

تمهـــيد 5
لماذا هذه الدراسة؟! 5
المقدمـــة 9
صداقة عُمر 9
الفصل الأول 17
حـياة الشـــاعر 17
مولده 17
بيئته الأولى 17
بيئته الثانية 18
وفاته 21
آثاره 22
الفصل الثاني 25
الشـــعر في شـعر علي دُمّـر 25
الفصل الثالث 45
الأســـرة فـي شـعر علـي دُمّـر 45
الفصل الرابع 57
الرثاء في شعر علي دُمّر 57
الفصل الخامس 65
المجتمع في شعر علي دُمّر 65
الفصل السادس 75
السياسة في شعر علي دمر 75

الفصل السابع *99*
الحب والغزل في شعر علي دُمَّر **99**
الحب في ديوان رعشات 101
الحب في ديوان "حنين الليالي" 111
الحب في ديوان "المجهولة" 122
الحب في ديوان "غيبوبة الحب" 149
الحبُّ في ديوان إشراق الغروب 164

الفصل الثامن *191*
الطبيعة في شعر علي دُمَّر **191**
الفصل التاسع *205*
الغربة والحنين والشكوى والضياع في شـــعر علـــي 205
الفصل العاشر *217*
المثل العليا في شعر علي دمر 217
الفصل الحادي عشر *227*
الموت في شعر علي دُمَّر 227
الفصل الثاني عشر *235*
الشكل والمضمون في شعر علي دُمَّر 235
الخاتمة *253*
فهرس الأعلام 259

***

***

هذا الكتاب

دراسة عن شعر الشاعر علي دمر من جوانية المختلفة في السياسة وفي المرأة وفي الحنين . وفي الإنسان والقضايا الاجتماعية الأخرى يتناول فيها الباحث جميع هذه الجوانب معتمداً على شواهد تطبيقية من شعره ، إضافة إلى الجوانب الفنية في الشكل والمضمون مقارناً بينه وبين نبض الشعراء الذين سبقوه أو عايشوه بلغة جيدة .

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

ثمن النسخة ٢٥٠ ل.س في القطر
٣٠٠ ل.س في أقطار الوطن العربي